كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

المؤرخ محكمة. وهم يطلقون عليه أحيانا محكمة التاريخ. فهو القاضي وهو ممثل الاتهام وهو ممثل الدفاع وهو كاتب الجلسة ايضا. من ذلك تتضح أهمية الحيدة التى يجب ان يتصف بها المؤرخ، ليس فقط لان الحيدة هى أساس العدالة. وانما كذلك لان المؤرخ الذي ينصب من نفسه اليوم محكمة يصدر فيها الحكم على الآخرين سوف يكون هو نفسه موضوع قضية لمحكمة اخرى بعد سنين تناقش ما كتب، وتحلل ما سجل، وتصدر حكمها له او عليه، وتصفه بالحيدة والعدالة او تدمغه بالميل هنا أو هناك.

من هنا وجب أن يكون القلم في يد المؤرخ ميزانا للعدل لا سيفا للبطش، فكما يزن المؤرخ السابقين، سوف يزنه اللاحقون، وبقدر ما يعدل مع من سبق، سوف يعدل معه من سوف يأتى، فالزمن يسير. والاجيال تتتابع جيلا بعد جيل وكتاب التاريخ سجل مفتوح لا يغلق أبدا.

واذا كانت هذه هي المحاظير والمحاذير التى تحوط عمل أى مؤرخ. فان أبسط اصول الحيدة ان ينقل المؤرخ نفسه بعيدا عن تأثيرات العصر الذي يعيش فيه ليضعها تحت كل تأثيرات العصر الذي يكتب عنه. وان يتخلص من اي فكرة مسبقة والا كانت النتيجة حكما ظالما على الشخص او الحدث الذي يكتب عنه. وقد يتحول البطل بذلك على يديه الى خائن. كما قد يتحول النصر الى هزيمة. ان أى شخص او اى حدث هو عنصر متحرك وسط عناصر متحركة، ذلك ان الحركة هي ناموس الكون. واذا كانت هذه هي قاعدة كونية، فان الشخص او الحدث - أى شخص وأى حدث - يواجه في كل لحظة بمتغيرات قد تترك آثارها على

مواقفه او تصرفاته او قراراته. من هنا ايضا يجب ان يدرك المؤرخ ان التاريخ لا يعرف او يجب الا يعرف المواقف الحادة. فالتاريخ شيء والمبادىء شيء آخر. المبادىء شيء يتعلق بعلم الاخلاق. أما التاريخ فهو سياسة والسياسة لا تعرف الابيض والاسود فقط. وانما هي تكييف للموقف حسب الظروف المحيطة او الظروف المستجدة.

والحكم على الرجل يجب الا يقوم على موقف واحد وانما يجب ان يستقرىء المؤرخ جميع المواقف وان يحللها على ضوء الظروف للخروج بالاتجاه العام او بالاستراتيجية التى تشكل الهدف الرئيسي لهذا الرجل او المسئول.

والمؤرخ يجب ان يكون هادئا . ذلك ان الغضب موقف واذا اتخذ المؤرخ موقفا فقد الحيدة. ومثل الغضب كما قلنا من قبل وأخطر منه المواقف المسبقة ذلك ان المؤرخ الذي يكون فكرة سابقة عن حدث ما او عن شخصية ما ثم يبدأ بعد ذلك في تناول هذه الشخصية او الحدث بالدراسة يكون قد اصدر حكمه قبل نظر القضية. ويحكم بذلك ليس على الشخصية موضوع التاريخ فقط انما على نفسه ايضا، اذ سرعان ما تصحح الاجيال المتتابعة الميزان، وتضع كلا في مكانه الصحيح. فما اكثر كتب التاريخ التى تمتلىء بها المكتبات ولكن لا أحد يفكر ان يفتحها او يستعين بها ذلك ان سمعتها معروفة لدى كل مهتم. واصحابها مجرَّحون لدى كل دارس. وما اعظمها تلك الكتب التى حرص أصحابها على توفير كل عناصر الحيدة، فبقيت على الدهر مراجع تضيف الى أصحابها فخرا بعد فخر. ويجعلها الباحثون والدارسون عمدة مراجعهم ومصادرهم.

ومادام المؤرخ مضطرا للرجوع الى كتابات من سبقوه فعليه الا يعتمد اعتمادا تاما على احكامهم وعليه أولا ان يبحث عن المعلومة المجردة ثم يؤجل الاعتماد على الحكم حتى يكوّن بنفسه الفكرة الكاملة ويضع هو ملامح الحكم السليم. ويجب عليه حتى قبل ان يلجأ الى الكتاب، أن يعرف شيئا عن الكاتب، وليس مهما أن يحفل المؤلف الجديد او البحث الجديد بعشرات المصادر والمراجع فالكم ليس مهما وانما المهم هو الكيف والاعتماد على عدد من المراجع الموثقة ولو كان قليلا،

افضل ألف مرة من حشد عشرات المراجع المليئة بالثغرات او المراجع سيئة السمعة.

ان القدم وحده لا يكفي مبررا لصدق ما يقال، فبعض الدارسين يتناولون الكتب القديمة بهيبة، معتقدين ان المرجع مادام قديما قد اصفرت أوراقه وتاكلت صفحاته فلابد ان يكون صادقا او اكثر صدقا. وهذه مقولة مغلوطة. فرغم الجهد العظيم الذي بذله السابقون في مختلف المجالات. ورغم ما اضافوه الى التراث الانساني من عطاء لا ينكره أحد الا اننا يجب الا نغفل تطور الزمن وما جاء به من ادوات حديثة وسعة أفق وتجمع للافكار والخبرات والمعلومات وتوافرها بصورة لم تكن متاحة في الايام الخوالى. مما يجعل نظرة الباحث اليوم اكثر بعدا واكثر عمقا، ويوفر له من أدوات البحث ما لم يتوافر لأحد من السابقين.

هذه كلها ملامح درب يجب ان تكون أمام الباحثين في التاريخ عامة وتاريخ الخليج خاصة. كان لابد من الاشارة اليها ونحن نرى اتجاها مباركا من عدد كبير من الباحثين في خوض هذا المجال مجال الكتابة التاريخية.

حركة الكشوف البـ

عند دراسة العوامل التي أدت الى حركة (الكشوف) الجغرافية البرتغالية، نقف على عاملين رئيسين يمكن اعتبارهما أساسا للحركة وهما:

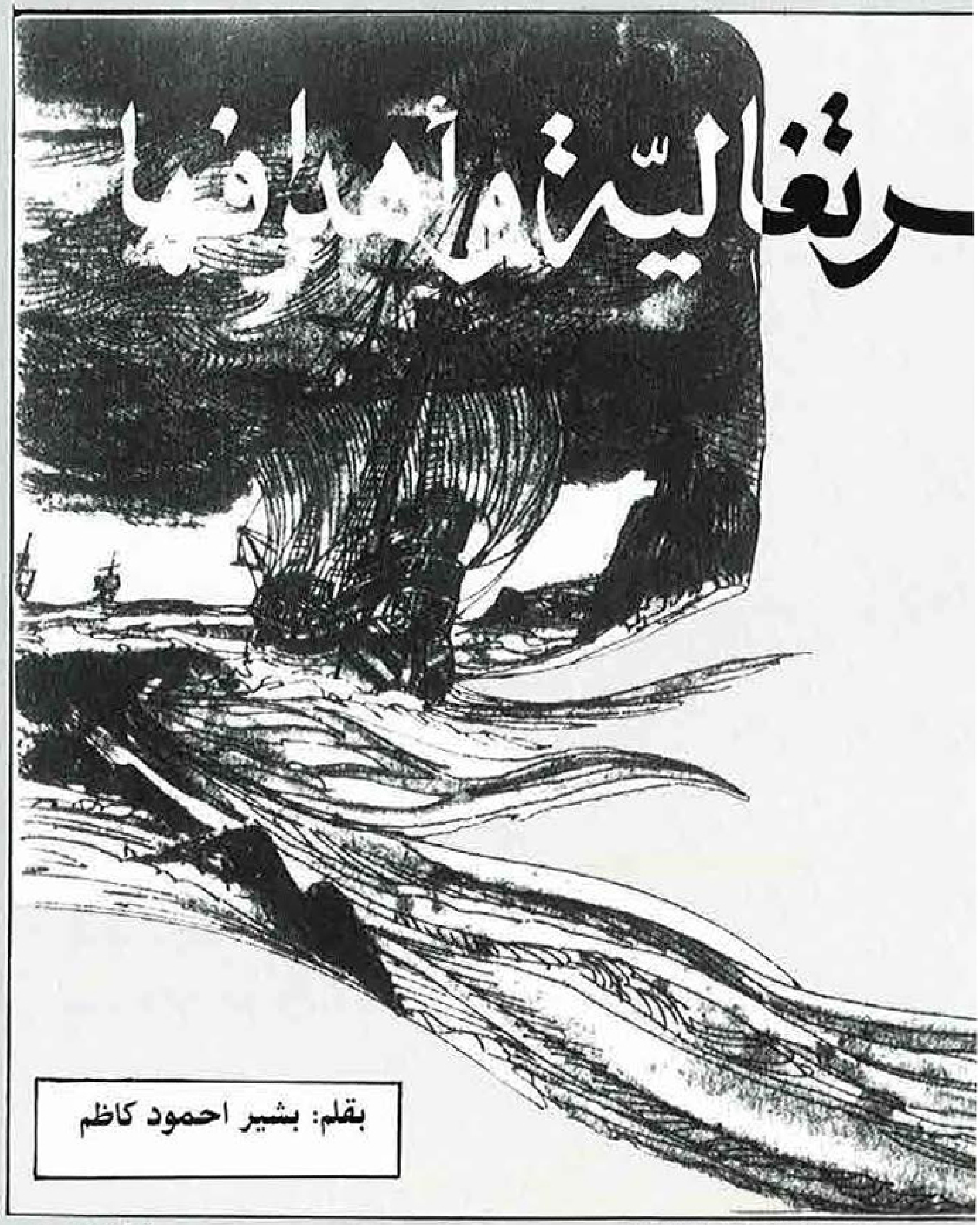
أولا: العامل الاقتصادي:

يعد هذا العامل من أهم العوامل التي أوحت للبرتغاليين ببذل الجهود المتواصلة والمغامرات المكثفة من أجل الوصول الى الشرق، حيث كانت لديهم رغبة شديدة في الاستئثار بالتجارة الشرقية، التي أصبحت موردا كبيرا تنعم به البلاد الاسلامية والمدن الايطالية، بينما تصلهم السلع بأسعار مرتفعة لأنها تمر في احتكارات عدة ترفع من أسعارها وتجعلها تشح في بعض الأحيان في الأسواق الاوروبية.[1] ومن أجل ذلك سعت البرتغال جاهدة للوصول الى طريق بحرى يربط بين أوربا والهند وغيرها من الأقاليم الشرقية للاستعاضة به عن مسالك التجارة القديمة التي تمر من آسيا وشرقي افريقيا الى أوروبا[2].

ومن خلال ذلك سعى البرتغاليون وأعوانهم الجنويون الى تحقيق هدفين مهمين:

أولهما التخلص من احتكار المصريين والبنادقة للتجارة الشرقية والقضاء على الدعامة الأساسية التي يستند عليها اقتصاد مصر وأقطار الخليج وغيرها من الأقطار الاسلامية والبندقية وتحقيق الوصول الى طريق جديد لا يمر في البلاد الاسلامية يحصلون من خلاله على المنتجات الشرقية بأقل الأثمان. والهدف الثاني هو تعريض الاقتصاد في البلاد الاسلامية لحالة من الانهيار والتدهور، وفعلا نجح البرتغاليون في تنفيذ مخططهم العدواني بعد





بقلم: بشير احمود كاظم

معرفتهم لطريق رأس الرجاء الصالح وأصبحوا يحتكرون تجارة الشرق على اختلاف أنواعها كالتوابل والبخور والعطور والعقاقير الطبية والأقمشة الحريرية، بعد أن وصلوا الى مراكز صنعها وأخذوا ينقلونها الى عاصمتهم لشبونه، ثم يقوم التجار الاوربيون بتوزيعها الى أسواق أوربا التي تحتاجها. ومن أجل ذلك عملوا على تقوية مراكزهم التجارية في المحيط الهندي ومنعوا سفن المسلمين من مزاولة نشاطها التجاري فيه، وقد كشفوا من خلال مواقفهم هذه أغراضهم الاقتصادية اللاانسانية من خلال أعمالهم العدوانية ضد أهالي المناطق التي وصلوا اليها وعمليات النهب والسلب التي كان التجار المسلمون يتعرضون لها على أيديهم [٣]. وقد عبر البرتغالي (عمانويل الأول ١٤٩٥ ـ ١٥٢١م) الذي قامت في عهده أول حملة بحرية الى الشرق ـ في خطبته ـ عن أغراض الحملة وذلك عند سفرها حيث قال: «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»[٤].

ثانيا: العامل الديني:

يعد العامل الديني من العوامل التي تشكل أثرا فعالا في حركة الكشوفات البرتغالية حيث أن القضاء على الوجود الاسلامي في الشرق والمحيط الهندي كان غاية يطمح البرتغاليون الى تحقيقها وتباركها بابويه روما.[٥] ويرجع هذا العداء الى تاريخ الصراع بين المسيحيين والمسلمين في شبه جزيرة (أيبريا) في العصور الوسطى.

كانت الأهداف البرتغالية الانتقامية التعصبية موجهة نحو المسلمين حيث كان البرتغاليون يسعون للوصول الى مملكة القديس يوحنا[٦] حاكم الحبشة المسيحي، الذي كان له شخصية اسطورية وتناقلتها الشعوب المسيحية في اوربا في ذلك الوقت ومن ثم يعقدون معه تحالفا للالتفاف حول البلاد الاسلامية. وكانوا يظنون انهم اذا أبحروا جنوبا بمحاذاة ساحل المغرب فانهم سوف يصلون الى نهر السنغال الذي يتصل بنهر النيل، حيث يتمكنون بعدها من الوصول بمراكبهم هذه الى المملكة الحبشية التي توفر لهم تحقيق هدفهم في الأطباق على المسلمين من الشرق [٧].

وكانت المساعي البرتغالية تحظى بتأييد وتشجيع من البابا في روما الذي كان يصف المسلمين بمرض الطاعون حيث جاءذلك في المرسوم الذي بعث به عام ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م الى الأمير هنري الملاح والذي قال فيه: «ان سرورنا لعظيم ان نعلم أن ولدنا العزيز، هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه، الملك جان (Jan)بوصفه جنديا قديرا من جنود المسيح ليقضي

على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة...»[٨].

وتأكيدا للروح الصليبية لرحلات البرتغاليين الجغرافية فقد أمر البابا بأن ترسم صورة الصليب على أشرعة السفن وعلى ملابس البحارة والمشتركين في هذه الرحلات كما كان يعلق في مقدمة السفينة علم رسم عليه صليب ضخم.[٩].

وكان رفع الشعار الديني واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذي دفع بعض الكتاب والمؤرخين العرب الى وصف الرحلات البرتغالية في الشرق بأنها حروب صليبية جديدة وانها رد فعل لوصول المسلمين الى شبه جزيرة ايبريا وللحروب الصليبية في العصور الوسطى، وليس كما قالت بعض المراجع الاوربية: بأن حركة البرتغاليين هذه الحركة علمية بحتة ذات مضامين انسانية[١٠].

وزيادة على هذين العاملين المذكورين اعلاه، فان هناك عاملا آخر يأتي بعدهما من حيث الأهمية وهو الهدف السياسي الذي يتضمن رغبة البرتغال بتأسيس امبراطورية توسعية في افريقيا وآسيا وكان هذا الهدف واضحا من خلال مساعي البرتغال الحربية في احتلال المراكز المهمة في أعقاب وصولهم الى الهند، وانشاء منصب نائب الملك فيها عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م حيث كان هذا بداية لاقامة حكومة برتغالية في الشرق، لاسيما وان هذا الطموح صار يراود حكومة البرتغال لزيادة دائرة نفوذها التجاري الاستعماري.

التقدم البرتغالي نحو الشرق:

في بداية القرن الخامس عشر الميلادي كانت المعلومات عن وسط آسيا وشرقها مجهولة أو غامضة بالنسبة الى الاوروبيين، ومنذ ذلك الوقت أجهد الاوربيون أنفسهم في سبيل الوصول الى المنطقة المذكورة، وكان الأمير هنري الملاح[١١] (١٣٩٤م - ١٤٦٠م) أول من شجع على القيام بالأعمال الجغرافية والرحلات، حيث أرسل في سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م بعوثه الى سواحل افريقيه الغربية حيث اهتدى من خلالها الى بلاد (غانه) وانتزع تجارتها من أيدي العرب.

وقد استفاد البرتغاليون في رحلاتهم الجغرافية من خبرة الجنويين الذين كان لهم السبق في الطواف حول ساحل افريقيه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حيث كان هدفهم من ذلك يتجلى بالانفراد بتجارة الشرق ومنافسة البندقية التي استأثرت بتجارة البحر المتوسط ومصر والشرق الادنى بسبب علاقاتها الوثيقة مع حكومة المماليك، وعندما واصل الجنويون جهودهم فانهم وصلوا الى بعض أجزاء الساحل الغربي لأفريقيه في مواجهة جزر

كناري[١٢]. وبعد ذلك تولت البرتغال أكمال الجهود الاستكشافية مستعينة بالعلوم والمعارف العربية كالمرشدات الملاحية والخرائط البحرية والبوصلة والاصطرلاب التي ورثوها بعد استيلائهم على مدينة (سبته) سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م[١٣]، فضلا عن كتابات الجغرافيين العرب مثل الادريسي وان بطوطة، وغيرهما التي تتضمن وصف المدن والبحار الشرقية.

ويذكر بعض المؤرخين أن أول رواد المحيط الاطلسي الغربيين كانوا من الجنويين وأن أول من حاول الوصول الى الهند بالدوران حول افريقيه الغربية من الاوروبيين هو من مدينة جنوه، كما ان الاسطول البرتغالي الذي اكتشف امريكا أثناء محاولته الوصول الى الهند بالابحار غربا من السواحل الاوربية الغربية هو من الجنويين[١٤].

اما الدكتور أنور عبدالعليم فقد أشار الى أن العرب استطاعوا معرفة السواحل الافريقية الجنوبية والوصول الى الهند قبل أن يبدأ هنرى جهوده الكشفية بزمن طويل، وأوضح بأن وثيقة عربية لجغرافي عربي من غرناطة هو ابن سعيد (ت ١٥٠٠م) الذي الف كتابا بعنوان «جغرافية الأقاليم السبعة» ورد فيه ان ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة، دار حول افريقيه من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر.[١٥]

وقد اعتمدت البرتغال في محاولاتها للوصول الى الشرق على الجواسيس في الحصول على المعلومات الكافية عن وسط أسيا وشرقها واستخدموا في ذلك العمل البحارة، واليهود الذين يتكلمون اللغة العربية حيث ارسلتهم البرتغال الى الاقطار الشرقية لجمع المعلومات عن موانئها وحركة التجارة فيها والطرق البحرية في بحارها وامكانية الوصول اليها بطريق مباشر للوصول الى مملكة القديس يوحنا، في شرق افريقيه ومعرفة ما اذا كانت بلاده تتصل بالبحر وأين تقع مواطن الفلفل والقرفة وغيرهما من التوابل والبهارات التي يؤتى بها الى مدينة البندقية من بلاد العرب وتبعا لذلك فقد طور البرتغاليون من صناعتهم للسفن الحربية والأسلحة البارودية[١٦]، وتبنوا مهمة ارسال الجواسيس الى الشرق نيابة عن الاوروبيين. حيث ارسلت البرتغال سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م الجاسوسين (الفونسودي بيفا Alfonsodepava) و(بيدرو كوفلهام Pedrode Govilham). وقد أبحر هذان الجاسوسان من البرتغال بعد ان تزودا بالمعلومات والخرائط المتوفرة لدى الملك البرتغالي لتسهيل مهمتهما، ووصلا الى رودس ثم الى الاسكندرية فالقاهرة، وتوجها بعدها الى عدن وفي طريقهما حصلا على معلومات عن تجارة قاليقوط ثم ابحرا الى سواكن فعدن حيث افترقا، فذهب كوفلهام الى الهند وبافيا الى الحبشة.[١٧] وخلال

رحلاتهما الجاسوسية هذه ارسلا تقاريرهما الى ملك البرتغال التي تتضمن معلومات كافية عن تجارة الهند والمسالك البحرية والخرائط والمعلومات التجارية عن الرياح الموسمية.[١٨]

واصل الملك البرتغالي (يوحنا الثاني) العمل الجغرافي والمغامرات الاستكشافية التي بدأها هنري الملاح من قبله لغرض الوصول الى الهند، ففي نهاية شهر آب ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م ارسل بعثه برئاسة الملاح البرتغالي الشهير (بارتولوميو دياز Bartholomeo Diat) لمواصلة الابحار في اتجاه الجنوب والدوران حول افريقيه لتحقيق أهدافهم التي سبق ذكرها. وقد نجح هذا الملاح في التوغل بحذاء الساحل الافريقي رغم الصعوبات التي تعرضت لها بعثته ووصل بعدها الى منطقة تسمى خليج الجوا (Algoa)[١٩] في جو عاصف حيث سماها برأس الزوابع (رأس العواصف). ويذكر انه وصل الى أقصى جنوب القارة دون أن يعرف ذلك ثم استمر بالدوران حول رأس العواصف الذي سماه الملك البرتغالي فيما بعد (برأس الرجاء الصالح) لأنه بعث الأمل في نفوس البرتغاليين من أجل الوصول الى الهند، ولكن بعثة دياز عادت في عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م الى لشبونه بسبب تمرد البحارة وعصيانهم وسوء الأحوال الجوية وشدة الرياح والعواصف التي أرغمتهم على العودة بنفس الطريق الذي جاءوا منه.[٢٠]

أعدت البرتغال حملة أخرى بقيادة فاسكودا جاما (Vasco da Gama) الذي أبحر في عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م. بثلاث سفن في رحلة استطلاعية متجها الى الساحل الغربي لافريقيا لمواصلة ما عرفه (بارتو لوميو دياز)[٢١]، استطاع خلالها داجاما الوصول الى جزيرة القديس جورج القريبة من موزمبيق في الأول من آذار عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م[٢٢]، ثم وصل بعد ذلك الى موزمبيق، وكانت خطة داجاما في أول الأمر استخدام سياسة ودية مع سكان المناطق التي يمر بها، وعقد صداقات مؤقتة مع شيوخ العرب شرقي افريقيا، حتى اذا ثبت أقدامه في المنطقة نفذ خطته الصليبية مع العلم ان حكومة البرتغال كانت قد اصدرت تعليمات الى الملاحين في حملاتهم الأولى الى الهند، أوصتهم فيها بحسن المعاملة مع سكان المناطق التي يصلون اليها وعدم استخدام العنف والقسوة واخفاء أسلحتهم تحت طيات ـ الملابس وعدم التظاهر بها وذلك لكسب مودة الاهالي وصداقتهم الى ان يثبتوا اقدامهم في المنطقة ثم ينفذوا خطتهم الصليبية المقصودة.[٢٣]

وقد أكد (سونيا هاو) تلك السياسة وذكر بأن داجاما اتبع الاسلوب

السياسي المرن مع حاكم (قاليقوط) الذي باعه أنواعا رديئة من التوابل وبأسعار عالية لكي يظهر للسكان أن معاملة البرتغاليين حسنة واسلوبهم مرضي مع التجار (٢٤).

واستقبل داجاما في اول الأمر استقبالا وديا حتى ان أمير موزمبيق استضافه ورد اليه الضيافة بأن زاره في سفينته، ولكن سرعان ما تغيرت نظرة العرب اليه عندما اكتشفوا غاياته وعرفوا بأنه برتغالي صليبي.

وعندما شعر داجاما بتغير الموقف اسرع الى مراكبه هاربا نحو الشمال، الا أن الأخبار كانت قد سبقته الى (كلوه) و(ممباسا)حيث لقي فيهما جفاء أيضا، الا أن (مالندي) رحبت به بسبب الخلاف الذي كان قائما بينها وبين ممباسا(٢٥).

وقد أعتبر بعض الكتاب والمؤرخين ان نهاية القرن الخامس عشر الميلادي هى نهاية للعصور الوسطى وفاتحة للعصر الحديث، حيث استطاع البرتغاليون في ختامه الدوران حول افريقيه عن طريق رأس الرجاء الصالح والوصول الى مصدر التوابل، لذلك كانت السفن البرتغالية أول سفن أوربية دخلت الى الهند، وان أغلب الكتابات التي تناولت الاستكشافات الجغرافية أكدت ان وصول الاسطول البرتغالي الى الهند، كان بمساعدة الملاح العربي أحمد بن ماجد، الا أن هذه الآراء، حتى التي أوردها المعاصرون ماتزال تثير التساؤل عن الدوافع التي دعت ابن ماجد الى القيام بارشاد البرتغاليين في الوصول الى الهند.

ولذلك يمكن للباحث أن يعد تاريخ وصول البرتغاليين الى رأس الرجاء الصالح ومن ثم دخولهم المياه الهندية، نهاية للعصور الوسطى وفاتحة للعصر الحديث.

وأول من أشار الى اسم الملاح الذي أرشد فاسكودي جاما بالوصول الى الهند هو المؤرخ العربي الشهير قطب الدين النهر والي في البرق اليماني حيث قال: «وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر، دخول الفرتغال (البرتغال) اللعين من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر، ويلجون في بحر الظلمات، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر.. ويصلون الى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق، أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة، وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند، الى أن خلص منهم غراب الى الهند فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ـ وكان يقال لـه ملندي ـ

وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم، لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند»[٢٦].

وكان النهروالي المؤرخ العربي الوحيد الذي ذكر اسم ابن ماجد دليلاً للبرتغاليين في توجيههم نحو الهند، ورغم كون النهروالي من مؤرخي القرن السادس عشر الميلادي، الا أن هناك شكا كبيرا فيما أورده عن رواية الخمر والسكر وقد تكون مدسوسة على ابن ماجد الذي اتصف بتدينه ومتانة خلقه وعفته[٢٧]. ويذكر عن المسلمين في ذلك الوقت انهم لا يقبلون دعوة مسيحي لا يعرفون طعامه وشرابه[٢٨]، وفسر بعض المؤرخين والكتاب اتصال ابن ماجد بفاسكودا جاما في ميناء مالندي بتفسيرات عدة نذكر منها ما يأتي:

١) يرى هؤلاء ان هذا الاتصال كان تلبية لدعوة دي جاما الذي اتبع سياسة توطيد الصداقات مع أهالي الموانىء التي يصل اليها حيث يقيم دعوة لحكام تلك الموانىء ويدعو معهم ملاحي السفن الراسية فيها [٢٩]، وهذه سياسة سار عليها البرتغاليون في تلك الفترة من أجل ادخال الطمأنينة في نفوس أهالي المناطق التي يصلون اليها واكسابهم ثقتهم وضمان عدم التعرض لمقاومتهم لتسهيل مهمتهم.

٢) والرأي الثاني الذي يرى زيارة ابن ماجد لاسطول فاسكودي جاما كان مجاملة من ابن ماجد لصديقه ملك مالندي الذي رحب بالبرتغاليين خوفا أو ضعفا[٣٠] أو انه (حاكم مالندي) كان يريد توطيد علاقاته مع البرتغاليين بهدف مساعدته ضد حاكم ممباسا [٣١] حيث كان بينهما عداء سابق، ولهذا طلب ملك مالندي من دي جاما المرور بمالندي عند عودته من رحلة الهند ليبعث معه وفدا رسميا الى ملك البرتغال للتحالف معه[٣٢]، ومن أجل ذلك كان على ابن ماجد أن يجامل ملك مالندي ويستجيب له في الاتصال بالقائد البرتغالي دي جاما بعد أن طلب من ملك مالندي مرشدا يرافقه في طريقه الى الهند[٣٣].

٣) والتفسير الثالث مفاده ان مقابلة ابن ماجد كانت استجابة لرجاء ملك مالندي له بعد أن تطور الوقف في العلاقات بين ملك مالندي وبين دي جاما، حيث ان هذا الأخير طلب من ملك مالندي أن يزوده ببحار عارف بمسالك المحيط الهندي ويرشده الى الطريق الى الهند، الا أن ملك مالندي أهمل طلب دي جاما ولم يكترث به فتوترت العلاقات بينهما وعندما زار أحد خواص ملك مالندي الاسطول البرتغالي احتفظ دي جاما به رهينة عنده الى أن يلبي ملك مالندي طلبه، لذلك بادر الملك الى ارسال أحمد بن ماجد واعتذر عن تقصيره ثم عادت العلاقات الى سابق عهدها.[٣٤]

٤) وهناك تفسير آخر لدى بعض المؤرخين الاوربيين وبالأخص المستشرق الفرنسي فران (Ferrand) يعلل فيه زيارة ابن ماجد للاسطول البرتغالي ومقابلة دي جاما واعطائه معلومات عن الطريق للوصول الى الهند، بأن ذلك كان لقاء مكافأة مجزية وتعويض كبير من المال حصل عليه ابن ماجد عوضا عن الخدمات التي قدمها لهم [٣٥] واعتمد المستشرق الفرنسي فران فيما ذهب اليه حول تسمية الشخص الذي قاد اسطول دي جاما من مالندي الى موطن التوابل في كاليقوط على النص السابق الذي أورده، النهروالي.[٣٦]

وكتب عن ابن ماجد بشيء من التفصيل أشهر مؤرخي البرتغال من رجال القرن السادس عشر الميلادي وهو جوا دي بروس الذي كان مصاحبا لفاسكودي جاما في رحلته حيث قال: عندما كان فاسكودي جاما في (مالندي) جاء بعض التجار الوثنيين من (كنهايت) الواقعة بكجرات (الذين كانوا موجودين في ميناء مالندي في تلك الفترة) لزيارته على ظهر السفينة وكان معهم مسلم عربي يدعى (معلم كاناكا)[٣٧] وكان ذلك لقبا هنديا لاسد البحر ابن ماجد المعلم. ورضى هذا الشخص بأن يصحبنا نظرا لتلك المتعة التي أحس بها في صحبته رفاقنا وبغية رضاء الملك المالندي الذي كان يبحث عن دليل سفينة للبرتغاليين يدلهم على

طريق الهند ـ فلما جرى الحديث بينه وبين فاسكودي جاما، أعجب بمعلوماته واطلعه على مصور لجميع شواطىء الهند كما يعرفها المسلمون مع خطوط الطول والعرض...»[٣٨]

وأكدت المصادر التركية ان الملاح العربي أحمد بن ماجد الذي كان يسمى (معلما بحريا) هو الذي صاحب الاسطول البرتغالي الى الهند، عندما كان موجودا آنذاك في ميناء مالندي.[٣٩]

وينفى بعض المؤرخين العرب قيام أحمد بن ماجد الملاح العربي المشهور بمساعدة البرتغاليين الصليبيين في وصولهم الى الهند.[٤٠]

وعلى اية حال فان قيام ابن ماجد بمساعدة البرتغاليين في الوصوال الى الهند ربما كان بسبب عدم معرفة الملاح العربي لنيات البرتغاليين الحقيقية في القضاء على تجارة الشرق.

الهوامش

(١) عبدالحميد البطريق: «التاريخ الاوربي الحديث» (دار النهضة العربية بيروت - ١٩٧٧)ص ٤١.

(٢) W.H Morelan: OP, Cit, P.3.

(٣) السيد مصطفى سالم: «الفتح العثماني الأول لليمن» (القاهرة - ١٩٦٩) ص ٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٥) البطريق: المصدر السابق، ص ٤٧.

(٦) ان المقصود بمملكة القديس يوحنا هو مملكة الحبشة التي كان الاوروبيون يتسامعون عنها ويتناقلون اخبار قوة حاكمها ويسعون لمحالفتها لعلهم يتخذونها قاعدة في قلب افريقيا. (المصدر نفسه، ص ٤٦)

(٧) سالم: المصدر السابق، ص ٤٦.

(٨) عبدالعزيز الشناوي: «المراحل الاولى للوجود البرتغالي» لجنة تدوين تاريخ قطر، جـ٢، المصدر السابق، ص ٦١٨.

(٩) حسن صبحي: «التاريخ الاوربي» جـ١ «الاسكندرية - ١٩٧٥) ص ٦٨.

(١٠) الشناوي: المصدر السابق ص ٦١٥.

(١١) هنري الملاح: هو الابن الثالث لملك البرتغال «يوحنا الاول» وكان هنري شديد التعصب للمسيحية، فاهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية حيث كان يجمع الخرائط الجغرافية ويدرسها دراسة دقيقة، ويدرس الاجرام السماوية وحركة الرياح، وكانت روحه الصليبية مسيطرة عليه وتقوده للمغامرة التي قام بها لنشر المسيحية في افريقيه (البطريق - المصدر السابق - ص ٤٨).

(١٢) حسن أحمد محمود: «التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب» مجلة المؤرخ العربي، بغداد العدد/ ١٢، السنة ١٩٨٠، ص ٢١٨.

(١٣) محمود: المصدر السابق، ص ٢١٨.

(١٤) علي التاجر: «الربان أحمد بن ماجد» مجلة العرب، (القاهرة - ١٩٨٢) السنة الثالثة ص ٢٨٨.

(١٥) عبدالعليم: «ابن ماجد الملاح» سلسلة اعلام العرب، العدد ٦٣ لسنة ١٩٦٧، ص ٧٥.

(١٦) حسن صالح شهاب: «فن الملاحة عند العرب» دار العودة، (بيروت ـ ١٩٨٢) ص ٤٦.

(١٧) Serjeant, R.B. The portuguese off the south Arobian Coast, (Oxford University press 1963) P.40.

(١٨) محمود الغول: «الصراع بين العرب والبرتغال في شرق افريقيا» مجلة العربي، العدد ٤٤ السنة ١٦٢ ص ١٠٠.

(١٩) البطريق: المصدر السابق، ص ٦١٥.

(٢٠) صبحي: المصدر السابق، حـ ١ ، ص ٧٠.

(٢١) شهاب: «فن الملاحة عند العرب» ص ٤٦.

(٢٢) عبد ربه: المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٢٣) سونيا هاو «في طلب التوابل» ترجمة محمد عزيز رفعت، (القاهرة ـ ١٩٥٧) ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٢٥) الغول، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٢٦) قطب الدين النهروالي: « البرق اليماني في الفتح العثماني» أشرف على طبعة أحمد الجاسر ط (القاهرة ـ ١٩٦٧)، ص ١٨ ـ ١٩.

(٢٧) أحمد ابن ماجد: «ثلاث أزهار في معرفة البحار» تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير مرسي (القاهرة ـ ١٩٦٩) ص ١٨ ـ ٥٢، كذلك انور عبدالعليم «ابن ماجد الملاح» ص ٥٢.

(٢٨) محمد ياسين الحموى: «الملاح العربي ابن ماجد» ص ١١.

(٢٩) سونياهاو: «في طلب التوابل» ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣٠) المصدر نفسه: ص ١٦٩.

(٣١) الغول: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٣٢) سونيا هاو: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

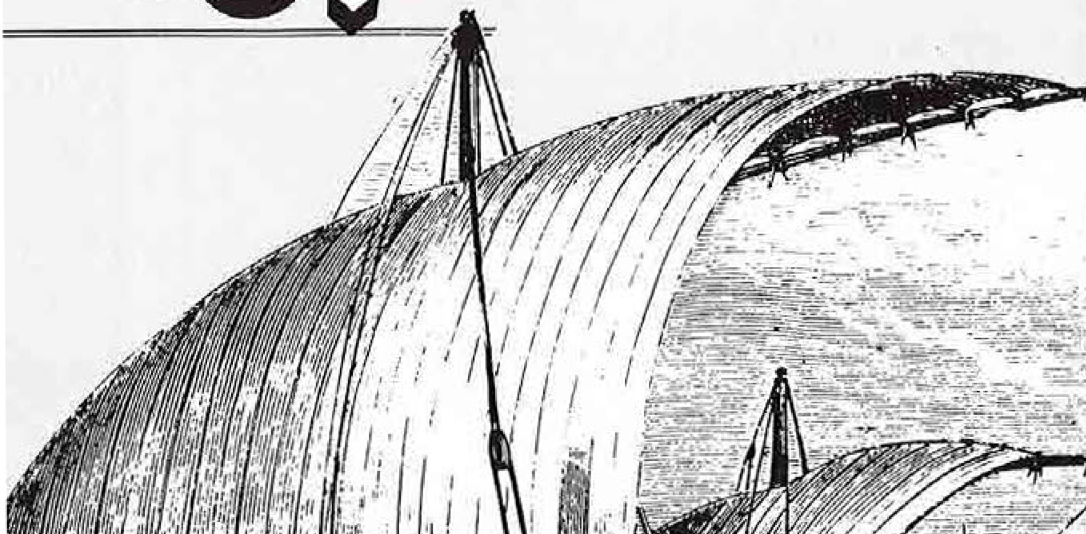
(٣٣) وذكر سونيا هاو بان العلاقات كانت قد توطدت بين القائد البرتغالي وملك مالندي وتبادلا الهدايا فيما بينهما وكان من بين الهدايا التي اعدها ملك مالندي كتلة من العنبر الند، طولها أكثر من متر وعرضها كعرض خاصرة الرجل كما ان دي جاما قدم له عشرة صناديق تحتوي على الهدايا التي كان قد اعدها قبيل رحلة الطواف حول طريق راس الرجاء الصالح.

(٣٤) عبدالعليم: «ابن ماجد الملاح» ص ٥٢.

(٣٥) الحموي: «الملاح العربي أحمد ابن ماجد» ص ١٢

(٣٦) نفس المصدر والصفحة.
(٣٧) انها صيغة مستعارة من (كاناكان) أي رياضي، فلكي، كاتب، والمعلم كاناكا تعنى معلم الملاحة الفلكية، وان بعض تجار مالابار في الهند كانوا يسترشدون برأيه في أسفارهم. فكناكا اسم مهنه، ولقب هندي لأسد البحر أحمد بن ماجد. (هذا التوضيح للمستشرق الفرنسي فيران. منقول من كتاب الحموي: «الملاح العربي أحمد ابن ماجد» ص ١٢.
(٣٨) الحموي: المصدر السابق، ص ٩.
(٣٩) محمد صفوت بك: «وثائق عثمانية عن الشرق» مجلة المجمع العلمي العثماني استنبول السنة الرابعة ص ١٥٢١.
(٤٠) انور عبدالعليم: «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣، ١٩٦٩، ص ١٣٢.

ابن م



ماجد

دوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته

دكتور: حسام الخادم
بالمركز القومى لتاريخ العلوم
بجامعة بروكسل ـ بلجيكا

ان دور رجل البحار والفلكي شهاب الدين أحمد بن ماجد (ولد بجلفار ـ رأس الخيمة حوالي ٨٣٩هـ سنة ١٤٣٥م ـ وتوفى بعد ٩٠٦هـ/١٥٠١م/ في اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند البحري، والنتائج السياسية والاقتصادية التى اعقبت ذلك الاكتشاف مازال حتى الان يثير اهتمام ومناقشة الباحثين والمؤرخين.

وفي نفس الوقت نظرا لاهمية اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند وما تبع ذلك من تغيير اقتصادي ودبلوماسي وعسكري فان الدراسات التى خصصت لابن ماجد غالبا ما تركزت حول حقيقة علاقته بالبرتغاليين وارشاده لفاسكو دي جاما ١٤٦٠م ـ ١٥٢٤م/الى طريق الهند البحري، واغفلت الاهمية العلمية لكتاباته خصوصا في مجالي علم الملاحة وعلم الفلك ومكانته في تاريخ العلوم عند العرب.

لذلك سيتناول هذا البحث نقطتين.
الاولى: علاقة ابن ماجد باكتشاف البرتغاليين للطريق البحري للهند وذلك تمهيدا لمناقشة دراسة جديدة عنه ظهرت في البرتغال سنة ١٩٨٣.
الثانية: بيان بعض مظاهر التفكير العلمي في كتابات ابن ماجد في علم الملاحة وعلم الفلك.

في السابع من شهر مايو (أيار) سنة ١٤٨٧ ترك بيرو داكو فيلاوو وافنسو دي بايفا ميناء سانتا ريم بعد ان كانا قد كلفا من قبل جان الثاني (١٤٥٥م - ١٤٩٥م) ملك البرتغال بالقيام ببعثة بحرية لمحاولة اكتشاف طريق التوابل وزيارة بلاد الحبشة. وكان بيرو داكوفيلاوو ملما باللغة العربية التى يرجح انه كان قد تعلمها اثناء اقامته في شمال افريقيا وبالتحديد في تلمسان وفاس حيث كان يقوم هناك بدور الممثل الرسمي لملك البرتغال.

كان هذان المبعوثان يستعملان اثناء هذه الرحلة خريطة للعالم من رسم فرا مورو الراهب من مدينة البندقية. وكانت الخريطة تحمل تاريخ سنة ١٤٦٠م وكانت تتميز بدقة معلوماتها فيما يتعلق ببلاد الحبشة وشرق افريقيا عموما وسبب ذلك هو ان المبشرين والرحالة خلال القرن الخامس عشر كانوا قد جمعوا قدرا لا بأس به من المعلومات على جانب كبير من الدقة فيما يختص بهذه المنطقة، بجانب ذلك كانت الخريطة تضم الكثير من المعلومات الجغرافية التى لم تكن معروفة سابقا عن هذا الجزء من افريقيا.

أما بخصوص شبه جزيرة العرب فكانت متميزة عما سبقها من خرائط بعدة نقاط منها الشكل العام لشبه الجزيرة اذ كان صحيحا تقريبا برغم ان التفاصيل الداخلية قد بقيت - كما هو الحال في الخرائط السابقة - بصورة تكاد تكون غير معروفة. فقط مكة والمدينة المنورة وجدتا في موقعيهما الصحيحين. أما فيما يتعلق بالخليج العربي فالخريطة كانت اقل دقة بكثير فشرق الخليج مثلا كان نسخة من خريطة بطلميوس (١٠٠م - ١٧٠م).

أبحر بيرو دا كوفيلاوو وافنسو دا بايفا على ظهر سفينة برتغالية الى مصر وبعد وصولهما الى الاسكندرية اتجها الى القاهرة بصحبة مجموعة من المغاربة من فاس وتلمسان كانوا في طريقهم الى عدن، ومن القلزم (السويس) ابحر البرتغاليان مع من صحبهما من هؤلاء المغاربة الى عدن. وفي عدن افترق الرحالان داكو

فيلاوو، ودا بايفا.. دا بايفا رحل وحده قاصدا الحبشة ولكنه مات في الطريق، بينما داكو فيلاوو ذهب من عدن الى الهند على ظهر سفينة عربية حتى وصل الى كانانور بعد رحلة دامت شهرا كاملا.. هذه السفينة كانت عائدة الى الهند بعد ان كانت قد حملت حجاجا مسلمين من الهند الى مكة واثناء رحلته البحرية هذه كان بيرو دا كوفيلاوو قد تعلم من البحارة العرب على ظهر السفينة مبادىء الابحار في المحيط الهندي بالاعتماد على مواسم الرياح. وبعد وصوله الى الهند قام داكو فيلاوو بزيارة المدن الاتية: كانانور وكاليكوت وجوا وذلك كان قبل عشر سنوات من زيارة فاسكو دي جاما.. بالاضافة الى ذلك رجع داكو فيلاوو من الهند مباشرة الى ساحل افريقيا الشرقي، وبالتحديد سفالة، ثم من سفالة على ظهر سفينة عربية ايضا طوال ساحل افريقيا حتى السويس ومنها الى القاهرة.

وفي القاهرة كان في انتظاره خطاب من الملك جان الثاني يأمره فيه بالتوجه الى الحبشة، ولكن قبل مغادرته القاهرة في طريقه الى الحبشة ارسل داكو فيلاوو تقريرا للملك عن رحلته الى الهند حسب شهادة فرانسسكو الفاريس وقد اعطى داكو فيلاوو للملك في هذا التقرير وصفا تفصيليا للساحل الشرقي لافريقيا ذكر فيه المدن التي يمكن منها عبور المحيط بسهولة الى كاليكوت. وعلى اغلب الاحتمالات فان هذا التقرير قد وصل فعلا للملك حيث اتخذ بعد ذلك اساسا لخط السير الذي التزمه فاسكو دي جاما في رحلته وبعد وصول داكو فيلاوو الى الحبشة بفترة قصيرة حدد ملك الحبشة اقامته هناك ولم يسمح له بالرجوع مرة اخرى الى البرتغال. وهكذا قضى بقية حياته في الحبشة الى ان مات هناك. واثناء اقامته في الحبشة كان قد التقى بفرانسيسكو الفاريس الذي كان يشغل من سنة ١٥٢٠م الى سنة ١٥٢٧م وظيفة القس الرسمي لسفارة البرتغال في الحبشة، وهو نفس الشخص الذي نقل الى البرتغال تفاصيل رحلة داكو فيلاوو، كما سمعها منه حيث أكد ان داكو فيلاوو كان قد زار جميع مراكز نشاط البرتغال في المحيط وهي:

أولا: الموانىء العربية على طول الساحل الشرقي لافريقيا كسفالة وموزامبيق وكلوة وممباسة وملندي وغيرها.

ثانيا: عدن.

ثالثا: هرموز.

رابعا: كاليكوت وكانانور وجوا، وبالاضافة الى ذلك فان فرانسسكو الفاريس حمل الى الملك جان الثاني بلشبونه التقرير الذي كان قد كتبه داكو فيلاوو.

كانت رحلة فاسكو دي جاما هي اول عمل هام في فترة حكم الملك

مانيويل (عمانـويل) (١٤٩٥م - ١٥٢١م) الذي خلف جان الثاني على عرش البرتغال. وكان فاسكو دي جاما قد اختير قائدا لهذه الرحلة ومسئولا عنها..

أولا: لان البرتغاليين كانوا يعلمون مقدما انه سيصل من الساحل الشرقي لافريقيا الى الهند، حيث كان مقررا ان يتبع خط سير رحلة داكو فيلاوو التى كان قد قام بها منذ عشر سنوات..

ثانيا: كان البرتغاليون في حاجة الى دبلوماسي ماهر ورجل مفاوضات قبل احتياجهم الى بحرى مدرب وذلك لمفاوضة الزاموريم في كاليكوت..

وفي الثامن من يوليو (تموز) سنة ١٤٩٧م ابحر الاسطول البرتغالي من لشبونة بقيادة فاسكو دي جاما، وفي الثاني من مارس (آذار) سنة ١٤٩٨م وصل الى موزامبيق ، وفي الخامس عشر من ابريل (نيسان) وصل الى ماليندي. وفي ماليندي قام فاسكو دي جاما بتعيين المرشد البحري الذي قاده الى كاليكوت مرة واحدة ومعلوماتنا عن هذه الفترة مستمدة من مصدرين اساسيين:

الأول: سجل رحلة فاسكو دي جاما، والفقرة الخاصة بهذا الجزء من الرحلة مختصرة جدا ولا تعطى تفصيلات فيما يتعلق بهوية هذا المرشد البحرى.. ونص هذه الفقرة هو الاتى:

«لقد تركنا ماليندى في الثلاثاء، الرابع والعشرين من الشهر (ابريل نيسان) قاصدين مدينـة اسمها قاليكت (كاليكوت) مع المرشد الذي قد اعطاه الملك لنا» (ص ٤٦).

الثـاني: كتابـات المؤرخـين البرتغاليين في القرن السادس عشر مثل:

أ - خواو دي باروس.
ب - فرناو لويس دي كستانيدا.
ج - دمياؤو دي جوييس.

هؤلاء المؤرخـون البرتغـاليون الثلاثة يعطون جميعا اسم المرشد البحري الذي قاد فاسكو دي جاما من ماليندى الى كاليكوت. عند دي باروس اسم هذا المرشد هو «ماليمو كانا بينما عند كل من دي كستانيدا ودي جوييس الاسم هو كنكا».

هذا الجزء من رحلة دي جاما مذكور ايضا في مصدر عربي هو كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني» لقطب الدين النهراوالي (٩١٧هـ/١٥١١م - ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) وهذا هو النص كما نشره جبريل فراند.

«واستمروا على ذلك وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم احد الى بحر الهند الى ان خلص منهم غراب الى الهند فلازالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى ان دلهم شخص ماهر من اهل البحر يقال له احمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له الاملندي، وعاشره في السكر فعلمه الطريق في

حال سكره، وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الامواج فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند».

أهمية هذا المصدر هى انه يعطى لاول مرة في نص، سواء عربيا او اوربيا، اسم المرشد البحري لفاسكو دي جاما، غير ان قطب الدين النهروالى في رأيى قد غالط في حقيقة ما حدث للاسباب الاتية:

أولا: قصة دعوة فاسكو دي جاما لابن ماجد للشراب هي قصة متأخرة لم يذكرها اي مؤرخ عربي او اوربي قبل النهراوالي، اي انها ترجع على ارجح الاحتمالات الى حوالى خمسين عاما بعد وفاة ابن ماجد.

ثانيا: من الصعب تصديق ان فاسكو دي جاما يعرض نجاح بعثته البحرية بوضع قيادتها في يد مرشد لا يسيطر على جميع قواه العقلية بسبب حالة السكر التى هو فيها وهذا السبب يبدو لنا منطقيا عندما نعلم اجماع المؤرخين المعاصرين على خطورة الملاحة في هذه المنطقة من شاطىء افريقيا الشرقي. والنهراوالي نفسه يؤكد تلك الحقيقة في النص الذي ذكرناه عند وصفه لهذا الشاطىء وفشل محاولات البرتغاليين المتعددة في تخطيه.

قال النهراوالي انه: «مكان كثير الامواج لا تستقر به سفاينهم وتتكسر ولا ينجو منهم احد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان. ولا يخلص من طايفتهم احد الى بحر الهند ص ١٨٥».

واعتقد اننا نستطيع ان نرفض هذه الرواية المتواترة عن سكر ابن ماجد مع فاسكو دي جاما.

ثالثا: كان البرتغاليون يبحثون عن طريق الهند البحري، وبعد محاولات عديدة فاشلة للاقلاع من الشاطىء الشرقي لافريقيا كان واضحا انه يجب الاستعانة بمرشد بحرى على درجة كبيرة من الكفاءة لاخراج الاسطول البرتغالي من الشاطىء الافريقي اولا ثم قيادته الى الهند ثانيا.

وأحمد بن ماجد كان بشهادة معاصريه اكفأ بحرى ارتاد هذه المنطقة من المحيط. وكان من الطبيعي اذن ان يلجأ اليه البرتغاليون للاستفادة من كفاءته خصوصا بعد ان كان فاسكو دي جاما قد شاهد بنفسه مدى سعة علمه بعلم الفلك وألات الرصد والخرائط.

واذا كان ابن ماجد قد قبل ارشاد البرتغاليين الى طريق الهند فهذا امر كان متوقعا خصوصا وان الكثير من السفن البرتغالية في القرن السادس عشر كان يقودها قباطنة عرب. يضاف الى ذلك انه ما كان لابن ماجد ولا لاى من معاصريه ان يتنبأ بالعواقب الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية التى ستنشأ من ارشاد

كانت قيادة السفن البرتغالية

في أيدي القباطنة العرب

وابن ماجد كان أكفأ ملاح في عصره

البرتغاليين الى الطريق البحري للهند. فابن ماجد كان معينا من قبل البرتغاليين لاداء عمل معين وقد أدى هذا العمل على اكمل وجه وبكل امانة ودقة، وبعد وفاة ابن ماجد بخمسين عاما ظهرت عواقب ارشاد البرتغاليين الى الطريق البحري للهند، مما جعل قطب الدين النهراوالي يأخذ على نفسه مهمة بيان عدم مسئولية ابن ماجد وذلك باختراع قصة السكر..

ونعود الان الى المصادر البرتغالية التى ذكرناها لتحليل الاراء التى تحتويها حسب رأى دي كستانيدا فقد وصل فاسكو دي جاما الى مالندى في الخامس عشر من ابريل (نيسان) سنة ١٤٩٨م. وفي الثاني والعشرين من ابريل وضع ملك مالندي تحت تصرفه مرشدا بحريا من جودجيرات اسمه كنكا.

أما دي باروس فيعطينا رواية مختلفة قليلا وان كانت اكثر تنميقا فحسب روايته انه اثناء اقامة فاسكو دي جاما في مالندي زار سفينته، وهي السفينة الرئيسية من الاسطول بعض الاهالي ومن بينهم مسلم من جودجيرات اسمه ماليمو كانا. هذا الشخص هو نفسه المرشد البحري الذي اختاره فاسكو دي جاما بعد ذلك ليقوم مع البرتغاليين بالرحلة الى الهند. هذا المرشد اطلع دي جاما على خريطة لكل الشاطىء الهندي مذكور عليها خطوط الطول وخطوط العرض. واظهر فاسكو دي جاما بدوره للمرشد اسطرلابا كبيرا من الخشب، وآخر من المعدن، ولكن المرشد لم يبد اي دهشة كانت لرؤيتهما وقد كتب دي باروس في هذا الخصوص يقول:

ان المرشدين البحريين في البحر

الاحمر استخدموا آلات من النحاس لها شكل مثلث وارباع لاخذ ارتفاع الشمس وخصوصا النجم (في الغالب الجاه) الذي يستعينون به كثيرا في الملاحة، واضاف: والبحارون بالهند جميعها يبحرون بالاستعانة ببعض النجوم المعينة سواء في النصف الشمالي او النصف الجنوبي من الكرة الارضية، ونجوم اخرى معروفة توجد عادة في وسط السماء من جهة الشرق الى جهة الغرب. وهم لا يأخذون الارتفاع بآلات شبيهة بتلك ولكن بآلات اخرى. وعندئذ يجلب المرشد مباشرة آلة ليريها له. انها مكونة من ثلاثة الواح من الخشب ربما كانت نوعا من البلستى..

وقد رأى فاسكو دي جاما في هذا المرشد حسب تعبيره انه «كنز عظيم».

وقد تمت الرحلة من مالندى الى كاليكوت بدون اي عقبة او صعوبة وفي عشرين يوما.

ان المقارنة بين المصادر التاريخية العربية والبرتغالية تظهر لنا بوضوح المشكلة الاتية: كيف يمكن ان يكون كنكا، او ماليمو كنكا، هو نفسه احمد بن ماجد ؟؟

وللتوفيق بين هذه المصادر برغم اختلافها الظاهر نقول:

كنكا ـ كلمة من اصل تامول، وتعنى عالم بالرياضيات او فلكي او كاتب، أما ماليمو ـ فهى تحريف «معلم» التى تعنى في مصطلحات الملاحة العربية عالم بالملاحة. «ماليمو كنكا» اذن ليس اسما وانما لقب.. والمصادر العربية دون الاوربية تمدنا باسم هذا «المعلم كنكا» فهو شهاب الدين احمد بن ماجد الذي وصفه فاسكو دي جاما بانه «كنز عظيم».

وكما ذكرت في مطلع هذا البحث فانه في سنة ١٩٨٣ ظهرت ضمن مطبوعات مركز دراسات الخرائط القديمة بكويمبرا بالبرتغال ترجمة انجليزية مع تعليق للقصيدة السفالية لابن ماجد، القصيدة من ترجمة وتعليق ابراهيم خورى.. وهذه حسب علمي ربما تكون احدث دراسة ظهرت عن ابن ماجد.

والقضية الاساسية التى يعرضها ويدافع عنها ابراهيم خورى هي ان القصيدة السفالية تعرضت للتزوير والاضافة وذلك لان فيها حسب رأيه مائة وستة ابيات منتحلة لم تكن اصلا في القصيدة ويدعم ابراهيم خورى قضيته بالحجج الاتية:

أولا: تاريخ تأليف القصيدة :—

يرى ابراهيم خورى ان ابن ماجد كان قد اشار الى «القصيدة السفالية» في القصيدة الذهبية التى الفها سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م اي قبل اثنين وعشرين عاما من رحلة فاسكو دي جاما الى افريقيا.

ثانيا: شيخوخة وموت ابن ماجد :

يذكر ابن ماجد في مؤلفاته عموما الكثير من التواريخ وآخر تاريخين كان قد ذكرهما هما سنة

٩٠٠هـ/١٤٩٥م وذلك في كتاب «تقسيم منطقة الماء».

وسنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م في الارجوزة المخمسة، ولكن ابن ماجد يذكر في سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م انه قد شاخ الى درجة انه ينتظر الموت. ويستنتج ابراهيم خورى من ذلك انه اذا كان ابن ماجد قد تقدم في السن لهذه الدرجة فانه قطعا لم يكن على اتصال بالبرتغاليين ولم يعلم شيئا عن رحلتهم الى افريقيا وذلك لان اول رحلة لفاسكو دي جاما استغرقت من سنة ١٤٩٧م الى سنة ١٤٩٩م ويرى ابراهيم خورى ان جميع الابيات في القصيدة السفالية التى تذكر البرتغاليين هي ابيات منتحلة.

ثالثا/ عدد ابيات القصيدة السفالية :

ذكر ابن ماجد فى القصيدة السفالية انها مكونة من سبعمائة وبيت واحد، ولكن المخطوط الوحيد لهذه القصيدة (مخطوط لننجراد) يحتوى على ثمانمائة وسبعة ابيات. اذا هناك مائة وستة ابيات منحولة وذلك في رأى ابراهيم خورى.

رابعا/ عدم وحدة القصيدة السفالية :

يرى ابراهيم خورى ان عدم وحدة هذه القصيدة مرجعه ان بعض الابيات مجموعة معا مما أدى الى تفكك هذه الوحدة، وفى رأيه ان هذه الابيات منحولة كذلك.

هذا ملخص لوجهة النظر التي يعرضها ابراهيم خورى فى تعليقه على ترجمته الانجليزية «للقصيدة السفالية». أما الجزء الذى يتعلق بموضوع بحثنا هنا فهو العلاقة بين ابن ماجد والبرتغاليين والنتيجة التي وصل اليها ابراهيم خوري هي ان «ابن ماجد كان مسنا جداً، وانه قد انسحب داخل بلاد العرب عندما اقلع (البرتغاليون) الى المحيط الهندى. ص٢٥

«ومن رأيى ان الدليل الذى يقدمه ابراهيم خورى على نفى أى علاقة بين ابن ماجد والبرتغاليين أى بين ابن ماجد وفاسكو دي جاما هو دليل ضعيف ويمكن رفضه للاسباب التالية :

اولا/ لو فرضنا ان ابن ماجد في سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٥م ذكر تقدمه فى السن او حتى لو كان قد ظن دنو أجله، كما جاء فى كتابه «تقسيم منطقة الماء». فانه كان مع ذلك ما يزال حيا فى سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م، حيث قال فى القصيدة الخمسية :

ونظمي لهذي الاستوايات فاعلم
على عام تسعمائة وستة مقدم
تعد من الهجرات للمتقدم
بأول النيروز وشهر محرم

والعبارة التي يذكر فيها ابن ماجد تقدمه في السن لا تبرز اطلاقا الوصول الى النتيجة التي وصل اليها ابراهيم خورى عندما كتب عن ابن ماجد : ـ «ان احترافه للملاحة قد انتهى في

٩٠٠ هـ، ومن ذلك الوقت فصاعدا كان غير قادر او غير راغب فى ممارسة أى عمل بحرى» (ص١٩)

ثانيا/ فى سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠١م لم يكن ابن ماجد حيا فقط بل وكان بالتأكيد مالكا لجميع قواه وملكاته العقلية، وكان ما يزال يحترف مهنة الملاحة ومشغولا بها على عكس ما يريدنا ابراهيم خورى أن نعتقد عند قوله ان ابن ماجد «كان غير قادر او غير راغب في ممارسة أى عمل بحري». والدليل على ذلك هو موضوع القصيدة نفسه وهو علم الفلك وتطبيقه فى مجال الملاحة.

ان مقارنة هذه القصيدة بكتابات ابن ماجد السابقة عليها لتدل على ان ابن ماجد ظل متمتعا بنفس الروح العلمية والنشاط العقلي، وبنفس سعة الاطلاع والخبرة بعلم الفلك والملاحة التي تميز كتاباته السابقة وليس هناك أى دليل على تدهور عقلي او حتى فتور نفسي تجاه مهنة الملاحة او علم الفلك..

هكذا وصل ابن ماجد مع فاسكو دى جاما الى كاليكوت في أقل من أربعة اسابيع ودون أى عقبة واضطر فاسكو دى جاما بمجرد وصوله الى الهند ان يواجه مشكلات لم تكن فى حسابه من قبل كان محتاجا فى حلها لكل قدرته كدبلوماسى. فقد اضطر مثلا الى بيع حمولة سفنه بخسارة. كذلك وجد صعوبة كبيرة فى شراء شحنة من التوابل وذلك لمعارضة التجار المسلمين والعرب له هناك.

وادرك فاسكو دى جاما سريعا ان الحل الوحيد لفرض سلطة البرتغال فى المحيط الهندى هو تحطيم منافسة التجار المسلمين والعرب وذلك بالحصول على شروط مناسبة واكثر ملاءمة للتجارة فى جميع مراكز استقرار ونشاط البرتغاليين وركز فاسكو دى جاما كل نشاطه لتحقيق هذه السياسة بل لقد نصح الملك مانويل بتبنيها ومطالبة رجال البحر البرتغاليين باستمرار تنفيذها بعد ذلك.

هكذا احتكر البرتغاليون تجارة التوابل عشرين عاما فقط بعد رحلة فاسكو دى جاما الى الهند.. ومن الواضح اليوم ان اهمية فاسكو دى جاما في التاريخ الدبلوماسي والاقتصادي اكبر بكثير من اهميته فى مجال الكشوف الجغرافية.

***

في هذا الجزء الثاني من البحث سنحاول ان نرى المعالم الرئيسية للتفكير العلمي في كتابات احمد بن ماجد وخصوصا مفهومه للمنهج العلمي وتطبيقه له. وكمثال واضح على الروح العلمية عند ابن ماجد موقفه النقدى واستقلاله الفكرى امام كتابات السابقين له من الفلكيين والملاحين ولو كانوا ذوى شهرة كبيرة. وينقد ابن ماجد آراء محمد بن شدهان وسهيل بن أبان وليث بن كحلان الذين يؤكدون جميعا ان قيمة الترفا (قياس درجة الميل نحو الشمال

والجنوب اثناء الملاحة» للثريا والجوزاء هى ثلاثين زاما (وحدة لقياس الوقت اثناء الملاحة). وابن ماجد يرفض هذا الرأى مؤكدا ان رأيه هو مبني على التجربة الشخصية. وفى ذلك يقول ابن ماجد فى كتاب الفوائد : ـ

«فأما الاولين فقد اخطأوا فى تصنيف الترفا خطأ عظيما باهرا اذ قالوا انها لثلاثين زاما ولنا في ذلك دليل كثير يقبلها الخاص والعام عقليات وتجريبيات، وقد شرحنا بعض منها في شرح الذهبية، ونشرح ما يليق بهذا المكان :

الاول ان المركب اذا جرى فى الحمارين وجرى مركب غيره في العقرب وقطعوا كل واحد منهم ترفا فيكون قطع المركبين ثلاثين زاما وبينهما زامين ومركبين وغيرهما جرى احدهما في القطب والاخر في السلبار فجميعهم جروا ثمانية وعشر زاما فيكون بينهما زامين وهذه الازوام بالسوية فهذا هو الغلط..

والدليل الثاني على غلطتهم ان مركب بينه وبين ازاديو احد وعشرين زاما فيكون اقرب عنه من مليار فى مطلع السماك لانها دائرة سهيل والنعش يحكم على جري البر وتوسطه مطلع الرامح فاذا جرى في المطلع الاصلى يأخذ البر على احد وعشرين زاما، واذا جرى فى السماك وقصد القرب لم يأخذ دنداباش (الاختلاف في ارتفاع النجم القطبي) الا اذا رق عليها بأحد وعشرين وقطع على صدره ترفا بخمسة وعشرين زاما فكيف يكون البر القريب عنك خمس وعشرين زاما والبر البعيد الذى هو بعيد عنك باحد وعشرين زاما (ورقة ٣٩ وجه ظهر).

مثال آخر على روح ابن ماجد العلمية هو استمرار اعادته النظر فيما كان قد كتبه سالفا وذلك لتنقيحه وتصحيحه. ويقرر ابن ماجد بالفعل في «كتاب الفوائد كيف انه اعاد تناول ما كان قد كتبه سابقا لتصحيحه من الناحية العلمية فهو قد الف كتاب «حاوية الاختصار في اصول علم البحار» فى صدر شبابه ثم بعد مضى فترة من الزمن صحح ما جاء فيه في الارجوزة السبعية التي قام بتصحيحها هي نفسها بعد ذلك في «كتاب الفوائد» فيقول ابن ماجد في كتاب الفوائد : ـ

«وكنا اول العمر نحسب كحساب الجهلاء، فبعد كثير التجارب رجعنا لصحة العمر ودققناه وحققناه، فما للجهل عندنا مدخل وكنا قد ذكرنا اول الشباب في الحاوية، فلما تحققنا شخصيا في الحاوية والسبعية ابيات لنستدرك بها ابطالهم وقلة صحتهم، وذكرنا الناسخ والمنسوخ [........] فقد بان لنا خلله عند الشيب. (ورقة رقم ٣٦ وجه وظهر).

هذه الروح النقدية عند ابن ماجد تجد تعبيرا في مواضع متعددة من كتاباته، ففي كل من القصيدة الذهبية وكتاب الفوائد يشير ابن ماجد الى

خطأ الكثيرين من الملاحين في تحديد خطوط الطول والعرض ويبين اسباب هذا الخطأ وكيفية تجنبه حتى يكون الملاح على يقين من موقع سفينته في عرض البحر.

وموضوع آخر من نفس الكتاب ينتقد ابن ماجد معرفة الملاحين عموما بفلك ومطلع النجوم. فعند سؤالك وقولك [لهؤلاء الملاحين] متى يطلع سهيل فيقولون لك في أى بلد وليس هذا بجواب المراد [.......] بل قل لهم متى يطلع سهيل سواء كنت في سيلان او في جيلان المراد بطلوعه من القطب فانه يطلع مع طلوع التير ويستقيم على القطب في مستقبل التير، والتير يطالع الهنعة ويغيب في خط الاستواء في اربعين النيروز، ومن لم يطلع في تصنيفي هذا لم يهتدي ابدا لهذه النكتة. (ورقة ٣١ ظهر).

كانت دراية ابن ماجد بعلم الفلك مزدوجة: نظرية وعملية. في كتاب المنافع نجده يلوم على بعض الفلكيين اقتصار معرفتهم على الجانب النظرى دون مزاولة الرصد والقياس مزاولة فعلية.

حقيقة ان بعض الفلكيين نشر خلال القرون الوسطى الاسلامية جداول للنجوم ولكن دون القيام الفعلي بقياس احداثياتها الفلكية من طول وعرض بانفسهم، بل اكتفوا باضافة بعض الدرجات او الدقائق للاحداثيات التي نشرها بطلميوس في «الماجسطي» كذلك نهج نفس المنهج بعض صانعي الكرات النجومية حتى ان عبد الرحمن الصوفي (٢٩١هـ/٩٠٣م - ٣٧٦هـ/٩٨٦م) أشار الى ذلك في كتابه «صور الكواكب الثابتة».

وعند ابن ماجد كملاح «فإن الجانب العملي لعلم الفلك اهم وانفع من الجانب النظرى البحت. لذلك كان الملاحون في الكثير من الحالات اكثر الماما بعلم الفلك من الفلكيين النظريين. ويشير ابن ماجد الى ذلك في كتاب الفوائد بقوله:

«فهذه السبعة السيارة بما يتعلق بعلم البحر واما الثوابت التي هي للهداية والدلالة فمعالمة البحر أخبر من جميع الناس ولو عرفوا اهل الفلك الطول والعرض والدرج والممر ما عرفوا الشخوص مثل المعالمة [.....] فكثير من النجوم صحت عندنا في الهداية والدلالة ولم ارى في زماننا من يعرفهن من اهل الفلك، فسميتهن وعملت عليهن ولو حضرني خمسون كتابا في علمهن.» (ورقة ٤٦ وجه).

من الناحية الاخرى تشكل التجربة اساسا من اهم اسس المنهج العلمي وتكرار التجربة عددا كافيا من المرات شرط اساسى لضمان سلامة نتيجتها من اجل ان تلقى درجة عالية من القبول. وكتابات ابن ماجد تظهر بوضوح مدى وعيه ليس فقط باهمية التجربة بل ايضا بضرورة تكرارها قبل استنباط النتيجة هذه القاعدة الاساسية للمنهج العلمي واضحة في

«كتاب المنافع» حيث يقول :

«وجئنا هنا بامثال من القياسات الجيدات فلو قاس هذه الانجم المجهولات احد منكم لا يتكلم بها الا بعد تجربة مكررة، وثم مكررة صافية من العلل فربما جرب احدكم قياس وفيه علة وما اطلع عليها فاذا رآه تكرر ينبغى ان ينطبق به. فو الله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات شيئا فيه من التفاوت ربعا وثمنا في الرترفين والثلاث الا وقد حذرتكم منه وقلت في مصنفاتي انه ضيق او نفيس او اعادة او محتكم وقد قدمت هذه القيود في شرح الذهبية». (ورقة ٤٨ مكرر ظهر و٤٩ وجه).

والقياس في اصطلاحات الملاحة عند العرب هو العلم الذى يختص بتحديد خط العرض وذلك بواسطة اخذ ارتفاعات النجوم. والغرض من ذلك هو تحديد موقع السفينة في عرض البحر.

واخذ ارتفاع النجوم كان اذن من أهم عمليات الملاحة وخطوات هذه العملية يمكن تلخيصها كالاتى :

يأخذ البحار ارتفاع نجم ما في وقت معين ومنه يستنبط ارتفاع نجمة القطب وبهذا يمكن تحديد موقع السفينة في عرض البحر الذي يعتمد هنا على معرفة ارتفاع نجمة القطب، لذلك تحتل الجداول الخاصة بارتفاع نجمة القطب فى الاماكن المختلفة مكانا هاما في مؤلفات علم الملاحة.

ولاخذ ارتفاع النجوم استعمل الملاحون العرب في البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي احدى هاتين الالتين :

الكمال والخشبة. اما وحدة قياس ارتفاع النجوم في علم الملاحة فقد كانت الاصبع الذى كان مقسما الى ثمانية ازوام وذلك على خلاف وحدة القياس في علم الفلك التي هى الدرجة....

وفي كتاب الفوائد يعطينا ابن ماجد وصفا تفصيليا لخطوات القياس وهذا الوصف يدل على مدى استيعابه لقواعد المنهج العلمي وشروطه.. إذ يحلل ابن ماجد ليس فقط عملية القياس خطوة خطوة، بل يعرض ايضا بتفصيل العوامل التي قد تؤدي الى الخطأ في القياس والتى يجب الاحتياط منها حتى لا تتعرض السفينة للخطر. فى ذلك يقول ابن ماجد :

اعلم ان للقياس علل فمنها اذا قمت من النوم ينبغى ان تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة وتجعل النجم المقيوس عن النجم الذي يلقي وجهك سبعة اخنان كالجاه والطائر. ويكون الخشب الكبار ضيقات القياس ومداهم بذكره ما استطعت والاربع الصغار نفيسات وقصر بهم يدك ما استطعت والاربع المتوسطات قياسهم عادة وذلك لاتساع ذيل الافق وانكفاف اعلى الافق، فافهم انا ادركنا جميع كسور هذه الصنعة، وينبغى ان يكون بين النجم المقيوس وبين الخشبة خيطا،

وبين الماء والخشبة كذلك خيطا، والزخن من مفسدات القياس وفساد الجلسة والباشي الفاسد اذا رأيت النجم مستقلا وانت على جانب غير مستقل فيزعم انه يستقبل وهو غير ذلك خصوصا اذا كان الفرقدين من جانب الجاه، فان الجاه سريع السير مثل استقلال الزراع، وانه مما يفسد صحة القياس، تغميض احد عينيه والبعض يفتح الجميع والاصح بفتح اليمين وتغميض اليسرى. والقياس باليد اليسرى من فساد القياس، واذا كان البحر فيه شباب من برد او ظل وحاية او جيش فى البحر فترى البحر كالنور لم يعرف الجو من البحر وقد عرفناك بذلك اقول هذا والله اعلم واحكم.

ان تاريخ العلوم عند العرب لفي حاجة اليوم الى مجموعة من الدراسات العلمية المفصلة التي تتناول كل منها جانبا من جوانب كتابات ابن ماجد العلمية خصوصا ما يتعلق منها بعلمي الملاحة والفلك مع بيان كل من الخلفية العلمية لهذه الكتابات والجانب الاصيل في تجربته العملية، وذلك حتى يأخذ ابن ماجد اخيرا المكانة التى يستحقها في التراث العلمي عند العرب.

المراجع

AHMAD, S.Maqbul, IBN MAJID, in **Dictionary of Scientific Biography,** vol. IX, New York, Scribner's Sons, pp.35-37.

—————————, IBN MADJID, **The Encyclopaedia of Islam,** 2nd ed.

ALVARES, Francisco, **The Prester John of the Indies,** 2 vol. Tr. Lord Stanley of ALDERLEY, Cambridge, Cambridge University Press, 1961.

AXELSON, Eric, **South-East Africa 1488-1530,** London-New York, Toronto, Longmans, Green and Co, 1940.

—————————, **Portuguese in South-East Africa 1488-1600,** Johannesburg, C.Struik (PTY), 1973.

BOXER,C.R., **The Portuguese Seaborne Empire 1415-1825,** London, Hutchinson, 1969.

CRONE, G.R., **The Discovery of the East,** London, Hamish Hamilton, 1972.

DA GAMA, Vasco, **A Journal of the First Voyage 1497-1499,** Tr. & ed. E.G. RAVENSTEIN, London, The Hakluyt Society, 1898.

FERRAND, Gabriel, **Instructions nautiques et routiers arabes et portugais des XV^e et XVI^e siocles,** 3 vol., Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1921-1928.

KAMMERER, Albert, La Mer Rouge, l'Abssinie et l'Arabie depuis l'antiquito, in **Memoires de la Socioto Royale de Geographie d'Egypt,** XV, 3 part., 451 p.

KHORY, Ibrahim, Tr. & Exp., **As-Sufaliyya "The Poem of sofala by Ahmad Ibn Magid",** (Junta de Investigacoes Cientificas do Ultramar, Serie Separatas CXLVIII), Coimbra, Centro de Estudos de Cartografia Antiga, 1983.

TAYLOR, E.G.R., **The Haven-Finding Art,** London, Hollis & Carter, 1956.

TIBBETTS, G.R., Arab Navigation in the Red Sea, **The Geographical Journal,** CXXVII, 3, 1961, pp. 322-334.

————————, **Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese,** London, The Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland,1981.

VERLINDEN, C., Vasco da Gama in het licht van zijn Portugese en Arabische voorgangers, in **Mededelingen van de Koninklijke Vlaamse Academie voor Wetenschappen, Letteren en Shone Kunsten van Belgio´,** XIX, 4, 1957, pp. 3-21.

الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي

يستلفت نظر الباحث عند دراسته للاوضاع السياسية فى الخليج العربى ابان الغزو البرتغالى فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه القوى العربية والاسلامية مما كان عاملا رئيسيا ساعد البرتغاليين فى فرض سيطرتهم على المنطقة .

ولم يقتصر التفكك السياسى على القوى المحلية بل تعداه الى القوى الاسلامية الكبرى التى انشغلت اما فى تدعيم قواعد حكمها او فى صراعات قامت فيما بينها مما مكن البرتغاليين من استغلال تلك الظروف لتأكيد سيطرتهم على بحار الشرق وتطبيق سياستهم الاحتكارية التى كان لها اثر كبير فى اضعاف المقومات الاقتصادية وانهاء العصر الذهبى للملاحة والتجارة التى تمتع بها المسلمون فى القرون التى سبقت الزحف البرتغالى الى بحار الهند (١) .

تفكك القوى العربية والاسلامية ساعد البرتغاليين في فرض سيطرتهم على المنطقة

للدكتور
جمال زكريا قاسم
استاذ التاريخ الحديث بكلية الاداب
جامعة عين شمس ـ القاهرة

ولعل ما تجدر الاشارة اليه ان الفترة التى واكبت الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى كانت تعد فترة تحول بالغة الاهمية بالنسبة للقوى الاسلامية التى تصدت للزعامة فى ذلك الحين فقد شهدت تلك الفترة أفول بعض القوى الاسلامية وظهور بعضها الآخر وفي السنوات الأخيرة بين

القرن الخامس عشر او بشكل اكثر تحديدا فى عام ١٤٩٢ سقطت آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس وفى خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر اخذ الاتراك العثمانيون يتحولون بفتوحاتهم على حساب الشعوب المسيحية فى البلقان وأوروبا ويتجهون الى التوسع على حساب الشعوب الاسلامية فى الشرق وفى تلك الفترة ايضا تأسست الدولة الصفوية فى ايران وانهارت دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام وبعض احزاء من الجزيرة العربية كما ظهرت الدولة المغولية فى الهند .

وعلى الرغم من تلك التحولات السريعة التى تعرض لها العالم الاسلامى الا ان النظرة الثانية تكشف لنا عدم تضامن تلك القوى فى مواجهة البرتغاليين وانما على العكس من ذلك انشغلت القوى الاسلامية فى صراعات مذهبية او توسعية فيما بينها وبين بعضها الاخر او فيما بينها وبين القوى الاخرى المجاورة لها مما اضعف من تماسكها ففى الهند كان الصراع محتدما بين القوى الاسلامية والهندوكية وشغل هذا الصراع تلك القوى عن التطلع لمواجهة الاطماع الاجنبية التى كانت تحيق بسواحل الهند الغربية على اثر اكتشاف البرتغاليين لطريق راس الرجاء الصالح ووصولهم الى كاليكوت حتى ان سلطنة كجرات الاسلامية لم تجد سوى الاستنجاد بدولة المماليك فى مصر رغم بعد المسافة فيما بينهما للتغلب على الغزو البرتغالى لسواحلها وفى تلك السواحل تعرض الاسطول المملوكى لهزيمة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩ التى تعد نهاية العصر الذهبى للملاحة العربية والاسلامية فى المحيط الهندى [٢] ومما يسترعى الانتباه حدوث تلك الهزيمة خلال الفترة التى كان فيها الشاه اسماعيل الصفوى (١٤٩٩ ـ ١٥٢٤) يعمل على توطيد دعائم دولته التى اتخذت من تبريز عاصمة لها . ومما لا شك فيه ان تأسيس الدولة الصفوية فى ايران قد استنفد جانبا كبيرا من الجهد الذى اضيف اليه جهد آخر تمثل فى الصراع المذهبى الذى احتدم بين الدولتين الاسلاميتين الكبيرتين ، الدولة الصفوية التى اعتبرت نفسها حامية للمذهب الشيعى والدولة العثمانية التى اعتبرت نفسها حامية للمذهب السنى واستمرت المناوشات قائمة بين هاتين الدولتين حتى تفجر الموقف فى معركة جالديران ١٥١٤ التى انصرف العثمانيون بعدها للقضاء على دولة المماليك فى مصر والشام حتى اجهزوا عليها فى عام ١٥١٧ .

ويمكننا ان نستخلص من ذلك أنه لم تكد تمر سنوات قليلة على بدء وصول البرتغاليين الى سواحل الهند ثم الى سواحل الخليج العربى حتى قامت الحروب بين الدول الاسلامية الثلاث المماليك والصفويين والعثمانيين واسفرت نتائج تلك

الحروب عن تغييرات جذرية بعيدة المدى على الاوضاع السياسية فى المشرق الاسلامى كان لها اثرها على الموقف العسكرى والسياسى للبرتغاليين من ناحية والقوى الاسلامية من ناحية اخرى . ومما لا شك فيه ان تلك الاوضاع التى اشرنا اليها كانت مواتية لتوطيد السيطرة البرتغالية على بحار الشرق ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة ان البرتغاليين لم يواجهوا تحالفا بين القوى الاسلامية الكبرى ولم تكن هناك سوى دولة المماليك التى تصدت لهم عسكريا خلال السنوات الاولى من وصولهم الى الهند وكان اصطدامهم اكثر وضوحا مع القوى المحلية الاسلامية سواء كان ذلك فى سواحل شرق افريقيا اوفى سواحل الهند او فى سواحل الخليج والجزيرة العربية (٣) على ان تلك القوى المحلية كانت قد وصلت هى الاخرى الى درجة كبيرة من الاعياء والتفكك فضلا عن احتدام الخلافات القبلية والمنافسات الاسرية فيما بينها وكانت تلك الظروف جميعها فى صالح البرتغاليين سواء ما كان يتعلق بها من اوضاع القوى الاسلامية الكبرى او القوى المحلية اذ استغل البرتغاليون تلك الاوضاع لصالحهم ففى سواحل شرق افريقيا حالف البرتغاليون شيخ مالينده ضد منافسة حاكم ممبسه وفى منطقة الخليج العربى حالف البرتغاليون ملوك هرمز ضد منافسيهم شيوخ بنى جبر الذين نجحوا فى السيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وبعض المقاطعات العمانية وازداد الامر سوءا حين عمد البرتغاليون الى ارسال سفارات الى ايران للتباحث مع الشاه اسماعيل الصفوى فى شأن مشروعات دفاعية وهجومية ضد الدولة العثمانية التى بدأت تتطلع للسيادة على سواحل الخليج العربى . ولعل مما يسترعى الانتباه ان الخلافات العصبية والمذهبية كانت اشد خطورة بالنسبة للمفاهيم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت بين الاطماع الاجنبية التى بدأت تتربص بالقوى الاسلامية خلال تلك الفترة حيث اضحت تلك الخلافات اقصر الطرق للمخططات الاستعمارية فى المنطقة ، وليست الخطورة فى استغلال القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل ان الخطورة تتفاقم حين تعمد القوى المتنافسة الى الاستعانة بالقوى الاستعمارية لتصفية حساباتها فيما بينها ولعل فى استقراء الاحداث التاريخية ما يفيد القوى العربية والاسلامية المتصارعة فى منطقة الخليج العربى فى وقتنا الحاضر (٤) . بدأ البرتغاليون عملياتهم العسكرية الاولى بالسيطرة على مملكة هرمز باعتبارها تتحكم فى مدخل الخليج العربى وتشكل فى الوقت نفسه اكبر تنظيم سياسى واقتصادى عرفته المنطقة فى السنوات التى سبقت الغزو البرتغالى . وقد انيطت العمليات العسكرية البرتغالية فى منطقة الخليج

العربى الى افونسودى البوكيرك (٥) الذى نشأ فى وقت كان الصراع فيه يدور على اشده بين المسيحيين فى شبه جزيرة ايبيريا فاشربت فى قلبه الرغبة العنيفة فى الانتقام من المسلمين وقد بدأ البوكيرك حياته العسكرية فى المغرب ثم انتقل الى ميدان الصراع الصليبى فى بحار الشرق واليه ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التى وصفت بالحصون التى لا تقهر فى كل من هرمز ومسقط والبحرين وغيرها ولا تزال كثير من تلك الحصون باقية حتى يومنا هذا تشهد على ما كان عليه البرتغاليون من تسلط وغلظة .

وقد يكون من المفيد ان نتوقف عند مملكة هرمز باعتبارها كما سبق ان اشرنا - اقوى التنظيمات السياسية والاقتصادية التى ظهرت فى الخليج العربى حتى مجىء البرتغاليين فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر . وتجدر الاشارة الى ان هناك خلافات بين الباحثين بالنسبة لهوية تلك المملكة فالكتاب الايرانيون يغالون فى اصباغ الهوية القومية على هرمز فيصفونها بانها كانت مملكة فارسية على حين يؤكد الباحثون العرب على الصبغة العربية لهرمز باعتبار ان اللغة العربية كانت هى اللغة السائدة واغلب سكانها من العرب وانتماء ملوكها الى اصول عربية فضلا عن اعتناقهم المذهب السنى وذلك على خلاف المذهب الشيعى الذى كان سائدا فى ايران . اما المصنفون المسلمون القدامى كالاصطخرى والمقدسى والادريسى وغيرهم فقد اكدوا على ان هرمز كانت مملكة عالمية فسكانها من العرب والفرس والهنود والزنوج والبلوش والترك والاوروبيين الى الحد الذى كانت تظهر فيه كمنطقة تجمع عالمية وان احتفظت فى نفس الوقت بطابعها العربى والاسلامي اذ انه على الرغم من انها كانت تجمع الكثير من الاجناس الا ان اللغة العربية كانت هى لغة التعامل كما كان اغلب سكانها من العرب اذ ان طبيعة النشاط البحرى والتجارى الذى كانت تتميز به مملكة هرمز قد ساعد على بروز الكثير من البحارة والتجار العرب خاصة من اليمن وعمان وموانىء الخليج العربى (٦) .

وينبغى ان نميز هنا بين مملكة هرمز القديمة التى كانت قائمة فى البر الاصلى وبين مملكة هرمز الاكثر حداثة التى ظهرت فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى . فمملكة هرمز بمفهومها القديم كانت تشمل اجزاء داخلية من الساحل الايرانى وتتفق معظم المصادر على ظهور تلك المملكة منذ اواخر القرن العاشر الميلادى حيث تعاقب عليها الكثير من الامراء والملوك حتى اذا وصلنا الى الامير بهاء الدين وهو الخامس عشر من سلالة ملوك هرمز نجد ان عهده قد صادف الهجوم الكبير الذى تعرضت له مملكة هرمز فى عام ١٠٣١ اى فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى من قبل فرسان

التتار وكان الهجوم عنيفا لدرجة ان الامير وشعبه هجروا هرمز الواقعة على الساحل الشرقى من الخليج وانتقلوا الى جزيرة قشم ومنها الى جزيرة جرون المواجهة لمدينتهم القديمة والتى اطلقوا عليها هرمز تيمنا بها واصبحت جزيرة هرمز منذ ذلك التاريخ عاصمة لاكبر تنظيم سياسى وتجارى عرفته منطقة الخليج العربى (٧) ولعل مما يثير الانتباه ان تلك الجزيرة الصغيرة الجرداء قد ارتفع مستوى معيشة سكانها بعد فترة وجيزة من انتقال النشاط التجارى اليها ويرجع ذلك الى اتساع الحركة التجارية وكثرة الصادرات والواردات كما ان النشاط التجارى لم يقتصر على بلدان العالم الاسلامى فحسب وانما امتد الى القارة الاوروبية حيث اصبحت هرمز حلقة اتصال تجارى بين الشرق والغرب كما لعب تجارها دورا بارزا فى نقل بضائع الشرق الى اوروبا . ولم تقتصر هرمز على اهميتها التجارية فحسب وانما امتد نفوذها على طول السواحل الغربية للخليج حتى البصرة كما امتدت سيطرتها على سواحل فارس الجنوبية وطبقا لما يذكره الرحالة البرتغالى بدرو تكسيرا فإن هرمز نجحت نجاحا باهرا خلال المائتى عام التالية بعد تأسيسها ١٣٠١/ ١٥٠٠ حتى انها سادت على كثير من مقاطعات الخليج والجزيرة العربية واستمرت قائمة حتى أخضعها البرتغاليون لسيطرتهم منذ عام ١٥٠٧ وظلت خاضعة للبرتغاليين حتى نجح الشاه عباس الكبير بالتعاون مع الانجليز فى إجلاء البرتغاليين عن هرمز فى عام ١٦٢٢ وامر بتدميرها وانتقل النشاط التجارى الى ميناء بندر عباس (٨) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ان مملكة هرمز كانت من بين الممالك الاسلامية الهامة التى زارها الرحالة ابن بطوطه وذلك خلال رحلته الاولى التى قام بها فى الربع الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ١٣٢٥ ـ ١٣٤٩ وقد خلف لنا وصفا ممتعا عن هرمز وسلطانها وتجارتها وحياتها الاجتماعية وقدم لنا صورة شيقة عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء فذكر انها مرسى السند وفارس وخراسان والهند وابدى إعجابه باسواق المدينة المجهزة تجهيزا حسنا كما وصف سلطانها قطب الدين وهو الحاكم الرابع فى هرمز الجديدة بالكرم والاخلاق النبيلة غير انه وجده مشغولا ومتهيئا للحرب ضد اخيه نظام الدين (٩) ولم يكن الرحالة المسلمون وحدهم هم الذين استرعى انتباهم اهمية هرمز وانما جذبت الجزيرة انتباه عدد كبير من الرحالة الاوروبيين من بينهم الرحالة لودفيج فارثمان Wartheman الذى زارها قبل مجىء البرتغاليين بسنوات قليلة فى عام ١٥٠٣ وكان بكتابته عنها خير شاهد على عظمتها ومما ذكره بصدد ذلك انه كان يوجد بمينائها ما يزيد

احيانا على ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلاد العالم راسية على ارصفتها البحرية كما كان يقيم فيها بصفة دائمة اكثر من اربعمائة تاجر وان معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والاحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل [١٠] .

اما الرحالة البرتغالى دورات باربوسا الذى كان مصاحبا لفاسكودى جاما فى رحلته الى الهند فقد وصف الجزيرة بالجمال وذكر ان بيوت اثريائها كانت اشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع اثاث واردة من الهند والصين وان الازدهار التجارى الذى تمتعت به كان يعود فى الدرجة الاولى الى موقعها الاستراتيجى فى المضايق المؤدية الى الخليج وقد اضيف الى ثرائها التجارى الدخل الذى كانت تحصل عليه من المكوس الجمركية التى كانت تفرضها على الموانىء التابعة لها ومن الطبيعي ان هذا الدخل اخذ يتحول لصالح البرتغاليين بعد سيطرتهم عليها وعلى ذلك فانه من الخطأ المبالغة فى ان البرتغاليين حولوا تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح اذ ظلت الطرق البحرية القديمة مستخدمة فى تجارة الشرق وان كانت تحت السيطرة البرتغالية ويدل على ذلك كثرة الرسوم الجمركية التى كان يجبيها البرتغاليون لحسابهم [١١] تقديرنا ان السبب فى الازدهار التجارى الذى تمتعت به هرمز يرجع الى ان دائرة النشاط التجارى قد اتسعت مع بداية العصور الحديثة فلم تعد مقتصرة على نقل التجارة بين الهند وسواحل شرق افريقيا الى قلب العالم الاسلامي بل اصبحت مملكة هرمز تمثل الحلقة الهامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وخاصة حين دخلت المدن الايطالية ذلك الميدان واصبحت هرمز مثلا يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الاوروبى وتردد اسمها فى اشعار جون ميلتون واعتبرت خاتمة العالم من يمتلكها يمتلك العالم باسره [١٢] على انه رغم العظمة التى بلغتها الا انها لم تستطع ان تحمى نفسها والمناطق التابعة لها من الغزو البرتغالى ولذلك سقطت فى ايدى الغزاة البرتغاليين فى عام ١٥٠٧ [١٣] ويمكن تفسير خضوعها السريع للبرتغاليين بأن اهلها كانوا يشتغلون بالتجارة والملاحة ولم تكن لهم دراية بفنون القتال يضاف الى ذلك التفكك الذى كانت تعانى منه المملكة بسبب تفاقم الصراع بين افراد الاسرة المالكة كما ان الدولة الصفوية كانت منشغلة فى توطيد دعائم حكمها ، وحتى بعد ان ثبتت دعائم الحكم اتجهت الى التوسع فى الشمال ولم تلعب دورا يذكر فى صد الغزو البرتغالى وظلت بعيدة عن الاشتباكات العسكرية مع البرتغاليين بل انها اتجهت فى بعض الاحيان الى اقامة علاقات تحالف معهم ولم تتحول الدولة الصفوية الى قوة مناهضة

الحرب المذهبية بين الدول الإسلامية

في القرن السادس عشر

مكنت الاستعمار الأجنبي من التسلل للمشرق

للبرتغاليين الا منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادى (١٤) وكان الامتداد الكبير الذى بلغته مملكة هرمز يشكل فى نفس الوقت عاملا من عوامل انهيارها ولذلك كان من الطبيعى ان يؤدى تفسخ تلك المملكة الى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية التى اتجهت الى منازعتها السيادة ومن بين تلك القوى شيوخ بنى جبر الذين بدأ نجمهم يصعد فى اواسط نجد منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (٨٧٢ هـ - ١٤٦٧ م) وتمكنوا من انتزاع البحرين والاحساء والقطيف وبعض الاقاليم العمانية من مملكة هرمز مستغلين فى ذلك الصراع الاسرى الذى كان قائما بين سيف الدين واخيه فخر الدين تورانشاه بل ان ذلك الصراع اعطى بنى جبر فرصة للتدخل فى المملكة ذاتها واصبح شيخهم يلقب بسلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس اهل نجد (١٥) .

نستخلص من ذلك انه عند مجىء البرتغاليين الى الخليج العربى كانت هناك قوتان متنافستان مملكة هرمز من ناحية وشيوخ الجبور من ناحية اخرى (١٦) وكان من الطبيعى ان يتجه البرتغاليون الى تعميق هذا التنافس تحقيقا لمصالحهم ويمكننا ان نضيف الى هذا التنافس بين هاتين القوتين تفكك الاوضاع السياسة فى كثير من المقاطعات العمانية ففى الوقت الذى خضعت فيه مسقط وخورفكان وقلهات وصور وسورات وغيرها من مقاطعات الساحل لملكة هرمز (١٧) كانت المقاطعات الداخلية فى ايدى الملوك النبهانيين الذين كانوا يتعرضون دوما لثورات الإباضيين المتحمسين لبعث الامامة الإباضية (١٨) .

وفى عام ١٤٨٣ عقدت الامامة لعمر بن خطاب الخروصى ولكن لم يلبث ان

اطاح به النبهانيون بعد سنة واحدة قضاها فى الحكم ولعل ذلك مما جعله يستعين ببنى جبر فى الاحساء الذين نجحوا فى اعادة تنصيبه اماما على عمان فى عام ١٤٨٧ وكان من الطبيعى ان تصبح عمان الداخل فى دائرة نفوذ بنى جبر وظهر ذلك واضحا حين تجدد القتال بين الاباضيين والنبهانيين على عهد الامام محمد بن اسماعيل الذى خلف الامام الخروصى بعد ان نجح بفضل استعانته بشيوخ الجبور فى قتل الملك النبهانى واخذ البيعة بالامامة ١٥٠٠ ـ ١٥٣٥ (١٩) .

ولعل مما يؤكد تفوق نفوذ بنى جبر فى عمان ان البرتغاليين حينما دخلوا الخليج اول مرة فى عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى إن افونسودى البوكيرك ذكر ان عمان الداخل كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذى وصفه بملك الجبور وذكر ان معظم جزيرة العرب تدين له بالولاء وعلى الرغم من ان ذلك الوصف يحمل الكثير من المبالغة الا انه يحمل ايضا كثيرا من الحقائق فالامر الذى لا شك فيه ان الجبور كانوا قد تمكنوا حول بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية فى الجزيرة العربية بالاضافة الى الاحساء والقطيف والبحرين وعمان الداخلية والساحلية ويؤكد ذلك ما اشار اليه المؤرخ البرتغالى باروس Barrotz من ان الجبور كانوا يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وانهم كانوا يشكلون خطرا عليها (٢٠) ويفهم من ذلك ان الصراع بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الوضع السائد فى الخليج حين وصل البرتغاليون الى سواحله وعلى الرغم من ان الجبور كانوا هم القوة الصاعدة الا ان هرمز كانت هى القوة الرسمية المتصدية لزعامة الخليج وكان عليها ان تتكفل بحمايته من الغزو البرتغالى المفاجىء رغم التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه (٢١) ولعل مما يلفت النظر ان الدولة الصفوية الناشئة فى ايران حول ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة هرمز فى هذه المهمة وتلك الملاحظة لها اهميتها الخاصة لانها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية او للدول التى سبقتها فى فارس وذلك خلافا لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين المعاصرين الذين تمادوا فى تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد الى حد ادعائهم ان نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبار تبعية هرمز للسيادة الفارسية (٢٢) .

بدأ البوكيرك عملياته العسكرية الاولى فى الخليج بمحاولة الاستيلاء على مسقط وكان ذلك على عهد الامام محمد بن اسماعيل فى عام ١٥٠٧ وقد حاول حاكم مسقط تفادى الخراب والدمار الذى الحقه البرتغاليون بقريات بعقد الصلح معهم ولكن ملك هرمز رفض قبول ذلك الصلح وبادر

بارسال قوة عسكرية الى مسقط التى كانت تابعة له بيد ان البرتغاليين نجحوا فى تحقيق الانتصار واصدر البوكيرك امره بحرق المدينة واغتصابها انتقاما لنقد الصلح الذى عقد معها ولم تنته العمليات العسكرية الا بعد تعهد شيوخ المدينة بتسليم جزية من الذهب قدرت بعشرة آلاف زرافين (٢٣) .

وحين انتهت العمليات العسكرية فى مسقط انتقل البوكيرك الى هرمز التى كان يحكمها سيف الدين وهو فتى لم يتجاوز عمره اثنى عشر عاما وكان يرأس مجلس البلاد خوجة عطار وهو شيخ محنك ، وقد رأى البوكيرك ان السيطرة على هرمز ستؤدى الى احكام سيطرته على الخليج العربى لأهميتها الاستراتيجية (٢٤) وقد استطاع ان يحقق نصرا عسكريا واصبحت هرمز منذ عام ١٥٠٧ تابعة للبرتغاليين حيث وافق ملك هرمز على دفع جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف زرافين وبمقتضى المعاهدة التى عقدت مع ملك هرمز اعفيت البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية فى الوقت الذى عمد فيه البرتغاليون الى تطبيق سياستهم الاحتكارية حيث اصدروا اوامر بمنع اية سفينة من ممارسة الملاحة فى الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية وبذلك العمل كتب البرتغاليون السطر الاول فى سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج العربى (٢٥) .

وعلى عكس ما كان متوقعا من ان تتجه القوى المحلية للتضامن فيما بينها لمواجهة البرتغاليين نجد ان تلك القوى اخذت تعانى قدرا كبيرا من التفكك اذ انصرف ملوك هرمز الى سحق نفوذ الجبور فى البحرين حيث قامت هرمز فى عام ١٥١١ بارسال حملة عسكرية الى البحرين نجحت فى السيطرة عليها وانتزاعها من شيوخ بنى جبر الذين عاودوا السيطرة عليها ومن ثم فعلى اثر هيمنة البرتغاليين على هرمز كان من الطبيعى ان يساندوا ملوكها للتخلص من نفوذ بنى جبر .

ومما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من ان الشاه اسماعيل الصفوى قد احتج على العدوان البرتغالى على هرمز الا انه لم يقم بدور ايجابى ضد البرتغاليين اذ كان منشغلا فى صراعه العسكرى ضد العثمانيين وكانت هزيمته فى جالديران ١٥١٤ سببا فى مهادنته للبرتغاليين على امل الاستعانة بهم ضد العثمانيين ويذكر لوريمر بصدد ذلك انه فى عام ١٥١٥ وصل الى هرمز سفير الشاه اسماعيل الصفوى يحمل عدة مطالب اجيب إلى بعضها واقترح ضمن اقتراحات كثيرة ان تقدم البرتغال بعض سفنها لايران كى تمكنها من غزو البحرين والقطيف وان يساعد البرتغاليون الشاه فى قمع تمرد قام ضده فى مكران وان يتنازل الشاه للبرتغاليين عن جوادور الواقعة على ساحل بلوخستان وان يقوم تحالف ضد تركيا بين ايران والبرتغال (٢٦) .

السلطان مقرن هو أول حاكم في شرق العالم الإسلامي يلقى حتفه في معركة ضد المستعمرين

ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان البرتغاليين قد استغلوا الصراع الصفوى العثمانى لكى ينفذوا الى صداقة الصفويين ولا شك ان نجاح البرتغاليين فى تثبيت نفوذهم فى هرمز قد أكد للصفويين ان البرتغاليين قد اصبحوا يشكلون قوة بحرية فى الخليج لا قبل لهم بالتصدى لها ومن ثم اخذوا يعملون على كسب صداقتهم لمساندتهم ضد العثمانيين .

لم يقتصر التسلط العسكري البرتغالى على هرمز والمقاطعات الساحلية من عمان وانما عمد البرتغاليون للسيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وغيرها من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لمملكة هرمز وباسم ملك هرمز خاض البرتغاليون صراعا عنيفا ضد بنى جبر الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق . وفى عام ١٥٢٠ تعرضت البحرين لهجوم برتغالى - هرمزى مشترك اثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل من بنى جبر حيث كان قد سافر الى مكة لتأدية فريضة الحج ورغم البسالة التى تميز بها السلطان مقرن بن زامل الا انه لم يلبث بعد عودته ان وقع اسيرا فى ايدى البرتغاليين الذين بادروا باعدامه وكان بذلك اول حاكم فى شرق العالم الاسلامى يلقى حتفه فى معركة ضد المستعمرين البرتغاليين .

وقد روى تلك الاحداث المؤرخ المصرى ابن إياس [٢٧] كما وردت ايضا فى المصادر البرتغالية المعاصرة على انه مما يستلفت الانتباه اختلاف تلك الروايات فيما بينها فبينما تؤكد المصادر البرتغالية ان السلطان مقرن بن زامل مات متأثرا بجراحه تشير رواية ابن اياس انه وقع حيا فى ايدى البرتغاليين وانه عرض عليهم اموالا كثيرة ليطلقوا سراحه الا انهم رفضوا

ذلك وقتلوه ومع ذلك فان صحت رواية ابن اياس فمن المحتمل ان يكون قد دارت بينه وبين البرتغاليين مفاوضات ابدى فيها استعداده بان يدفع لملك هرمز ما فى ذمته من ديون الا ان اشتداد المعارك لم يؤد الى تنفيذ ذلك العرض وانما انتهى الامر بنجاح البرتغاليين فى السيطرة على البحرين باسم ملوك هرمز وان لم يتمكنوا من التقدم الى الاحساء والقطيف بسبب عنف مقاومة الجبور (٢٨) .

ومما يسترعى الانتباه انه لم يكن مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين للبرتغاليين حدثا عابرا وانما احدث صدى كبيرا ورنة حزن واسى فى انحاء الخليج بل ان ابن اياس رغم اتهامه للسلطان مقرن بالتخاذل امام البرتغاليين الا انه لم يتردد فى التعبير عن حزنه والتعليق على استشهاده بانه كان من اشد الحوادث فى الاسلام واعظمها حيث اورد فى حوادث عام ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) ما نصه « واشيع قتل الامير مقرن امير عرب بنى جبر متملك جزيرة البحرين الى بلاد هرمز الاعلى وكان اميرا جليل القدر معظما مبجلا فى سعة من المال وكان مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق وكان قد اتى الى مكة وحج فى العام الماضى . فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه فانكسر الامير مقرن وقبضوا عليه باليد واسروه فسألهم ان يشترى نفسه فيهم بالف الف دينار فأبوا الفرنج ذلك وقتلوه بين ايديهم ولم يغن عنه ماله شيئا وملكوا جزيرة بين النهرين وملكوا قلعتها التى هناك واستولوا على اموال الامير مقرن وبلاده وكان ذلك من اشد الحوادث فى الاسلام واعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى والامر لله تعالى (٢٩) .

لم يستمر التحالف قائما بين البرتغاليين ومملكة هرمز اذ سرعان ما تبين لتورانشاه ملك هرمز سطوة البرتغاليين واستعلائهم وانهم لم يهدفوا بتحالفهم مع هرمز الا التمهيد لفرض سيطرتهم العسكرية والاقتصادية ومن ثم اخذ تورانشاه يترقب فرصة تسنح له وللولاة التابعين له سواء من كان منهم فى عمان او البحرين او الاحساء والقطيف او غيرها من مقاطعات الخليج للتحرر من السيطرة البرتغالية وحين وصلت الانباء بان البرتغاليين يواجهون صعابا فى الهند واصبحوا مضطرين لسحب جزء من قواتهم العسكرية فى الخليج لمواجهة مشاكلهم هناك بادر تورانشاه باصدار اوامره لاعلان الثورة ضد البرتغاليين (٣٠ نوفمبر ١٥٢١) ومن الامور التى تثير الاهتمام ان يتوصل عرب الخليج الى خطة محكمة لتوقيت الصراع ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة حيث تعرضت الحاميات البرتغالية فى هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار وغيرها الى هجمات ليلية مفاجئة من

البر والبحر وقتل خلال تلك الاحداث عدد كبير من البرتغاليين (٣٠) ومع ذلك فان تلك الحركة فشلت فى تحقيق اهدافها بسبب استمرار الخلافات بين شيوخ الجبور وملوك هرمز . ومما تجدر الاشارة اليه بصدد ذلك ان كثيرا من الكتاب الايرانيين يركزون على الموقف المتخاذل الذى وقفه فرع الجبور فى عمان مما كان سببا فى فشل الثورة وفى تقديرنا ان الموقف السلبى الذى اتخذه بنو جبر فى عمان يرجع اساسا الى ان طبيعتهم القبلية طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذى سبق له ان تعاون مع البرتغاليين مما كان سببا فى قتل زعيمهم الكبير مقرن بن زامل ولعل ما يؤكد لنا ذلك تمكنهم من قتل الملك تورانشاه الذى كان قد التجأ الى جزيرة قشم هربا من البرتغاليين بعد فشل ثورته حيث ارسل الشيخ حسين بن سعيد زعيم بنى جبر فى عمان بعض اتباعه ليثأروا منه وبذلك نجح بنو جبر فى تصفية حسابهم مع عدوهم اللدود تورانشاه وان كان ذلك على حساب القضية العامة (٣١) .

وكان من الطبيعي ان يؤدى فشل الحركة الى قيام البرتغاليين بوضع نهاية للحكم الوطنى فى هرمز وذلك بمقتضى معاهدة ميتاب التى ابرمت مع محمود شاه الذى خلف تورانشاه فى الحكم وقد اكدت تلك المعاهدة السيطرة البرتغالية على هرمز وتوابعها واستمر خضوع هرمز للبرتغاليين حتى عام ١٦٢٢ حين سقطت فى قبضة الانجليز والفرس وخلال تلك الفترة من السيطرة البرتغالية التى امتدت لما يقرب من مائة عام ١٥٢٢ - ١٦٢٢ جرت محاولات من قبل القوى المحلية للتخلص من السيطرة البرتغالية ففى عام ١٥٢٦ قام العمانيون بمهاجمة الحامية البرتغالية فى كل من مسقط وقلهات وفى عام ١٥٢٩ اعاد البرتغاليون فرض سيطرتهم على البحرين (٣٢) كما حاولت الدولة العثمانية بين عامى ١٥٥٠ و١٥٨٠ التصدى للنفوذ البرتغالى فى الخليج (٣٣) وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع فى الخليج العربى انفسح المجال امام قوة عربية ناشئة هى قوة اليعاربة فى عمان لكى تنهض بالتعاون مع القبائل العربية فى الخليج لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالى وهو الدور الكبير الذى قدر لعرب الخليج ان يحرزوا قصب السبق فيه مستفيدين فى ذلك من الظروف الداخلية والخارجية التى كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية مما جعلهم يقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا كبيرا من عوامل انهيارها فى بحار الشرق (٣٤) وما كاد النفوذ البرتغالى ينهار فى الخليج العربى منذ السنوات الاولى من القرن الثامن عشر حتى انفسح المجال للقوى العربية لتعيد تنظيم نفسها فى شكل تنظيمات سياسية جديدة

الهوامش

١ ـ عن الازدهار العربي الملاحي والتجاري في المحيط الهندي انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣ ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابو ريدة وكذلك فضلو حوراني : الملاحة العربية في المحيط الهندي ـ القاهرة ١٩٥٨ .

ويحدد جون كيلي العصر الذهبي للملاحة والتجارة في الخليج العربي على الفترة الممتدة من نشوء الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي (٧٥٠ م) حتى وصول البرتغاليين الى مياه الخليج العربي في عام ١٥٠٧
CF. john Kelly : Britain and The Persian Gulf 1795 — 1880 PP — 6 — 8 London 1968 .

٢ ـ Durate Barbosa : A Description Of The Coasts Of East Africa and Malabar in The begining Of The Sixteen Century Trans . by .H. Stanley PP. 75 - 76 Hakluyt society London 1866 .

وانظر ايضا ما ذكره ابن اياس عن معركة ديو في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ج ٤ ص ١٨٢ القاهرة ١٩٦٠ .

٣ ـ عبدالعزيز الشناوي : المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية ـ من اعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية المجلد الثاني ص ص ٦٣٥ ـ ٦٣٩ الدوحة ١٩٧٦ .

٤ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاول ص ص ٤٨٥/٤٨٦ ـ القاهرة ١٩٨٥ .

٥ ـ Arnold Wilson : The Persian Gulf An Historical Sketch From The Earliest Times To The begining Of The 20 th Century P. 185. London 1954

٦ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاول ١٥٠٧/١٨٤٠ ص ص ٥٣ ـ ٥٤ القاهرة ١٩٨٥ .

٧ ـ راجع بصدد ذلك دراسة جان أوبان عن امراء هرمز من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن الخامس عشر التي تعتبر من اوفى الدراسات التي كتبت عن مملكة هرمز .

CF. Jean Aubin : Les Prince d'Ormuz du XIII" au XVC Siecles P. 7 et 120 FF. Journal Asiatique CDXLI 1973

٨ ـ . Chales Low, History Of The Endian Navy Vol I P. 43 London 1877

٩ ـ ابو عبدالله محمد بن بطوطه : تحفة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الامصار ح ١ القاهرة ١٩٣٣ .

١٠ ـ عبدالسلام عبدالعزيز فهمي :
مملكة هرمز : المجد في نشاتها وازدهارها والعبرة في سقوطها واستسلامها ـ مجلة العربي الكويت العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤ .

١١ ـ CF. The Travels Of Pedro Teixiera With His Kings Of Hormuz Translated by William F. Sinclair Hakluyt Society London 1902 See Ralation Of The Chronicle Of The Kings Of Ormuz PP. 265 — 266 —

١٢ ـ لم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة في عالم الادب حين اشاد بها الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر الانجليزي جون ملتون Melton في ديوان الفردوس المفقود The Lost Paradise حيث اورد بيتا من الشعر جاء فيه :

If all The World Were Mere a ring
Ormuz The Diamond should bring

انظر : دونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة ص ٢٦ (مترجم) نشر مؤسسة ستايس الدولة .

١٣ـ عن خضوع هرمز للسيطرة البرتغالية انظر :
The book Of Durate Barbosa by mansil Dames VoL I PP 101 — 103 CF An Account Of The Countries bordering on The Indian Ocean and their inhabitants Written by Durate Barbosa and Completed about The year 1518

١٤ ـ مصطفى عقيل : التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣ ص ٢٠ بيروت ١٩٨١ .

١٥ ـ علي عبدالرحمن ابا حسين : من تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق انظر ابحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي ص ٢٤٦ ابوظبي نوفمبر ١٩٧٩ .

١٦ ـ علي عبدالرحمن ابا حسين : دراسة سبق ذكرها ص ٢٤٦ .

١٧ ـ عائشة السيار : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ص ص ٢٢/٢٣ بيروت ١٩٧٥ .

١٨ ـ جون كيلي : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ترجمة محمد امين عبدالله الجزء الاول ص ١٧ ـ وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ١٩٧٩ .

١٩ ـ حميد بن محمد بن رزيق : الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسى عبدالله ص ص ٢٧٥/٢٦٠ وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٧٧ راجع ايضا ابو سليمان محمد بن عامر المعولي : قصص واخبار جرت في عمان (مخطوط) ورقة رقم ٤٣ وكذلك محمد بن عبدالله السالمي : عمان تاريخ يتكلم ص ص ١٥٢/١٥٣ دمشق ١٩٦٣ .

٢٠ ـ عبداللطيف ناصر الحميدان : التاريخ السياسى لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية العدد (١٦) من مجلة كلية الاداب جامعة البصرة ١٩٨٠ .

٢١ ـ F. Adamyiat : Bahrain Islands — A legal & Diplomatic Study Of British Iranian Controversy P. 14 New york 1955 .

٢٢ ـ صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ص ١٠/١١ القاهرة ٧٤ .

٢٣ ـ الزرافين عملة برتغالية وكان يعادل ثلاثمائة ريال CF. Werdell Philips Oman A History PP. 37 — 39 London 1967 .

٢٤ ـ عبدالامير محمد امين : المصالح البريطانية ١٧٤٧/١٧٧٨ (مترجم ص ٩ منشورات مركز دراسات الخليج العربي ـ بغداد ١٩٧٧ .

٢٥ ـ ارنولد ويلسن : تاريخ الخليج ترجمة محمد امين عبدالله ص ص ٦٩/٧٠ وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٨١ .

٢٦ ـ ج . ج لوريمر : دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ الجزء الاول ص ٨ ـ الدوحة ١٩٦٧ انظر ايضا صالح أوزبران البرتغاليون والاتراك العثمانيون في الخليج العربي ـ ترجمة الدكتور عبدالجبار ناجي ـ ص ص ١٩/٢٠ منشورات مركز دراسات الخليج جامعة البصرة ١٩٧٩ .

٢٧ ـ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ ص ٢٧١ .

٢٨ ـ الحميدان : دراسة سبق ذكرها مجلة كلية الاداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠ .

٢٩ ـ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ـ المجلد الخامس ص ٤٣١ القاهرة ١٩٦٠ .

٣٠ ـ ارنولد ويلسون : الخليج العربي ص ص ٧٩/٨٠ انظر ايضا عباس اقبال : مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس ص ص ٦٣/٦٥ ـ القاهرة ١٩٥٦ .

٣١ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الاول ١٥٠٧/١٨٤٠ ص ٧٩/٨٠ .

٣٢ ـ Wendell Philips, Oman A History P. 39 .

٣٣ ـ عائشة السيار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٨ ولمزيد من التفصيل عن العمليات العثمانية فى الخليج العربى ضد البرتغاليين راجع صالح أوزبران : البرتغاليون والاتراك العثمانيون فى الخليج العربى ، من منشورات مركز دراسات الخليج العربى . جامعة البصرة ١٩٧٩ .

٣٤ ـ CF. Boyer, New Light on the Relation ship Of Oman and Portuguese, Proceedings of Omani Studies — Muscat November 1980 .

الصّراع الدّولي حَول الخليج

قراءة في الوثائق الهولندية المكتشفة حديثاً

بقلم : احمد جلال التدمري

واجه الخليج العربي منذ القدم هجمات أجنبية وأطماعا دولية للسيطرة عليه واقتناص ثرواته، ولاتخاذه معبرا للتجارة بين الشرق والغرب. وبعد أن كان الخليج أشبه بالبحيرة العربية تقطن سواحله شرقيها وغربيها القبائل العربية المعروفة بأصالتها وبعراقتها، انتشرت على شواطئه الشرقية وبعض جزره المراكز الأجنبية من برتغالية وانجليزية وهولندية وفارسية. حتى كانت حملات التحرير العربية التي أجلت البرتغاليين وواجهت الفرس والانجليز والهولنديين.

إن البحث عن الوثائق والمعلومات التاريخية المسندة يبقى هاجسا دائما يراود كل باحث ودارس في هذا الميدان، لربط الأحداث والكشف عن الحقائق والتوثيق من الروايات التي جلها ذات مصادر أجنبية.

وخلال البحث والتنقيب عن الوثائق التاريخية ذات الصلة بخليجنا العربي، وبتعاون من الجهات الأرشيفية الرسمية عثرت على عدد من الوثائق الهولندية التي كانت مجهولة. ونظرا لأهميتها التاريخية وجدت من واجبي كباحث أن أضمنها هذه الدراسة.

ودراستي هذه بمثابة المطالعة للوثائق التاريخية عن مرحلة حساسة من تاريخنا تشمل فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ومن ثم الربط بينها في نسيج يوضح حقيقة الوقائع ومسيرة الأحداث لتعكس في النهاية صورة عن الماضي القريب والبعيد الذي لا زالت مؤثراته وذيوله ممتدة الى واقعنا الحاضر وربما الى المستقبل المعاش قريبه وبعيده.

القوة البحرية في الخليج العربي

شغل القواسم منذ مطلع القرن السابع عشر زعامة البحر وقيادة السفن الحربية إبان عهد الدولة اليعربية. إضافة إلى أن سفنهم التجارية كانت تجوب الخليج وشواطىء شرق إفريقيا وموانىء الهند، والبحر الأحمر.

وفي أواخر عهد اليعاربة برز القواسم ومن خلفهم قبائل الساحل كأبطال نضال ضد المستعمرين وكزعماء في الساحل الشرقي والغربي وجزر[١] الخليج العربي ومن خلال زعامتهم القبلية التي انفردوا بها في الساحل الشرقي للخليج منطقة بندر لنجة وجزيرة قشم وما جاورها وساحل الشميلية على الشاطىء الشرقي للامارات المطل على خليج عمان والتي ازدهرت فيها مدن دبا وكلبا وخورفكان... وكذلك الشاطىء الغربي للامارات مثل مدن رأس الخيمة والشارقة، كان للقواسم دور مشهود في مقارعة الغزاة ودحر المحتلين.

أطلق أسم الهولى على القبائل العربية التي تقطن الساحل الشرقي للخليج العربي ومعظمها من قبائل آل سميط والعتوب والدواسر والمرازيق وآل بوعلي والمطاريش في بوشهر والزعاب في بندر ريق، إضافة الى القواسم الذين تركز وجودهم في جزيرة قشم وبندر لنجة ولاراك وما جاورها. إلى جانب وجودهم في مدن الساحل الغربى للخليج.

لقد كان التماسك العربي في حوض الخليج العربي شرقيه وغربيه قويا في مقارعة الاحتلال البرتغالي وفي التماسك بين القبائل العربية على كلتا الضفتين وفي المناطق الداخلية لعمان مما أضاف لدولة اليعارية قوة مكنتها من إنجاز الكثير من المهام التحريرية. ففي عام ١٦٢٠ تمكن العرب بالتعاون مع الفرس من طرد البرتغاليين من

موقع احتلوه على الساحل الغربي للخليج قرب جلفار - رأس الخيمة[٢] الا أن الفرس هادنوا بعد ذلك البرتغاليين وعقدوا معهم في عام ١٦٢٥ إتفاقية صلح اعترف فيها البرتغاليون بانتقال هرمز وقشم الى الشاه عباس مقابل حصولهم على نصف العوائد الجمركية فى كنج بالقرب من لنجة. وهكذا ساءت العلاقات العربية الفارسية بسبب مهادنة الفرس للبرتغاليين وخاصة أن البرتغاليين كانوا لا يزالون يحتفظون بقوات لهم في برج حصين قرب جلفار، مما جعل هذا التحالف ينقلب الى احتلال فارسى لحصن الصير واحتلال برتغالي لحصن آخر بالقرب من جلفار، إضافة الى وجود سفن حربية برتغالية فى ميناء جلفار. وهكذا كان لزاما على القوات العربية فى عهد الامام ناصر بن مرشد أن تتوجه لتحرير هذه المواقع من المحتلين[٣] حيث وقعت معارك عنيفة فى مواجهة القوات الفارسية والبرتغالية. ورغم التمركز القوي والمحصن للقوات الفارسية والبرتغالية فقد تمكنت القوات اليعربية بقيادة/ علي بن احمد من تحرير حصن الصير بعد معارك رهيبة سارع خلالها البرتغاليون بإمداد الفرس بالأسلحة والسفن إضافة الى إطلاقهم نيران مدافعهم على القوات العربية المحاصرة للحصن. تدعيما من البرتغاليين للفرس، وكادوا بهذا الدعم أن يحولوا بين العرب وبين تحرير الحصن، إلا أن شجاعة القوات العربية وتصميم قائدها على النصر أو الموت أدى الى تمكنه من الاستيلاء على الحصن وطرد المحتلين منه[٤].

وبإحراز القوات العربية اليعربية لذلك النصر في تلك المعركة تمكنت من حصر النفوذ البرتغالي داخل القلعة التي تقوقعوا فيها حيث أجبروا فيما بعد وإثر معارك ضدهم على الاستسلام للقوات العربية وطلب الأمان.

إن روح العرب العمانيين العالية وتصميمهم على النصرواسترداد الحقوق والذود عن حياض الأرض والمياه العربية جعلتهم يتبوأون مكانة عالية في المنطقة وبلغت القوة البحرية العربية بالذات في عهد الامام سيف بن سلطان اليعربي أقصى قوة لها فأخذ بمقاتلة القوى المعادية... البرتغاليين في المحيط الهندي والفرس في مياه الخليج العربي[٥]. فقد تحركت قوة بحرية عربية قوامها الف وخمسمائة مقاتل لمهاجمة منطقة كنج الخاضعة للفرس القريبة من بندر لنجة العربي على الشاطىء الشرقي للخليج العربي وقضت هذه القوة على قوات الفرس واستولت على الكثير من الثروات وكبدتهم خسائر فادحة، مما أدى بالفرس الى طلب العون من الوكالات الانجليزية لوقف أو إعاقة القوات العربية من التقدم نحو فارس ومن ثم لمهاجمة مسقط. وكان الهولنديون أيضا على استعداد لتقديم

البحارة العرب في أسطول نادر شاه

يرفضون محاربة إخوانهم على الشاطئ العربي

المساعدة للفرس مقابل أن تقدم السلطات الفارسية لهم تسهيلات تجارية، إلا أن الفرس تراجعوا عن فكرة مهاجمة مسقط(٦) لتقديرهم بأن الهجوم لن تكون نتائجه فى صالحهم.

واستمرت بعد ذلك محاولات تكوين جبهة فارسية برتغالية ضد التفوق البحري العربي في أواخر القرن السابع عشر. ففي عام ١٦٩٦ وصلت الانباء الى الامام سيف بأن هناك اتفاقا بين الفرس والبرتغاليين لمهاجمة مسقط. ولهذا بادر الامام بشن هجوم مفاجىء على أكبر المراكز البرتغالية في منطقة مانجالور فقضى بذلك على محاولتهم في مهدها ومنع الحليفين من بلوغ أهدافهما(٧).

وإثر هذه المعركة يئس الفرس من الدعم البرتغالي فتوجهوا الى القوى البحرية الجديدة في الخليج وهي الانجليزية والهولندية يطلبون مساعدتها ضد اليعاربة. الا أن الانجليز وقفوا على الحياد فى الصراع العربي الفارسي نظرا لعدم تعرض قوات الامام سيف للتجارة والسفن الانجليزية.

وفي عام ١٧٠٧ قام الاسطول العربي بأسر عدد من السفن والقوارب الفارسية، وفي عام ١٧٢٠ استولى الاسطول على عدة جزر من أهمها جزيرة قشم، وقد أغضب ذلك الفرس فأرسلوا جيشا يقوده/ علي خان/ الى بندر عباس لاستعادة هذه الجزر، لكن غزو الافغانيين لبلاد فارس أرغم هذه القوة على التراجع نحو كرمان دون أن تحقق شيئا من مهمتها(٨).

لم تكن للفرس قوة بحرية خالصة منهم، لذلك حاولوا لتحقيق اهدافهم الاستعانة بالبرتغاليين والانجليز والهولنديين والفرنسيين، ليحاربوا بدلا منهم(٩). وباعتبار أن سكان الخليج العربي على شاطئيه الشرقي والغربي معظمهم من العرب وان القبائل الفارسية موطنها البلاد الداخلية والجبال. لذلك لجأ نادر شاه ملك الفرس الى العرب عندما قرر إعداد اسطول حربي ليواجه به البرتغاليين. فجند منهم بحارة ونواخذة لذلك الاسطول. لكنه لم يستطع استغلالهم وتوجيههم لمحاربة

اشقائهم العرب في مسقط والساحل العماني. فإن شعورهم القومي وإنتماءهم العربي جعلهم يرفضون محاربة أبناء جلدتهم رغم السيطرة الفارسية عليهم وعلى بلدانهم ورغم عملهم تحت راية ذلك الاسطول. لذلك شهدت حملات الاسطول الفارسي ضد العرب عصيانا من البحارة العرب وتمردا عنيفا كثيرا ما أدى الى إيقاع ضربات بذلك الاسطول وبالبحرية الفارسية مما جعلها تخفق كثيرا في هجماتها على السواحل والموانىء والجزر العربية.

وذكرت وثيقة هولندية اكتشفت حديثا تناولت معلومات دونها المعتمد الهولندي في بندر عباس في ٨/١٠/١٧٣٨ انه :- وردت أنباء من جيش الشاه في الجانب الغربي العربي للخليج حول الانتصارات على الفرس، مثل طرد العرب للفرس من مسقط ووضعهم تحت الحصار في جلفار برا وبحرا مع بحريتهم. لهذا السبب فإن حركة التنقل للفرس قد أغلقت، كما أن سفن الشاه قد حوصرت. وبمعركة بحرية أحرق بعضها على الشاطىء. ومن السفن الفارسية التى انحرفت الى الشاطىء السفينة الكبيرة/فالتي شاه/بينما هوجمت ايضا سفينة بريطانية ضخمة كانت قد أجرت إلى الفرس. وكانت حتى ذلك الوقت لا زالت في ميناء جلفار وقد أسر قائدها واثنان من بحارتها (١٠).

وكان من نتائج حملات نادر شاه على عمان لاحتلال مسقط تمرد البحارة العرب في الاسطول الفارسي، وقيامهم بقتل القائد الفارسي/علي خان/في مسقط، واستولوا على عدد من قطع الاسطول الفارسي وهاجموا مدينة باسيدو في جزيرة قشم ثم توجهوا نحو خورفكان طلبا لحماية الحاكم القاسمي.

وكانت ردة الفعل قاسية على نادر شاه فطلب النجدة من الهولنديين والانجليز الذين أمدوه بسفينتين حربيتين هولنديتين وحوالي عشرين سفينة من نوع الغراب، وتوجهت هذه القوة مع سفن اخرى اعدها تقى خان القائد الفارسى نحو رأس الخيمة وخورفكان لمقاتلة القواسم. وفي ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٤٠ التقت قوات تقى خان بالاسطول القاسمي فكانت الغلبة للقواسم مما اضطر الحملة الفارسية الهولندية الى الانسحاب لجزيرة قشم فلحقها الاسطول القاسمي وأجبرها على الهرب الى ميناء كينج الفارسي. وعاد بعدها الاسطول القاسمي الى قواعده سالما (١١).

ولكن ذلك لم يترك لنادر شاه أن ييأس، فأخذ يتابع تحرك السفن العربية وعين قائدا بحريا جديدا هو السردار/فردي خان الذي تحرك الى جزيرة قيس عندما علم بأن البحارة العرب المتمردين على الاسطول الفارسي السابق ينزلون فيها.

واصطحب معه سفينتين هولنديتين كان قد احتجزهما في بندر عباس. وبوصول القائد الفارسي الى جزيرة قيس ومعه قواته واسطوله التحم في قتال شديد مع البحارة العرب أصيب خلاله السردار بجرح قاتل مات على إثره وتراجع اسطوله خاسرا إلى بندر عباس.

وقد ادت الخسائر المتواصلة لاسطول نادر شاه والفشل الذي مني به الى تخلي نادر شاه عن إنشاء قوة بحرية فارسية في منطقة الخليج العربي. ولم يكن ذلك مفاجأة للقوة الاجنبية في الخليج فقد تنبأ بذلك الفشل وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية في بندر عباس حين قال : ـ [إننا نعتقد بأن مشروع نادر شاه في تأسيس الاسطول الفارسي غير ناجح. وان نجاح الاسطول الفارسي سيتوقف على تعاون العرب مع الفرس، أما الفرس فإنهم بطبيعتهم يكرهون ركوب السفن.] (١٢) ويقول السير بيرسي المهتم بالشئون الفارسية مؤكدا جهل الفرس بشئون البحر وعلل هذه الظاهرة تعليلا جغرافيا. إذ لاحظ أن السواحل الشرقية للخليج العربي مفصولة عن الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة (١٣) يقطن خلفها الفرس، في حين كان معظم القاطنين على الساحل الشرقي للخليج من العرب.

ورغم محاولات نادر شاه وغيره من ملوك الفرس القضاء على الوجود العربي على الشاطىء الشرقي للخليج باحلال القبائل الفارسية مكانهم فإن هذه السياسة لم تنجح تماما فقد بقي للعرب وجود.

لم يوهن التحالف العدواني الانجليزي الهولندي الفارسي من عزيمة العرب، بل زادهم تصميما على التضحية والفداء. ويقول جان جاك بيربي في وصف أعمالهم الفدائية : ـ (واخذوا يقومون بأعمالهم تلك وهم مرتاحو الضمير، لانهم إنما يفعلونها لتحرير بلادهم.) ويقول مالكولم : ـ (ولو كنت أسيرا لديهم وقدمت لهم كل ما تملك مقابل حياتك، لرفضوا ذلك بإباء وشمم.. وقالوا : ـ إننا لا نسرق الأحياء. (١٤)

شكل تحرير مدينة جلفار في عام ١٦٣١ من الاحتلال الفارسي والبرتغالي نصرا مؤزرا للدولة اليعربية. وقد كان ذلك الجيش العربي مسندا بالقواسم الذين شاركوا في تلك المعركة، وقد برز في ذلك الزعيم القاسمي ـ كايد بن عدوان ـ الذي شارك في القتال (١٥) ثم برز القائد القاسمي رحمة بن مطر خلال الأحداث الداخلية وخاصة في وقائع معركة المصنعة أو معركة بركا في عام ١٧٢٣. وكان قد وطد ملكه في رأس الخيمة في موقع المعيريض أحد احياء مدينة رأس الخيمة اليوم. ثم توسع في إمارته حتى شملت خورفكان (١٦)

ويذكر أيضا أن قوة يعربية اتجهت في عام ١٧١٦ الى جزيرة قشم وفي

طريقها توحدت مع قوات قاسمية أرسلها الشيخ رحمة بن مطر من بلدة الصير ـ رأس الخيمة ـ بهدف السيطرة على الجزيرة وتحريرها من الاحتلال الفارسى، حيث أن سكان الجزيرة من القبائل العربية من بني معين وغيرهم... وقد تمكنت القوات اليعربية القاسمية من النزول فى الجزيرة والسيطرة عليها، وأسس القواسم فيها محطة تجارية[١٧] ثم حاولت هذه القوات العربية السيطرة على هرمز، إلا أنها لم تنجح، فتركتها واتجهت لتجهيز نفسها والاستعداد لمهاجمة البحرين.

وبقيادة سلطان بن سيف الثاني توجهت قوات الدولة اليعربية والقواسم في صيف عام ١٧١٧ نحو البحرين لتخليصها من الاحتلال الفارسى. وبعد قتال طويل وعنيف بين الطرفين تكبدا فيه خسائر فادحة في الأرواح والمعدات هرب القائد الفارسي من البحرين إلى فارس. فدخلها الأمام سلطان بن سيف بقواته ومعه مراكب الغواصين البحرينيين، وأعاد هناك بناء قلعة عراد الشهيرة[١٨]

ويذكر أنه فى عام ١٧٢٤ تولى الشيخ رحمة بن مطر زعامة القواسم بعد وفاة أبيه وسجل مطر بطولة مشهودة في حملة بحرية غادرت في عام ١٧٢٦ رأس الخيمة لاستعادة جزيرة قشم فنزلت القوات القاسمية في ميناء باسيدو مما أثار مخاوف شركة الهند الشرقية البريطانية التي أرسلت وحدات بحرية مكونة من السفينة (بريطانيا(BRITANNIA)) والسفينة (بنغال (BANGAL)) وسفن اخرى أخف منها للحراسة. وبعد معارك شديدة انسحب القواسم الى الصير فى رأس الخيمة، وارسل الانجليز وفدا الى الشيخ مطر ليفاوضه بدفع تعويضات عن الخسائر البريطانية بسبب تلك العملية. وعلى ما يذكر بأن تلك الحادثة هي أول صدام مسلح مباشر بين الانجليز والقواسم[١٩]

وكما هو معهود من الحمية العربية عند دولة اليعاربة والقبائل العربية فى الخليج العربي والتي شهد لها التاريخ بطولاتها عندما طاردت قوات اليعاربة البرتغاليين من سواحل افريقيا الشرقية، فأجلتهم عن زنجبار وممباسة في سنة ١٦٦٢ فعاشت تلك البلاد في استقرار وازدهار إلى أن امتد التسلط البريطاني في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر الى شرق أفريقيا. مما دعا زعماء تلك البلاد الى الاستنجاد بسليل زعماء البحار في الخليج وبحر العرب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي فكتبوا[٢٠] يستنجدونه على المستعمرين الانجليز الذين حلوا ببلائهم على العباد والبلاد فى تلك البقاع. ومما جاء في رسالتهم الى الشيخ سلطان :ـ «الموصوف بأقل صفاته. المعروف برشح صفاته سلطان بن صقر القاسمي حرسه الله في حياته من فضيحة وفقر، وفي آخرته عن السعير

وصقر.. ومراد الورقة السلام عليكم وايصال أخبارنا إليكم وتذكير طاعتنا وشوقنا لديكم، أقول لك يا أمير المؤمنين متع الله بحياتكم المسلمين وأيد الله بك الدين ونصر بجندك المجاهدين فإن ملوك أهل الاسلام ضيعوا الشريعة، ولينوا أركانها المنيعة، ونادوا سلاطين الكفار، واستمدوا على أهل الأمصار حتى أنزلوا القرين في عدن سمية الجنة وأقدم مسكن. أحلهم الله دار البوار وانتقم منهم بعذاب النار وذلك من الرعب المقذوف في قلوبهم، وهذا من جملة عيوبهم والواجب عليكم تقويمهم، لاقامة الحنيفية وإظهارها ولذب رافضيها عنها وإشهارها ونحن أهل بادية وأصحاب ماشية. لكننا أولو قوة وأولو بأس شديد وأصحاب جرد ومرد وعد عديد لكننا ناؤون عن الساحل لا نصله إلا بشق الأنفس والرواحل. لكن بحمد الله قد طلع من الساحل نجم ثاقب وأسد رابض راقب، لزم وألزم التوحيد ونفى الشرك والتنديد وهو السلطان الصالح الناصح الحاج العاقل فارح. سلمه الله وحياه وحرسه وهداه وبياه، فصار واسطة بين الطرفين ومأوى لكلا الفريقين. وقد بحث هو وسلاطين المسلمين بالاستخبار وساس قوانينهم باعتبار. فتحصل له من مناقبك ما أسر خواطره، وحرك مشاعره ولميثاقه مع محمد بن سالم بن علي، عليه رحمة ربه العلي عن المنكر وذكرهم بهول القيامة والمحشر وأطع الله وأطع الرسول. اذ كل راع عن رعيته مسئول، وجاهد الكفار والمنافقين وأقم الحدود على الكافرين والزناة والسارقين فلا يجوز لك أن تهادن الكفار فوق أربعة أشهر، ووجب علينا إتباع الأمير الموحد المجاهد الامر الناهي القائم المساعد ونحن معدودون من رعيتك ومستريحون بمعيتك فساعدنا بيدك ولسانك، لقوله صلى الله عليه وسلم (المؤمنون يد واحدة على من سواهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا). ونحن، محتاجون إلى مدد وحتى كلامك يكفينا إذا أمرت السواعي المسافرة إلينا، أن يقوموا معنا ويجاهدوا في سبيل الله، بحيث إذا جاءوا عندنا ما يخالف أحد من الصومال لأنهم يهابون إذا سمعوا أن السلطان ابن صقر قائم للجهاد فيهابون ويقولون كلهم نحن من رعيته هذه السواعي المسافرة تكفينا بحول الله وقوته وما ترى أن شاء الله إلا وهم داخلون تحت طاعته في سنة واحدة. ولا يضر هذا البعد الذي بيننا لأن السواعي مقربة تحمل الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

واضافت الرسالة : ـ

فاجتهد في ضم ملك الصومال الى ملكك فان المملكة سعادة لمن أدى حقها شقاوة لمن طغى وآثر الحياة الدنيا. فيجب عليك أن تعاوننا باليد واللسان ويجب علينا السمع والطاعة.. فيجب عليك أن تمدنا برجال وأموال.

وتساعدنا بسواعي وأقوال، لأنك اذا أمرت السواعي المسافرة، والرجال المسافرة بالتناقيق والسفن ويحاربون معنا، الكلاب والكفار والعفن.

فنسأل لك بوجه الله الذى لا يجوز رد السائلين به أن تساعدنا وتمدنا بالاعانة الواجبة عليك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما معناه (ان الله فى عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) ويجب علينا السمع والطاعة، وعلى الله نصر المؤمنين فالله.... الله لا تتساهل في كلامنا هذا فانه مجلب الظفر ومعلم النصر ومكسب الاجر وتوكلوا على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

«ان الله بالغ امره، انا لننصر رسلنا والذين آمنوا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، أن الله قوى عزيز وكان حقا علينا نصر المؤمنين، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون والغالبون وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين، وما يعلم جنود ربك الا هو».

وقد نزلت من البادية البعدى، الى قرى الساحل القربى، عند الحاج الأفخر، والسلطان الأعز فارح حرسى. وأنا منتظر منك سعده الى الفتوح والأمر كله لله واليه يرجع الأمر كله. وجيوش البادية علينا، ولو تبغي ثلاثين ألف خيال لكن ما لنا قوة في البحر غير الحاج فارح. لكن أصحابه وبنو أعمامه لا يقومون للحق ويحسدون عليه، واذا جاءت سواعي منكم وذكروا أنك قائم معنا يهتابون ولا يتكلمون بكلمة، ولا يقدرون أن يخالفوننا، فان لم تقدر ترسل لنا سعده مستعدة، فالله الله، قل للمسافرين الجائين من أراضيهم، أرسلنا السلطان صقر لنجاهد الكفار الذين فى أرض الصومال مع الحاج علي والحاج فارح، فان ذلك ينفعنا نفعا جما، وان لك فيه أجرا لما. فأعينونا بقوة حتى نجاهد الصومال وندخلهم في الاسلام والايمان باذن الله الرحمن، ونملك فيهم بعون الله الملك المعبود لما سمعنا فيك من الخصال الحميدة والمناقب العديدة والفضائل السعيدة، والفواضل المفيدة فأحببنا أن نكون لك عساكر مجاهدين وفوارس مساعدين.»

وذكرت المصادر التاريخية أن الشيخ سلطان بادر الى مديد العون والمساعدة ولم يتأخر عن تلبية نداء إخوانه في الدين في الصومال فأرسل لهم ما يمكن إرساله من الرجال والسفن (٢١)

التجارة واجهة للغزو :

اعتمدت هولندا وانجلترا في دخولهما إلى البحار الشرقية ومنطقة الخليج العربي على أسلوب تشكيل شركات تجارية خاصة أو مشتركة مع السلطات الحكومية فى موطنها. حتى يكون تعاملها مع تلك البقاع مقبولا ومرحبا به من الأهالي ومن زعماء تلك البلاد. في حين فشلت الاساطيل الحربية الغازية التي قصدت احتلال

بلدان أو جزر بالقوة ومن ثم تسيير مصالحها التجارية كما فعل البرتغاليون.

لهذا استطاع الانجليز والهولنديون التسلل إلى منطقة الخليج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي افريقيا. رغم أنهم وفروا لسفنهم التجارية ولمقار وكالاتهم الحماية العسكرية. مما حولهم فيما بعد إلى مستعمرين ومحتلين لبعض تلك المناطق.

وكمثال على ما تقدم سبق لتاجر انجليزي يدعى/ ريتشارد شان Richard Chan أن أسس في عام ١٥٥٥ شركة تحت اسم (شركة روسيا)[٢٢] إثر رحلته البرية الى روسيا في عام ١٥٥٣ ومن ثم رحلة لبعثة شركته الى بلاد فارس برئاسة انتوني جانكسون. للحصول على الحرير الفارسي وكان ذلك في عام ١٥٦١.

وكذلك رحلة التاجر الانجليزي/ نيوبري New Beria في عام ١٥٨٠ عبر بلاد الشام والتي اعقبتها رحلة أخرى رافقه فيها عدد من التجار الانجليز مثل / رالف فينش ووليام ديداز وجيمس سنوري. وقد أثمرت هذه الرحلات قيام معاملات تجارية مفيدة.

وفي حين كان التجار الهولنديون يقومون بدور تجار التجزئة بشرائهم البضائع الشرقية من لشبونة وبيعها في الدول الأوروبية الاخرى[٢٣]، كان البرتغاليون يحتكرون التجارة مع الشرق ويسيطرون على تلك البلاد وعلى الطرق الموصلة إليها.

وفي ١٦٠٠/١٠/٣ أسس مجموعة من التجار الانجليز شركة خاصة للاتجار مع الشرق مباشرة لاستيراد التوابل والحرير والعقاقير والعطور واللؤلؤ والمجوهرات مقابل تصدير البضائع الانجليزية من المنسوجات القطنية والنحاس والقصدير. واختاروا أسما لها هو (محافظ وشركة تجار لندن الذين يتاجرون مع الهند الشرقية) تحول فيما بعد الى / شركة الهند الشرقية[٢٤]. واتخذت هذه الشركة شكلا رسميا إثر إصدار الملكة اليزابيث الأولى مرسوما يمنحها الحق المطلق في احتكار التعامل التجاري مع الشرق.

وبذلك اقتحمت هذه الشركة أبواب الهند ومن ثم بلاد فارس ومنطقة الخليج العربي حيث اكتسبت مكانة وقوة بما لقيته من دعم عسكري ورسمي بريطاني جعلها تتحكم في المنطقة وأدت الى دخول الاستعمار البريطاني إلى معظم مناطق شرق السويس. مستعينة بالتحركات السياسية والصلات الدبلوماسية ومن ذلك ما عرضه مبعوث الملك جيمس على الشاه عباس في عام ١٦١٧ لانشاء مؤسسات تجارية إنجليزية في فارس مقابل تعهد بريطانيا بالوقوف عسكريا الى جانب فارس إذا تعرضت لغزو اجنبي[٢٥].

وإثر بدء انحسار التسلط البرتغالي عن منطقة الخليج العربي أخذ الهولنديون والانجليز في التقدم للحلول مكان البرتغال في المنطقة. مخالفين بذلك الامر البابوي [٢٦] الذي منح ممتلكات الشرق للبرتغاليين وممتلكات الغرب للاسبان. وهما الدولتان الأكبر سطوة واتساعا في اكتشافاتهما البحرية وتجارتهما الخارجية.

وبينما كان التجار في البلاد الواطئة يتعاملون مع التجار البرتغاليين في لشبونة كتجار تجزئة فيقومون بتصريف بضائعهم فى البلاد الواطئة والبلاد الاوروبية الاخرى، وكنتيجة لما واجهوه من مضايقات في تجارتهم مع البرتغاليين إضافة الى ضعف التسلط البرتغالي اتجهوا للتعامل مباشرة مع بلاد الشرق.

ففى عام ١٥٩٢ عقد كبار التجار الهولنديين اجتماعا فى امستردام قرروا فيه انشاء شركة للتجارة مع الهند ونظرا للسرية المطلقة التى فرضها البرتغاليون على الطريق الى الهند. انتدبت الهيئة التجارية الهولندية عنها المستر/ كورنيليوس دى هوتمان الى لشبونه لجمع المعلومات حول التجارة البرتغالية مع الهند. كما استطاعت الشركة الهولندية الحصول على المعلومات المطلوبة من الأسقف الهولندى/ هيوبن ڤان لينشوتنHubhen Van Linschoten [٢٧] وقد عاد فى عام ١٥٩٢ من رحلة الى الهند كأمين سر لكبير اساقفة جوا البرتغالى الذى كان يعرف نقاط القوة والضعف فى تعامل البرتغالين مع بلاد الشرق ونشر بعد عودته اسرار الطريق الى الهند، وقد ضمت هذه المعلومات نتائج ابحاثه ودراساته مع ملحق خاص أوضح فيه المعلومات البحرية عن حركة السفن التجارية والرياح والتيارات والموانىء والجزر فى الطريق الى الهند.

وفى عام ١٥٩٤ اجتمع تسعة من تجار شمال هولندا فى أمستردام لمتابعة الموضوع وقرروا تأسيس شركة اطلقوا عليها اسم (شركة الاراضى البعيدةCompany of Far Land) [٢٨] وأرسلوا فى عام ١٥٩٨ اسطولا تجاريا الى جزر الهند الشرقية عبر طريق الرجاء الصالح لاحتكار تجارة التوابل فى الشرق يحمل تفويضا رسميا من الحكومة الهولندية بالعمل الحربى والسياسى والتجاري.

حقق الاسطول نجاحا عظيما فقد استطاع فتح ارخبيل جزر الهند للتجارة مع هولندا بعد ان عبر رأس الرجاء الصالح وعقد اتفاقية تجارية بين هولندا وملك بانتام كما حقق ارباحا مالية بلغت اكثر من ٨٠ ألف فلورين. وذلك بالرغم من فقدانه عددا كبيرا من بحارته وغرق إحدى سفنه.

يعزو المؤرخون نجاح هذا الاسطول الى خبرة ودراية قائده/ كورنيليس هوتمانCornelis Houtman الذى سبق له زيارة الشرق عدة مرات وجمع معلومات

مهمة عن الطرق البحرية للشرق.
وتوالت رحلات الاساطيل التجارية والهولندية الى الشرق حتى انه قدر عدد السفن التجارية الهولندية التى زارت الشرق وجنوب شرق آسيا فى عام ١٦٠١ بخمس وستين سفينة، سيطر الهولنديون خلالها على عدد من المستعمرات البرتغالية فى أرخبيل اندونيسيا وانشأوا عددا من المستعمرات فى تلك الارجاء.

وأمام هذا النجاح والتوسع الهولندى تنادى التجار الهولنديون الى اجتماع فى ٢٠/٣/١٦٠٢ بتوجيه من الرئيس الهولندى/ جوهان ڤان أولدن بورنوفلت Johan Van Olden Bornovelt وقرر التجار توحيد مؤسساتهم تحت اسم شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ٦,٥ مليون فلورين، وتم دعم الشركة بمرسوم اصدره مجلس طبقات الامة يمنح بموجبه الشركة حق احتكار التجارة فى الشرق وخولها سلطات واسعة فى عقد المعاهدات والمحالفات والاتفاقيات لفتح ما تشاء من الاراضى وتأسيس القواعد وغير ذلك لمدة واحد وعشرين عاما. (٢٩).

واستطاع الهولنديون كسب ود الدولة العثمانية من خلال اعترافهم بتبعية اليمن للدولة العثمانية، وقامت السفينة الهولندية/ تاسو/ بقيادة بيتر ڤاندون بروكة بزيارة لموانىء اليمن ووصل الى مسقط. وحصل على كتاب من باشا صنعاء يأمر فيه رعاياه باستقبال الهولنديين فى كل مكان.

نجح الهولنديون بعقد معاهدة فى عام ١٦٠٤ مع امبراطور ملبار الهندى تنص على طرد البرتغاليين من الهند.

وفى عام ١٦١٨ أصدر السلطان العثمانى فرمانا يخول الهولنديين حق مزاولة التجارة بالبحر الأحمر، لكن الهولنديين استولوا على مجموعة من السفن البرتغالية التجارية مما أثار سخط تجار عمان وجنوب الجزيرة وأدى الى قيام السلطات العثمانية بطرد المعتمديات التجارية فى جنوب الجزيرة وعدم تجديد امتيازاتها (٣٠).

ونجح الهولنديون ايضا فى الاتفاق مع شاه فارس - الشاه عباس - على حصولهم على حصة من الحرير الفارسى. والذى لم يستطع الا الموافقة باعتبارهم ساهموا مع الانجليز فى عام ١٦٢٥ بالحرب ضد البرتغاليين وفى إجبارهم على التخلى عن هرمز. فكان ذلك الاتفاق بداية لتوطيد اقدام الهولنديين فى منطقة الخليج العربى. وبوفاة الشاه عباس فى عام ١٦٢٩ خسر الانجليز صديقا وفيا لهم. فى حين وطد الهولنديون اقدامهم فى فارس واستطاعوا ان ينتزعوا من الانجليز حصة الاسد بتجارة الحرير. ولم يبزغ عام ١٦٤٠ حتى كان للهولندين مركز الصدارة فى الخليج العربى ويهيمنون على التجارة مع بلاد فارس. بينما كان البرتغاليون مازالوا يحاولون دون جدوى استرجاع منزلتهم التى فقدوها فى الخليج (٣١).

الحملات ضد العرب:

لقد كان اندفاع القوى الاجنبية للسيطرة على الخليج العربي ذا محورين الأول فارسيا والثاني اوروبيا مع تدخل هذين المحورين ضمن دائرة واحدة يعمل الفرس على اشغالها كلية عن طريق التحالف مع أية قوة اوروبية تزحف نحو الخليج العربي للسيطرة عليه وضرب القوى العربية فيه ومن ثم الانفراد بالهيمنة على المنطقة (٣٢).

ففي مطلع القرن السادس عشر اندفع البرتغاليون نحو البحار العربية للتحكم بها والاستيلاء على منافذ التجارة العربية بين الشرق والغرب. فكان احتلال جزيرتي هرمز وقشم ومن ثم فرض البرتغاليون سيطرتهم على موانىء الخليج العربي في كل من ساحليه. وقابل ذلك التحرك تحرك فارسي مماثل تزعمته الاسرة الصفوية التي تسلمت السلطة في بلاد فارس عام ١٥٠٠ فالتقت تطلعاتها مع الغزو البرتغالي وتوجت ذلك بمعاهدة تحالف عسكري للعمل المشترك في عام ١٥١٥. نصت على ان تكون السفن الحربية البرتغالية في متناول ايدي الفرس لشن هجوم على البحرين وعلى القطيف (٣٣) واستمرت تلك العلاقة حتى ظهور الهولنديين والانجليز في مطلع القرن السابع عشر كقوى جديدة في المنطقة الامر الذي أدى الى متغيرات في التوجه السياسي الفارسي حيث عمل الشاه عباس الأول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) على استثمار الوضع الجديد للضغط على البرتغاليين كي ينسحبوا من البحرين ليكون بديلهم في احتلالها.

ومما رجح كفة الهولنديين على الانجليز طوال القرن السابع عشر تقريبا.. ان الانجليز رفضوا الاشتراك بأي عمليات عسكرية مع الفرس ضد الدولة العثمانية او ضد البرتغاليين نظرا لمصالحهم الاخرى في مناطق غير منطقة الخليج. وهذا ما سبب لهم مشاكل في فارس استغلها الهولنديون لصالحهم (٣٤) الا ان الهولنديين عانوا بعد ذلك بعض المضايقات وخاصة بعد الاحتلال الافغاني لايران في عام ١٧٢٢ حيث وجه الافغان انذارا للهولنديين في عام ١٧٢٧ باغلاق وكالتهم في بندر عباس خلال مدة لا تتجاوز اسبوعا (٣٥).

وفي خضم ذلك الوفاق بين الفرس وكل من الانجليز والهولنديين على حساب عرب الخليج اقتناصا لحقوقهم الوطنية والاقليمية. واستلابا لارزاقهم ومعيشتهم وتجارتهم. كونت دولة اليعاربة اسطولا بحريا قويا ـ كما اشرنا سابقا ـ للذود عن حياض الوطن وتحرير المواقع والبلدان التي تعرضت للاحتلال البرتغالي والفارسي. ولمقاومة الغزو البحري الاجنبي المعادي للموانىء والاسواق التجارية.

من هنا كانت المحاولات الفارسية والهولندية والانجليزية لقهر الاسطول العربي اليعربي. الا ان هذه

المحاولات فى كثير من الاحيان لم تنجح وكان مصيرها الفشل فى حين أخذ الاسطول يزداد قوة وسطوة، خاصة بعد ملاحقته البرتغاليين وانتزاع ممباسا منهم فى ١٦٩٨/١٢/١٤ حيث كانت هذه المعركة بمثابة النهاية للتفوق البرتغالى. فازدادت ثقة العرب بأنفسهم وبحقوقهم بعد الانتصارات المتلاحقة التى احرزوها فى شرق افريقيا والهند. حتى ان رئيس شركة الهند الشرقية الانجليزية وصفهم: (بأنهم اصبحوا شديدى الغطرسة، ولا يوجد من يمنعهم من القيام بشن هجمات على كل السفن التجارية باستثناء سفن شركة الهند الشرقية ذاتها لاقتناعهم بتفوق اسطول الشركة على اسطولهم) [٣٦].

لكن اقتناع رئيس شركة الهند الشرقية بتخوف الاسطول العربى من الاسطول الانجليزى لم يذهب بعيداً. حيث ان السفن الانجليزية لم تنج من هجمات السفن العربية فقد هاجمت سفينتان عربيتان فى تلك الفترة احدى السفن الانجليزية الخاصة وكانت محملة بالمنتجات الهندية فى طريقها الى بندر عباس. وهى اول حادثة معروفة يتعرض فيها البحارة العرب للسفن الانجليزية.

وكان الفرس فى محاولات دائمة السيطرة على موانىء الخليج العربى بشاطئيه الشرقى والغربى مستغلين توافق المصالح مع الحملات الاوروبية على منطقة الخليج، مستعينين تارة بالبرتغاليين وتارة بالانجليز وأخرى بالهولنديين ورابعة بالفرنسيين. وكانت تلك القوى تتصرف وفق ما تمليه عليها مصالحها وعلاقاتها سواء المحلية او الخارجية.

ومن ذلك ان حاولت السلطات الفارسية فى صيف عام ١٦٩٩ الحصول على مساعدات فرنسية ضد العرب العمانيين بعد ان رفض كل من الانجليز والهولنديين تقديم المساعدة، وفشل البرتغاليون ايضا فى تقديم مساعدات فعالة للقوات البحرية الفارسية. فبعث محمد مؤمن معتمد الدولة الفارسية مذكرة للملك لويس الرابع عشر للدخول بحلف عسكرى مع فرنسا لاحتلال مسقط، وقد نصت المذكرة على: ان مشروع الاحتلال يحتاج الى ثلاثين الف جندى وعدد من السفن لنقلهم الى الساحل العمانى، واشترط ان تكون نفقات الحملة مناصفة بين الدولتين وكذلك الغنائم التى يحصل عليها الطرفان المتحالفان. وتناولت المذكرة ايضا التفصيلات الى حد انها أوضحت ما سوف يسلم للفرنسيين من حصون حول مسقط، وما يختص به الفرس، فللفرنسيين حصنا جلالى ومارانى بينما يحتل الفرس بقية الحصون الداخلية [٣٧]. ولكن هذا الحلف لم ينفذ، فجدد الشاه بعد ذلك عروضه للفرنسيين فأرسل فى عام ١٧٠٣ خطابا الى الملك لويس الرابع عشر لانشاء علاقات دبلوماسية بين

الدولتين على مستوى السفراء لتنسيق العلاقات الاقتصادية وغيرها بين البلدين. وأدت الاتصالات الى عقد اتفاقية عامة فى عام ١٧٠٨ اتبعها الشاه فى عام ١٧١٥ بمبعوثه/ محمد رضا بك سفيرا له لدى فرنسا والذى طلب لدى مقابلته الملك الفرنسى لويس الرابع عشر ان تبادر فرنسا بارسال اسطول الى مياه الخليج ليقاتل فى صفوف الفرس من اجل احتلال عمان [٣٨] بناء على الوعد الشفوى الذى قدمه السفير الفرنسى ميشيل الى الشاه فى وقت سابق. ولم ينجح الفرس هذه المرة ايضا فى جلب الاسطول الفرنسى لمساعدتهم ضد العرب فقد وجد الفرنسيون ان ذلك ليس فى صالحهم لاسيما وان الاسطول العربى ذو شدة وبأس.

لقد كان للاسطول اليعربى وبحارته الاقوياء من القواسم وغيرهم هيبة فى البحر وفى مواجهة الاعداء مما جعل الانجليز والهولنديين يحسبون لأية خطوة يخطونها ضد العرب مباشرة او مدهم يد المساعدة للدولة الفارسية، يحسبون الف حساب حتى ان القائد الانجليزى الكسندر هاملتون وصف الاسطول العربى فى تلك الفترة وصفا دقيقا حين قال بأن الاسطول العربى فى عام ١٧١٥ كان يتكون من سفينة كبيرة تحمل اربعة وسبعين مدفعا وسفينتين اقل حجما تحمل كل منهما ستين مدفعا، وواحدة اخرى ثبت عليها خمسون مدفعا، وثمانى عشرة سفينة صغيرة تحمل كل منها ما بين اربعة الى ثمانية مدافع. وبفضل هذه القوة البحرية مد العرب نفوذهم من رأس قمران حتى البحر الاحمر. وكما يقول د. صلاح العقاد فى كتابه ـ التيارات السياسية ـ إنه رغم رابطة الدين التى جمعت بين العرب والفرس فإن الصراع كان شديدا فى ذلك الوقت ولم يتردد حكام فارس في الاستعانة بالقوات الاوروبية لمهاجمة العرب، وفى النهاية كان الاوروبيون هم المستفيدون من هذا الصراع [٣٩].

وواصل الاسطول العربى حملاته التحريرية للذود عن الارض العربية وتحريرها من الاحتلال فقد أرسل الامام سلطان بن سيف اليعربى فى عام ١٧١٧ حملة الى جزر البحرين لتحريرها من الاحتلال وقد تمكنت هذه الحملة من طرد الفرس من الجزيرة وتابعت مسيرتها الى الجزر المحتلة الاخرى وتتبعت السفن الفارسية على الساحل الشرقى للخليج حتى حاصرت جزيرة قشم وركزت على مدينة لافت وهرمز. وفى عام ١٧١٧ كادت هرمز ان تسقط فى ايدى البحارة العرب [٤٠] لولا تدخل البرتغاليين الذين هرعوا لمساعدة الفرس بقوة كبيرة، وفك الحصار عن هرمز ومن ثم الاستيلاء على البحرين ثانية.

وفى عام ١٧١٩ وصل اسطول برتغالي أخر الى الخليج ودارت معارك عنيفة بينه وبين الاسطول العربى، اضطرت فيها السفن العربية

للانسحاب الى رأس الخيمة.

ثم كان الاحتلال الافغانى لايران فى اكتوبر ١٧٢٢ فزالت الدولة الصفوية وسادت الفوضى البلاد الفارسية وعم الاضطراب وكسدت التجارة وتوقفت حركة الصادر والوارد. وهكذا ايضا كان شأن الدولة اليعربية التى سادتها الخلافات والانقسامات.

ورغم الظروف الصعبة المحيطة بالمنطقة من اضطرابات وصدامات وتدخلات اجنبية عدوانية. فقد استمر الاسطول العربى بقيادة القواسم فى حروبه ضد الغزو الاجنبى للخليج ووقفت السفن العربية بكل صلابة تواجه الاطماع الشرسة الرامية للسيطرة على الجزر والموانىء العربية.

ولاستعادة مكانتهم قدم الهولنديون مساعدات عسكرية بحرية كبيرة الى الفرس ضد العرب الذين كانوا يغيرون على مواقع عربية على الساحل الشرقى للخليج لتخليصها من الاحتلال الاجنبى كما قدم الهولنديون المساعدة للفرس فى عام ١٧٣٧ في حملة بحرية ضد قبائل البلوش بقيادة الملك دينار.

وفى عام ١٧٤٠ قدم الهولنديون مساعدات بحرية للقائد الفارسى/ محمود تقى خان ضد البحارة العرب العاملين فى الاسطول الفارسى - الذى سبق ذكره - ولاستعادة السفن الفارسية التى يسيطر عليها العرب. ولكنهم فشلوا فى ذلك (٤١).

كما استعان نادر شاه بالهولنديين ضد القائد الفارسى محمود تقى خان حاكم بندر عباس. وكافأهم على ذلك بان قدم لهم التسهيلات التجارية وسمح لهم بإنشاء مقيميه تجارية فى ميناء بوشهر سنة ١٧٤٧، وبعث الهولنديون بعد ذلك بسفينة هولندية كبيرة الى بندر عباس من تبانيا بقيادة مينهر سكوند يورت M. Secondeiwort يرافقه عدد كبير من الجنود الهولنديين مجهزين بأحدث المعدات القتالية وكميات ضخمة من البضائع بهدف إدخال الفزع فى نفوس الاهالى وخاصة فى نفوس القبائل العربية. وكذلك ليسوقوا بضائعهم. ولكنهم فى وقت لاحق اصيبوا بخيبة امل لأن العرب لم يأبهوا بقوة الهولنديين. ففى ٢٣ ابريل ١٧٥٣ هجم عرب جزيرة قشم على السفينة الهولندية/ نانسى Nancy بالقرب من ميناء لافت واستولى عبدالشيخ حاكم الجزيرة على معظم حمولتها قبل اغراقها.

ومع ان السلطات الهولندية لم تكل فى محاولتها للمحافظة على ما وصلت اليه من مكانة وسلطة فى منطقة الخليج العربى فقد وجدت ان بقاءها فى بندر عباس أصبح مستحيلا مما اضطرها لاغلاق وكالتها فى بندر عباس سنة ١٧٥٩ (٤٢).

الهولنديون وعرب الخليج

عندما قرر الهولنديون فتح اسواق لهم ومراكز تجارية فى بلاد الشرق

الاوسط عامة والخليج العربي خاصة. اتجهوا للتعامل في أهم المواد والسلع التجارية رواجا في كلا الاتجاهين فكان حصولهم على التوابل والحرير واللؤلؤ يمثل قمة النجاح، كما ان بيعهم لمنتجاتهم الصوفية في اسواق المناطق الباردة يعتبر ايضا قمة النجاح. ولهذا الغرض فقد كانت هولندا اكثر القوى إسهاما في تصفية الوجود البرتغالي في البحار الشرقية في نهاية القرن السادس عشر وبالتالي كانت اكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية. حتى أنه لم يحل عام ١٦٤٠ الا وكانت البضائع الهولندية تغرق أسواق بندر عباس وتنتشر في المنطقة. ومن ذلك استطاع الهولنديون ان يحققوا أرباحا طائلة عن طريق احتكارهم لتجارة التوابل فقد كانت سفنهم تجوب الموانىء العربية والهندية بحرية تامة [٤٣].

وتتابعت بعدها اعمال تدعيم النفوذ الهولندي في الخليج فقد هاجم اسطولهم جزيرة قشم في عام ١٦٤٥ وأعلن سيادته عليها واضطر الشاه الى الاعتراف بهذه السيادة.

ومن منطلق العداء المشترك للوجود البرتغالي فقد ساد العلاقات الهولندية اليعربية العمانية لون من الود، بدأ واضحا بإعراب الهولنديين عن سرورهم لاسترداد العرب العمانيين مدينة مسقط من البرتغاليين في عام ١٦٥٠ وقد أدى ذلك الى زيادة وتضخم التجارة الهولندية في المنطقة.

واستمرارا لسياسة التفاهم بين الطرفين قدم الامام سلطان بن سيف الأول في عام ١٦٥١ عرضا مغريا للهولنديين يختص بتسهيل انتقال بضائعهم عبر الاراضي العمانية الى البصرة بدلا من بندر عباس - جامبرون - وكان لهذا العرض أهمية كبرى للطرفين.

وفي عام ١٦٥٤ وضع الهولنديون خطة لارسال تجارتهم الى جلفار - رأس الخيمة - لشراء اللؤلؤ. فقد جاء في تقرير [٤٤] للحاكم العام الهولندي في بتافيا الى مدراء الشركة في هولندا بتاريخ ١١ نوفمبر ١٦٥٤ حول تجارة اللؤلؤ في منطقة جلفار، قوله :

« برأينا اذا فخامتكم ترغبون في المضى بهذه التجارة، فإنه يتوجب إرسال شخصين ماهرين ومختصين من التجار القديرين الى البحرين أو الى جزر جلفار قبل بعض الوقت من بدء موسم الصيد - الغوص - المعتاد، حيث يتم صيد هذه المجوهرات. ومن الواجب إبلاغهم بالبقاء من بداية موسم الصيد حتى نهايته. وهكذا يتعرفون شخصيا على طريقة العمل التجاري المتبع في تجارة اللؤلؤ. وتعتبر هذه الوثيقة بمثابة الاشارة الى أول الخطوات المتخذة لتأسيس علاقات تجارية بين البلاد الواطئة - البنولوكس - وبلاد الامارات الخليجية. ورغم ان تجارة اللؤلؤ الهولندية لم تلق النجاح المرتجى، الا ان الهولنديين كانوا في كثير من

الاحيان يدرسون إمكانيـة إقامـة علاقات تجارية مع العرب الذين وجدوا فيهم تجارا متفهمين لطبيعة هذا العمل وأكثر ودا من التجار الفرس المتشددين (٤٥).

وكما اسلفنا فان الهولنديين جاءوا الى الخليج عام ١٦٢٣ الى جانب البريطانيين وانشأوا لهم مركزا فى بندر عباس حيث كانت شواطىء الامارات أنذاك لا زالت خاضعة للنفوذ البرتغالى. وكنتيجة لاتساع التجارة الهولندية مع بلاد فارس قام الانجليز بتحريض الشاه عليهم، وقد نجحوا فى ذلك مما أدى الى قيام الاسطول الهولندى بغارة تأديبية على بندر عباس فى عام ١٦٨٤ التى كانت خاضعة للشاه أنذاك.

لم يكن اليعاربة على استعداد لاستبدال السيادة البرتغالية بسيادة هولندية خاصة مع وجود قوة بحرية عربية يمثلها الاسطول العربى الذى يجوب مياه الخليج العربى والمحيط الهندى ناشرا الرعب والذعر فى قلوب الشركات الاجنبية فى هذه البقاع.

وكان طبيعيا ان يحدث احتكاك بين الهولنديين واليعاربة والذى بدأ منذ عام ١٦٩٥ وما بعدها. حيث أخذت السفن اليعـربيـة تهـاجم السفن الهولندية فى مياه الخليج وفى مياه المحيط. وتفاقم الصراع بين العرب والهولنديين الى حد كبير، ويرجع ذلك الى نشوب صراع بين البحارة العرب والفرس مما جعل الفرس الذين ليس لهم قبل بالبحر يستعينون بالهولنديين ضد البحارة العرب الذين ثاروا على الفرس بعد ان تعاقدت معهم على العمل تحت رايتها ولكنهم قتلوا قائدهم الفارسى اثر توجيههم لمقاتلة اشقائهم العرب فى مسقط، فاستولوا على الاسطول الذى كان يتكون من ثلاث سفن كبيرة وثلاث سفن صغيرة ومركب شراعى بساريتين، فاستنجدت الحكومة الفارسية بالهولنديين الذين سارعوا بسفينتين على كل منهما عشرون مدفعا، بحثا عن الثوار العرب واشتبكوا معهم فى معركة حامية كان من نتيجتها ان اغرق العرب إحدى السفينتين وعاد الهـولنديـون الى قـاعدتهم دون ان يحققـوا شيئا لحليفتهم دولة الفرس.

وأمدت بعدها الشركة الهولندية الفرس بسفينتين من نوع الغراب لمواجهة القوة العربية وإثر ذلك دارت مناوشات بين الجانبين افزعت القوة الحليفة فسارعت الى الفرار واللجوء الى ميناء كنج.

وتشير الكتابات التاريخية الى ان الهولنديين لم يكونوا يثقون بالفرس الا انهم قدموا لهم مساعداتهم تلك طمعا في منحهم إحدى جزر الخليج العربى لاتخاذها مركزا مستقلا لهم عن جميع القوى المحلية (٤٦).

أما عن رأس الخيمة التى كانت معروفة أنذاك باسم/ جلفار/ والتى تحررت من النفوذ البرتغالى فى عام ١٦٣١ فقد بدأت بعد ذلك التاريخ

تستعيد مكانتها التجارية شيئا فشيئا حتى أصبحت فى حوالى عام ١٧٠٠ مركزا مهما للتجارة الدولية حيث عمل الهولنديون على التعامل معها [٤٧]. الا انه لم تكن لديهم الرغبة فى منافسة العرب فى تجارتهم ذلك أن العرب هم أنفسهم بحارة وتجار يستطيعون تقديم البضائع بأسعار أرخص من التجار الاوروبيين.

ومن بين أوجه التعاون ما أشار إليه تقرير لرئيس المؤسسة الهولندية فى (جامبرون) الى الحاكم العام الهولندى فى الهند الشرقية بتاريخ ٢٧ يناير ١٧٠٢ تتعلق بسفينة هولندية متوجهة من الهند الى جلفار ـ رأس الخيمة ـ حيث واجهت السفينة طقسا سيئا من امواج عالية وعاصفة رعدية. مما اضطرها للرسو فى بارسالو وانزال حمولتها من البضائع ووضعها فى مقر شركة الهند الشرقية الهولندية هناك انتظارا لتحسن الطقس وعندها حملت السفينة بضائعها اضافة الى بضائع اخرى لتاجر عربى ولاثنين من سكان (كانورا) متوجهين الى جلفار [٤٨].

ان النمو التجارى للدولة اليعربية ونمو الموانىء العربية مسقط وجلفار والبحرين وحصولها على مكانة تجارية مؤثرة جعلتها فى طليعة الفعاليات الاقتصادية العربية آنذاك جعل هذا النمو وما اكتسبته عمان من قوة سببا مثيرا وداعيا للغضب فى بلاد فارس. مما أدى الى معارك حربية والى قيام تحالفات بين الفرس والبرتغاليين ضد العرب. ومن ذلك كانت معركة بحرية فى رأس الخيمة فى عام ١٧١٨ حاول فيها البرتغاليون حصار البحرية العربية هناك، ولكن دون فائدة. وفى الجهة المقابلة من الخليج كان شيخ رأس الخيمة رحمة بن مطر قد حاصر جزيرة هرمز لمدة طويلة، ولكنه لم يكن مستعدا لمواصلة هذا الحصار حتى يجبر القلاع فيها على الاستسلام [٤٩].

وقد كشفت رسالة بعث بها الشيخ رحمة بن مطر ـ القاسمى ـ الى المعتمد الهولندى فى الخليج بتاريخ ١٧١٨/٢/٢١ اعرب فيها الشيخ رحمة عن مشاعر الود والصداقة والاعتزاز بالعلاقات الودية بينه وبين الهولنديين. وابدى اعتذاره عن مصادرة البحارة القواسم لمركب اجنبى فيه ثلاثة اشخاص أجانب، اتضح فيما بعد ان المركب هولندى. وانه لذلك اطلق سراحه وسراح الاشخاص الثلاثة [٥٠].

ثم كان رد المعتمد الهولندى المفعم بعبارات الود والشكر لاطلاق سراح المركب والاشخاص الثلاثة المشار اليهم وكذلك الاعراب عن المطالبة بإطلاق سراح محتجزين آخرين أجانب لدى القواسم فى لاراك.

ومما يعكس تلك العلاقات ايضا رسالة بعث بها رئيس المؤسسة الهولندية فى بندر عباس فى شهر اكتوبر من عام ١٧٢٨ الى مبعوث المؤسسة فى جزيرة هرمز جاء فيها:

«ان الشيخ رحمة الرئيس القوى لجلفار. هو رجل معروف جدا لى. وقد حاول التملك فى هرمز. وانه عندما يريد ذلك الرجل تأسيس مكانته هناك، فانه من الممكن ان يساهم كثيرا فى إنجاح التجارة فى هرمز لأن ذلك الصديق معروف بأنه من اغنى الاغنياء ومن اقوى التجار فى الجزيرة العربية. وفى المنطقة المحيطة بنا بالذات (الخليج الادنى). وانه اذا كان شخصيا سيحضر الى هرمز (وانى غير متأكد من ذلك وفيما اذا كان بقاؤه فى هرمز ملائما لشعبه) فإنه من الامور الممتازة ان نقدم له الود»(٥١).

لقد ساعد الهولنديون الشيخ العربى/ راشد بن مطر زعيم قبيلة القواسم آنذاك برأس الخيمة ـ جلفار ـ لتثبيت سلطته وحكمه فى جزيرة قشم. وقد أنشأ الشيخ راشد فى هذه الجزيرة قوة تجارية صغيرة مستقلة وفعالة.

فقد أحب الهولنديون الشيخ راشد الا ان الانجليز كانوا على العكس من ذلك فتعاونوا مع الفرس ضده، ولكن راشد كان قويا فقد حمى نفسه لمدة طويلة، والشيخ راشد اقام علاقات مع الادارة الهولندية فى بندر عباس فقد كان هناك مراسلات بينهما محفوظة حتى الآن فى خزائن الارشيف الهولندى. ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها فى ١١/٥/١٧٣٢ من جزيرة قشم جاء فيها: (٥٢) بعد التحيات.

«لقد وصلتنى رسالة سعادتكم الافخم فى الوقت المناسب، وكنت جدا سعيدا باستلامها. ولكن من جهة اخرى كنت آسفا لعدم تمكنى من الكتابة اليكم مبكرا من قبل لأن مسئوليات عديدة حالت دون ذلك...

وقال: انى اطلب من سعادتكم بكل الصداقة ان لا تعتقدوا بأنى خائف من وصول محمد على خان مع قوة عسكرية كبيرة الى الاراضى المنخفضة فى البلاد.. ان نفسى مرتاحة لأنى لم أوذى احدا، فكل ما عملته هو إقامة بلدة صغيرة ممتازة ومزدهرة جدا تجاريا حيث لجأ اليها الفقراء واللاجئين المنهكين الذين كان همهم إيجاد مأوى يعيشون فيه.

لهذا لا اجد اى سبب للخوف او الاكتراث، بل على العكس.. انى اجد الوقت مناسب لأعلن بأنه من حقى السعى لأخذ عرشه ردا على عدائه الأعمى..

كما اننى أقيم بمكان محصن تحصينا عظيما حيث لا يوجد هناك ما يدعو للخوف. أدعو الله ان يمنح جلالة ملككم الصحة الدائمة والسعادة فى الحياة. ولمعلومات سعادتكم فإن الشهبندر ـ ميرزا محمد هو عضيد جيد ومساعد جيد لى..» وتضمنت الرسالة الكثير من عبارات الصداقة والود.

ورغم ذلك الود فقد كان الهولنديون يهبون وفق ما تمليه عليهم مصالحهم الى تقديم مساعداتهم للحملات الفارسية فى حروبها ضد البحرين

وساحل عمان، ففي عام ١٧٤٠ قام الاسطول الهولندى بمظاهرة عسكرية على إثر التمرد الذى قام به البحارة العرب في بعض قطع الاسطول الفارسي في ذلك العام. فقد ارسل وكيل مجلس جامبرون - بندر عباس - رسالة بهذا الخصوص بتاريخ ١٠/١٢/١٧٤١ الى رئاسته قال فيها:

« ثار العرب في خدمة البحرية الفارسية واخذوا بعضا من السفن. لهذا قام الهولنديون بضرب الثوار العرب باثنتين من سفنهم، ولكنهم لم يكسبوا سوى القليل ».

ووصف تقرير (٥٢) كتبه الهولنديان المقيمان في جزيرة خرج T.F. Vankniphausen J. Vander Hulst في عام ١٧٥٦ وصف منطقة الساحل الغربي للخليج العربي بين القطيف والصير - رأس الخيمة حاليا - فقال: هناك ثلاثة مواقع بارزة على الساحل وهي: الصير، جوهار، والشارقة، والتي يجلب لها الرز والتمر من البصرة ليباع الى عرب الصحراء والى غواصي اللؤلؤ.

الصير.. كما هو معروف محصنة جيدا وفيها عدد من المدافع ويسكنها عرب من قبيلة الهولا - المسمون بالقواسم. ويحكمها الشيخ رحمة بن مطر الذى يقال له ايضا الشيخ كايد. وقد ايدته مختلف قبائل البدو العربية الصحراوية.

ويعتبر الشيخ رحمة في الواقع الاقوى في شيوخ وحكام عرب الهولا

وقد سلح من جماعته اربعمائة رجل في مدينة الصير التى يتبعها ميناء جيد قادر على احتواء اكبر المراكب. وهناك تحت امرته حوالى ستين مركبا اغلبها كبيرة وواسعة ومزودة بكل الاحتياجات بشكل جيد.

وفي السنة الماضية لذلك التاريخ قام الشيخ رحمة بالتعاون مع ملا على شاه حاكم بندر عباس الذى تربطه به قرابة المصاهرة. بحملة بحرية اعاد فيها مدينة لافت في جزيرة قشم الى السلطة العربية.

الهوامش

١ ـ عمان تاريخ يتكلم ص ١٩٢.
٢ ـ دولة اليعاربة، د. عائشة السيار ص ٣٠ نقلا عنDennis OP. Cit. P. 210
٣ ـ Ross. OP. Cit. P. 160.
٤ ـ Badger : OP.Cit P 67& Miles op.P .204
٥ ـ Badger: OP. Cit. P. 66
٦ ـ لو ريمر ج ١، ص ١٢٧.
٧ ـ Ibid P. 220
٨ ـ Lockhart, Nadir Shah's Compaigns in Oman 1737 - 1744 p.160
٩ ـ Dr. Slot. In the Land Of the White Tower, P. 6
١٠ ـ الوثيقة محفوظة في الارشيف ـ القسم الهولندى تحت رقم182 - VOC 2476
١١ ـ Lockhart: Nadir Shah P. 184
١٢ ـ I. O. R .G . 129 — 5 — 15 th September 1740
١٣ ـ د. عبدالامير محمد أمين، ص ٢٥
١٤ ـ جان جاك بيربى ـ الخليج العربى ص: ٤.
١٥ ـ مخطوطة الجواهر واللآلى فى تاريخ عمان الشمالى، عبدالله صالح المطوع.
١٦ ـ المفصل فى تاريخ الامارت العربية المتحدة ـ فالح حنظل، ص ١٠٩.
١٧ ـ نفس المصدر السابق ص ١٢٦.
١٨ ـ دور القواسم فى الخليج العربى، د. صالح العابد ص ٨٨.
١٩ ـ ابن رزيق ـ الشعاع الشائع ص ـ ٣١٤ ـ ٣١٥، وعائشة السيار ـ دولة اليعاربة ص ١٩٠.
٢٠ ـ كتاب وثائق عن الصومال، الحبشة واريتريا ـ احمد برخت ماح ص ١٨٢.
٢١ ـ نفس المصدر ص ١٨٥.
٢٢ ـ وردت تفاصيلها فى كتابHaklay, Richard Voyages & Discoveries P. 91
٢٣ ـ Steensgard. OP. P. 121
٢٤ ـ لوريمر ج ١، ص ٢٣.
٢٥ ـ د. خانبابا بيانى، خليج فارس وريزيان صفوية، ص ٩٨.
٢٦ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولى فى الخليج العربى ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
٢٧ ـ C. R . Boxer. The Dutch Seaborne Empire 1660 - 1800 P. 22

٢٨ ـ C. R . Boxer OP. Cit P. 233

٢٩ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولى في الخليج ص ١٤٦.

٣٠ ـ جاكلين بيرين ـ اكتشاف جزيرة العرب، ص ٨٢

٣١ ـ الخليج العربي. قدرى قلعجي، ص ٣٨٦.

٣٢ ـ د. علاء الدين نورس ـ السياسة الايرانية في الخليج العربي ص ٧.

٣٣ ـ Lorimer, OP. Cit. Vol. 1, Part 1 A PP. 4-5

٣٤ ـ ج. ج لوريمر ج ١، ص ٦٢ ـ ٦٣.

٣٥ ـ د. محمود على الداود ـ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ص ١٦.

٣٦ ـ Bruce's Annals - Vol. III P. 439

٣٧ ـ لورنس لوكهارت ـ انقراض سلسلة صفوية، ص ٥٠٩ ـ ٥١٠.

٣٨ ـ د. محسن عزيزى ص ١٢.

٣٩ ـ د. صلاح العقاد، ص ٤٩.

٤٠ ـ سليمان البارونى ص ٥٦.

٤١ ـ محمد حسين قدوسى ـ نادر نامة ص ٢٠٢.

٤٢ ـ لوريمر ج ١، ص ٢١٧.

٤٣ ـ دولة اليعاربة، د. عائشة السيار، ص ١٧٥.

٤٤ ـ وثيقة من الارشيف الهولندى رقمVoc Vol. 1208

٤٥ ـ تقرير لقبطان السفينة الهولندية (ميركات) عن رحلة لها في موانىء الساحل العمانى ـ الامارات ـ رقم التقرير في الارشيفVoc. 1259

٤٦ ـ Saldanha, Public Department Diary No. 10 of 1736,1737 P. 56

٤٧ ـ د. سلوتDr. B.J. Slot-In the Land of the White Tower P.3

٤٨ ـ تقرير رئيس المؤسسة الهولندية في جامبرون، تحت رقم ١٦٦٧ في الارشيف الهولندى...

٤٩ ـ د. سلوت ـ المرجع السابق ـ ص ٥.

٥٠ ـ الرسالة موثقة تحت رقمVol. 1913 P. 437-438

٥١ ـ وردت الرسالة في الوثيقة رقمVoc. 2114 - 3657

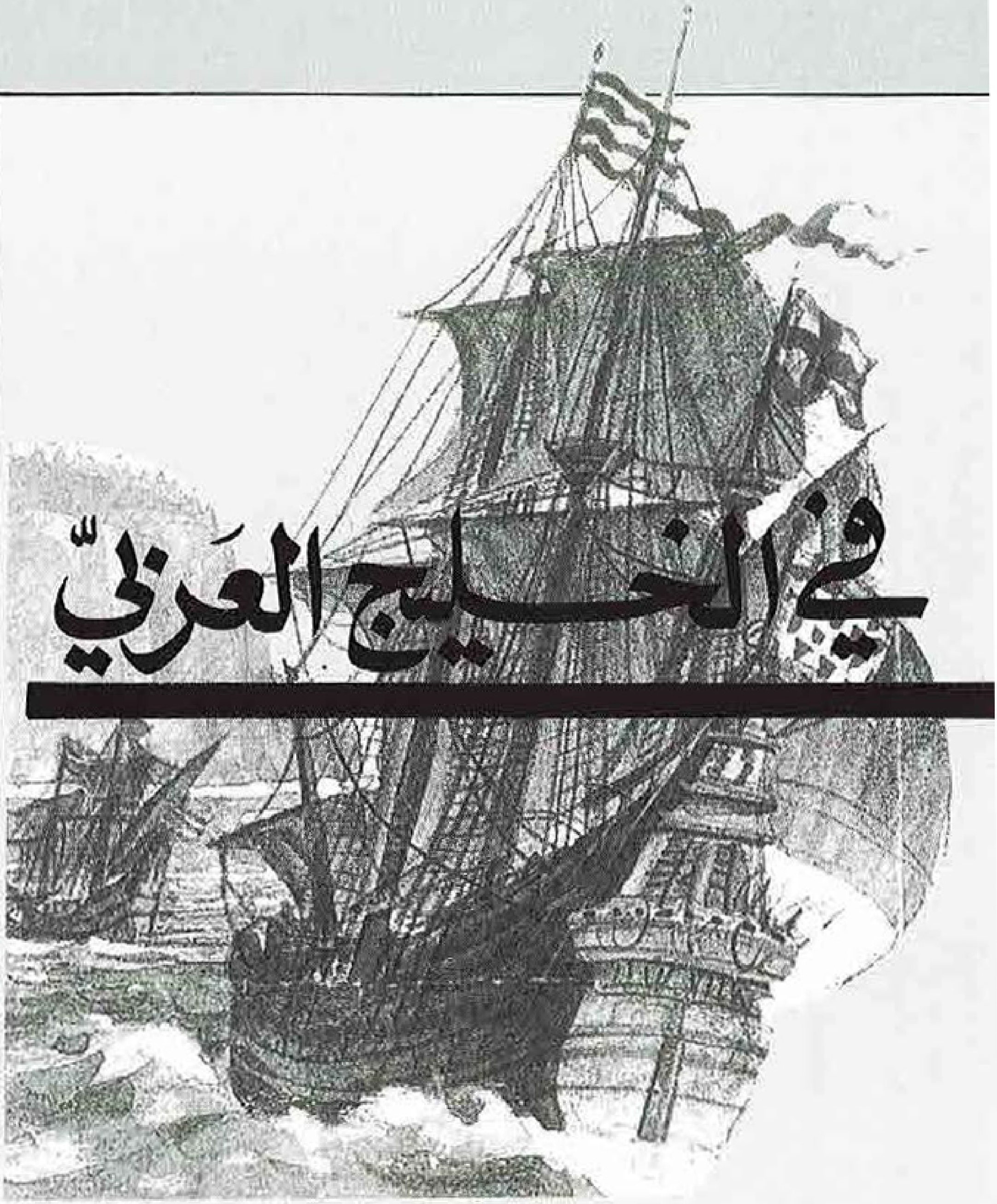
٥٢ ـ الرسالة محفوظة في الارشيف الهولندى تحت رقم Voc. 2254 P. -1274-1278

٥٣ ـ جاء هذا التقرير ضمن الوثيقة المعنونة بـ Aanwinsten le afdeling 1889 23 - B

دراسة
في الوثائق
والمصادر المنشورة عن

الغزو والسيطرة البرتغالية

لقد انكشف جزء غير يسير في تاريخ الخليج العربي في مطلع العصور الحديثة، وبالذات الفترة التي اعقبت الغزو البريطاني للمياه العربية، بيد ان جزءا اخر غير قليل ما يزال غامضا ويحتاج الى تسليط الضوء عليه. ومن المعروف ان عددا كبيرا من الباحثين اعتمد الى حد ما في دراسة تاريخ هذه المنطقة على المؤلفات الاجنبية اكثر من اعتمادهم على المؤلفات العربية المحلية التي اما إنها كانت قليلة او انها وقفت صامتة أمام احداث هذا الغزو ـ كالمصادر العمانية مثلا. وعلى اية حال، فان استقصاء هذه المؤلفات، اجنبية كانت ام عربية، سيعين الباحث على دراسة تاريخ الخليج العربي بصورة افضل، وهو ما سنقوم به في هذه الدراسة ، التي تهدف اساسا الى التعريف بالمصادر التي لها علاقة وثقى باحداث الغزو البرتغالي في المنطقة ودراستها.



في الخليج العربيّ

الدكتور طارق نافع الحمدانى

وقد قسمت هذه الدراسة الى عدة اقسام، يشمل القسم الأول منها حصر الوثائق المنشورة ـ وبالذات البرتغالية والعثمانية والانكليزية، وقد سهل مهمتنا فى هذا المجال اقدام كثير من مراكز الدراسات فى اقطار الخليج العربى على نشر مثل هذه الوثائق. تتطرق بعدها الدراسة الى التعريف بالمصادر الاجنبية والعربية المعاصرة والقريبة من احداث الغزو البرتغالى للخليج. من خلال اعطاء صورة عامة عن هذه المصادر، ثم اولت الدراسة اهتماما مماثلا بالمراجع والبحوث ذات الصلة بالموضوع، اجنبية كانت ام عربية.

الوثائق البرتغالية المنشورة

١ ـ تاريخ الخليج العربى فى الوثائق البرتغالية، فصول مترجمة من كتاب جـوادى بـاروس (عن اسيـا)، اصدرته لجنة وثائق الخليج العربى.

ويتحدث هذا الكتاب عن وصول البرتغاليين الى الخليج، وتعرضهم للموانىء الواقعة على شاطئيه، كما يتطرق الى وصول العثمانيين الى المنطقة وحملاتهم البحرية اليه فى منتصف القرن السادس عشر. بيد انه من الملاحظ ان الكتاب فيه روح تعصبية ظاهرة، اذ يجد فيه القارىء تبـريرا واضحـا لكل مـا ارتكبه البرتغاليون من اعمال وتخريب وتدمير فى موانىء الخليج بعد وصولهم اليه.

ولذلك فمن الضرورى ان نتذكر عند قراءتنا لهذا الكتاب ـ كما يقول بكنجهام ـ الاسباب التى دفعت مؤلفه للكتابة والافكار والافتراضات التى طرحها فى عمله. (١) ومع ذلك فالكتاب له فائدة كبيرة جدا فى دراسة تاريخ المنطقة واستقصاء كثير من المعلومات عنها، خاصة وانه ليست هناك روايات عربية معاصرة معروفة يمكن ان نعتمدها فى تدوين احداث الغزو البرتغالى للخليج ومراحله المختلفة.

٢ ـ « مساهمة الوثائق البرتغالية فى كتابة تاريخ الغزو البرتغالى لسواحل المغـرب والبحر الاحمـر والخليج العربى وما تولد عنه من ردود فعل ».

قام الدكتور احمد بوشرب فى هذا البحث بجمع كثير من الرسائـل والمعاهدات المحفوظة فى الارشيف الوطنى البرتغالى، والمتعلقة بمراحل الغزو والسيطرة البرتغالية على الخليج العربى، وفيها معلومات عن تعسف المسئولين البرتغاليين وطغيانهم فى المنطقة وردود الفعل التى تولدت عن ذلك بين سكان البلاد. وتسمح هذه الرسائل ايضا بدراسة المخططات البرتغالية لاغلاق الخليج العربى بوجه الملاحة العربية، فضلا عن الـدوافـع المختلفـة التى حـدت بالبرتغاليين لاكتساح مناطق الوطن العربى سياسية واقتصادية ودينية.

وعلى الرغم مما تحمله هذه الوثائق من وجهات نظر موالية للبرتغاليين، فان بالمستطاع اعتمادها لسد الكثير

من الثغرات التى تركتها المصادر العربية، اذا ما استخدمت بشيء من الحيطة والحذر.

ومن الجدير بالذكر، ان الدكتور بوشرب قد نشر هذه الوثائق عدة مرات، اذ ظهرت لأول مرة فى « **مجلة المناهل** » (المغربية)، العدد السادس والعشرون، السنة العاشرة (مارس، ١٩٨٣) ص ص ٣٢ ـ ٨٣. وظهرت للمرة الثانية فى مجلة « **الخليج العربى** »، التى تصدر عن مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة، المجلد السادس عشر، العدد ١ (١٩٨٤)، ص ص ٢١ ـ ٤٦. واخيراً قامت مجلة **الوثيقة** (البحرينية) بنشرها فى عددها العاشر، السنة الخامسة (يناير، ١٩٨٧) ص ص ١٤٤ ـ ١٨١.

٣ ـ « مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية فى كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر » نشرة الدكتور احمد بو شرب فى مجلة **الوثيقة** البحرينية العدد الرابع، السنة الثانية (يناير، ١٩٨٤) ص ص ١١٨ ـ ١٤٠.

ويتطرق هذا البحث الى اوضاع الخليج العربى فى النصف الاول من القرن السادس عشر، بخاصة البحرين والقطيف والاحساء. ولكن اهمية البحث الفعلية تكمن فى الملاحق الثلاثة التى وردت فيه: فالملحق الاول هو بعنوان « حملة برتغالية ضد البحرين من خلال رسالة لوالى هرمز ١٥٢٩ » والملحق الثانى « رسالة من الرئيس ركن الدين، وزير هرمز الاول الى الرئيس شرف، وزير هرمز المعزول حول محاولات ملك الاحساء السيطرة على البحرين والقطيف والبصرة ». والملحق الثالث « رسالة من برنالدودو سوزا الى الملك البرتغالى حول هجوم برتغالى على الخليج العربى ١٥٤٥ ».

والحقيقة ان هذه الملاحق الوثائقية تسلط بعض الاضواء على المحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة على مناطق الخليج العربى، والاهم من ذلك احتواؤها على معلومات تتعلق بالقوى العربية المحلية الموجودة فى المنطقة ودورها فى مقاومة البرتغاليين، كما هو الحال بالنسبة لآل مغامس ـ حكام البصرة.

٤ ـ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ١٥٣٤ ـ ١٥٨١ »، تأليف صالح اوزبران، ترجمة الدكتور عبدالجبار ناجى، نشر مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة (مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٩).

لا تكمن اهمية هذا الكتاب فى المعلومات القليلة التى نشرها الباحث ملخصا لاطروحة الدكتوراه المقدمة الى مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن عام ١٩٦٩، والمتعلقة بالصراع العثمانى ـ البرتغالى فى الخليج العربى، التى قد تكون اكثرها معروفة للباحثين المتخصصين بتاريخ المنطقة، ولكن فى الملاحق التى اوردها المؤلف، وهى

عبارة عن ترجمة لرسائل برتغالية مهمة، تحتاج لدراسة تفصيلية لالقاء الضوء على منطقة الخليج العربى انذاك.

فالملحق الاول هو « رسالة من دوم ما نوئيل دى ليما حاكم هرمز الى د. جواو دى كاسترو حاكم الهند، هرمز فى ٢٣ حزيران ١٥٤٧ ». وهذه الرسالة تتضمن معلومات قيمة عن تحركات البرتغاليين فى الخليج، ومراقبتهم لتحركات العثمانيين وقوتهم فى المنطقة، وبعض الجهود العثمانية الرامية الى اقامة نوع من التقارب الودى مع البرتغاليين، وذلك من خلال ايفادهم للتاجر العربى الحاج فياض ومعه رسالة الى الحاكم البرتغالى فى هرمز دى ليما، وقد اوضحت هذه الرسالة نوايا السلطات العثمانية فى استمرار حركة التجارة عبر الخليج العربى.

واما الملحق الثانى (ص ص ٧٦ ـ ٨٠)، فهو عبارة عن رسالة مكتوبة فى هرمز فى ٣٠ اكتوبر ١٥٥٢، وفيها تفصيلات عن كيفية محاصرة الاتراك العثمانيين لهذه المدينة. واما الملحق الثالث ففيه « رسالتان من دوم نورونها فى هرمز حول النشاطات التركية على طول ساحل الجزيرة العربية، وفى هاتين الرسالتين يظهر لنا بوضوح طبيعة التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكري للمحيط الهندى والخليج العربى فى القرن السادس عشر، وطبيعة الاهتمام الشديد للبرتغاليين والعثمانيين بتلك الاجزاء التى كان يصل عن طريقها المواد والبضائع الاسيوية الى سواحل البحر المتوسط.

الوثائق التركية المنشورة

ما زالت الوثائق التركية المنشورة عن الخليج العربى. واحداث المجابهة البرتغالية ـ العثمانية فيه قليلة جدا ولا تفى بالمراد. ولعل مما له علاقة بهذا الموضوع ما نشره الدكتور احمد فؤاد متولى بعنوان « البحرية العثمانية والبرتغالية فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى على ضوء الوثائق التركية »، فى « مجلة كلية العلوم الاجتماعية » (السعودية)، ١٩٨٠. ولكن يظهر ان البحث يحمل عنوانا اكبر بكثير مما هو فى المتن، لكونه لا يحتوى على مادة غزيرة تتعلق بالخليج، وليس فيه غير وثيقتين مترجمتين الى العربية موجهتين الى سيدى على رئيس لقيادة الاسطول العثماني، وما عدا ذلك فان البحث لا يتضمن مادة جديدة.

وهناك ايضا التقرير الذى اعده البروفسور ى. اورهنلو بالتركية وترجمه الى العربية الدكتور حسين على الداقوقي بعنوان « تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩ » ونشرته (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية »، العدد الرابع والعشرون، السنة السادسة

(تشرين أول ١٩٨٠) وهذا التقرير كتبه شخص شارك فى هذه الحملة العثمانية، وهو يلقى ضوءا على بداية الحملة وأسبابها، والجهود البرتغالية المضادة لابعاد العثمانيين عن البحرين.

وقد نشرت مجلة « الوثيقة » البحرينية ايضا فى عددها الاول، السنة الاولى (يوليو، ١٩٨٢) صحيفة ١٤٩ نص الوثيقة العثمانية الموجهة الى مراد شاه حاكم البحرين فى ٢٨ ذى الحجة ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٩م، تعلمه بعدم رضى السلطات العثمانية بقيام مصطفى باشا حاكم الاحساء بمحاصرة البحرين دون اذن منها، فاتخذت بعض الاجراءات ضده حيث تقرر طرده وتعيين شخص آخر محله، حتى لا يتمكن البرتغاليون من الحاق ضرر بتلك الاقاليم.

وتعد اطروحة الدكتور سى. ايج. انبر المعنونة: ادارة البحرية العثمانية خلال حكم السلطان سليمان الاول ١٥٢٠ - ١٥٦٦ التى قدمها لجامعة كمبردج عام ١٩٧٠، من اكثر المصادر صلة بموضوع الصراع العثمانى - البرتغالى فى الخليج العربى خلال القرن السادس عشر. ذلك لأن هذه الاطروحة قد كرست اصلا لترجمة الوثائق العثمانية حول الموضوع والموجودة فى دور الوثائق العثمانية، ومن هنا تكمن اهمية هذه الاطروحة. فمثلا قام هذا الباحث بترجمة كافة الاوامر الصادرة الى الولاة العثمانيين فى البصرة، والمتعلقة باتخاذ كافة الاستعدادات - المالية والعسكرية - لمواجهة البرتغاليين فى الخليج (انظر على سبيل المثال وثيقة رقم ٧٧ - ٨١ فى ص ص ٩٤ - ٩٨).

الوثائق الانكليزية المنشورة

تعد الوثائق التى نشرها وليم فوستر William Foster فى مطلع القرن العشرين بعنوان « الوكالات الانكليزية فى الهند The English Factories In India » التى ظهرت بثلاثة عشر مجلدا وتغطى الفترة من ١٦١٨ - ١٦٦٩، من ابرز الوثائق الانكليزية المنشورة التى تلقى اضواء على النشاطات البرتغالية المختلفة فى الخليج خلال القرن السابع عشر، وعملية التنافس التى حصلت بين البرتغاليين من جهة والقوى الاوروبية الاخرى التى وصلت الى المنطقة من جهة اخرى. وهى فى الوقت نفسه من اهم المصادر عن تنامى المقاومة العربية العمانية، والتى تمت على يدها نهاية النفوذ البرتغالى فى الخليج فى منتصف القرن السابع عشر، وعن طريقها يمكن مقارنة النصوص الاجنبية بالنصوص العربية العمانية التى بدأت ترد باسهاب، وبدون شك فان هذه الوثائق قد افادت الباحثين كثيرا فى تخفيف الصعوبات التى يواجهونها فى مراجعة السجلات الرئيسية لشركة الهند الشرقية، وهى

بحق معين لا ينضب من المعلومات عن القرن السابع عشر.

ومما يتمم هذه المجموعة الوثائقية المهمة ما نشره كل من نويل سينس بيرى Noel Sains bury بعنوان: Calendar Of State Papers Colonial Series, East Indies China and Persia 1622 — 27 (London, 1878—84). وسلدانا. J. A. Saldanha بعنوان: « Selections: From State Papers, Bombay, regarding The East India Company's Connection With The Gulf, With a summary Of events, 1600 — 1800 (Calcutta, 1908). اذ تعد هاتان المجموعتان فى غاية الاهمية لدراسة النشاط البرتغالى فى الخليج خلال القرن السابع عشر، من حيث علاقته بالقوى المحلية والاجنبية.

ومن المصادر الوثائقية الهامة ايضا « حوليات شركة الهند الشرقية Annals Of The Honorable East India Company 1600 — 1800 », 3 Vols (London, 1810) التى صنفها جون بروس John Bruce. وتعد هذه المجموعة ذات صلة وثيقة بتاريخ الخليج، ذلك لأنها حوت كثيرا من المعلومات عن توسع البرتغاليين وغزوهم لهذه المنطقة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وذلك بالاعتماد على رسائل شركة الهند الشرقية الانكليزية.

ومن ضمن الوثائق الانكليزية المنشورة المهمة « حوليات الاباء الكرملين في فارس ـ A Chronicle of Carmelites in Persia and The Papal Missions of The XVIIth and XVIIIth Centuries, 2 Vols London, 1939» تلك الوثائق التي نشرت غفلا، ولكنها تحتوى على الكثير من الموضوعات التى لها علاقة وثيقة بوضع البرتغاليين فى الخليج وانحدار نفوذهم فيه بفضل تنامى قوة عمان وازدهارها، حيث يجب عدم اغفالها من قبل اى مؤرخ يهتم بتاريخ هذه المنطقة واحداثها انذاك.

المصادر البرتغالية والمصادر الاخرى

تشكل مادة المصادر الاجنبية ـ بخاصة البرتغالية ـ العمود الفقرى لدراسة تاريخ الغزو والسيطرة البرتغالية فى الخليج العربى، وذلك لأنه فى الوقت الذى انعدمت فيه المعلومات عن احداث الغزو البرتغالى للمنطقة، بخاصة فى المصادر العمانية، فان الباحث لا يجد بديلا عن هذه المصادر، سواء ما كان منها بشكل مذكرات او رحلات او كتب اصلية مستندة على هذا وذاك.

تأتى مذكرات و« تعليقات » الفونسو دى البوكيرك، التى نشرت فى اربعة اجزاء بعنوان « The Commentaries Of Great Alfonso Dalboquerque, Translated From The Portu-

guese by Walter de Gray Birch. « London, Hakluyt Society, 1881, في مقدمة الكتب البرتغالية ذات الصلة باحداث الغزو البرتغالي. ومن الواضح ان هذه المذكرات تحمل روح المبالغة في اظهار افضال ابطالها، فهي تشيد بالانتصارات الكبيرة والاحداث الفخمة التي قام بها البرتغاليون في الشرق، وتتضمن حكايات عن حالات الحصار والمعارك وذبح « الاعداء ». ويمكن للمرء ان يعدد الكثير من الامثلة على ذلك، بيد ان موقف البوكيرك تجاه المدن العمانية الساحلية يكشف عما كان يحدث بوجه خاص اذ لم يكتف البوكيرك عند مهاجمته لبلدة خورفكان بنهبها، بل قام بنفس ما كان يقوم به في المدن العمانية الاخرى من قطع اذان السكان وانوفهم، وهو عمل يحمل روح القسوة والتعصب لدى البرتغاليين تجاه سكان المنطقة. (٢).

وعلى اية حال، فان هذه « المذكرات » لا تخلو من الفائدة الكبيرة في معلوماتها عن منطقة الخليج العربي وسكانها، اذ نجد فيها وصفا مسهبا لمعظم المدن الواقعة على الساحل.

ومن الكتب الاساسية التي الفها البرتغاليون في النصف الاول من القرن السادس عشر وفيها وصف مفصل للبلدان المطلة على المحيط الهندي والخليج العربي، فضلا عن القائها الضوء على احداث الغزو البرتغالي المبكرة، كتاب تومي بيريز ودوراتي باربوسا. فالكتاب الاول الموسوم: « سوما اورينتال » The suma Oriental Of Tome Pires An account Of The East, From The Red Sea To Japan, Written In Malacca and India in 1512 — 1515, 2 Vols (London, Hakluyt Society, 1944), لا يتضمن الا القليل من المعلومات عن الخليج العربي بل ان معلوماته عن هذا الجانب جاءت مخيبة للامال. اما كتاب باربوسا المعنون: The Book Of Durate Barbosa an Account Of The Countries bordering On The Indian Ocean and Their Inhabitants Completed about The year 1518 A. D, Translated From The Portuguese Text by Mansul. Longworth Dames, Vol. 1 (London, Hakluyt Society, 1918), فانه ذو قيمة كبيرة، ذلك لأنه يجمع بين الخبرة الشخصية الطويلة في الشرق وبين كثير من الملاحظات الدقيقة. لقد وصف باربوسا عددا كبيرا من مدن الخليج العربي، على الساحلين الشرقي والغربي، وكانت اوصافه غاية في الاهمية لانها عرفتنا باوضاع تلك المدن في الفترة المبكرة من القرن السادس عشر. الا ان المؤلف يظهر تعصبا سياسيا للبرتغاليين عندما يتحدث عن مواقفهم السياسية المتطرفة تجاه سكان المنطقة.

وهنا لا بد من الاشارة الى كتاب آخر مهم بعنوان « اسباني في جزر الهند الشرقية البرتغالية A Spaniard

In The Portuguese Indies, Harvard University Press, Cambridge Massachusetts, 1967), لمؤلفه مارتن فرناندز فيكارو (فيفارو)، الذى نشره جيمس مكينا James Mckenna، كمبردج، ماساشوسيتس ١٩٦٧.

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة عن العقدين الاولين من القرن السادس عشر، وذلك لأن معلوماته تكمل « تعليقات » البوكيرك و« كتاب باربوسا ». وفى الكتاب نجد الاشارة الى حالة الرعب التى اثارها البرتغاليون بين السكان عند دخولهم لمدن الخليج العربى - بخاصة المدن العمانية، فضلاً عن رغبتهم الفعلية فى السيطرة عليها لما كانت عليه هذه المدن من غنى فى ثرواتها ومواردها (انظر على سبيل المثال ص ص ٨١ - ٨٧).

وحتى الان لم اقل شيئا عن اهم مصدر برتغالى نشر حتى الان يتعلق بالعقود الاولى من القرن السابع عشر، ذلك هو كتاب روى فريير اندرادى المعروف بـ « التعليقات »:

Commentaries Of Ruy Freyre De Andrada, edited With an introduction by C. R. Boxer (George Routledge & Sons LTD, London, 1930).

وتعود اهمية هذا الكتاب لان مؤلفه كان ممن تولوا عدة مناصب فى الاساطيل البرتغالية الى الخليج العربى عام ١٦١٩. ومن خلال وجوده هناك اتخذ مسقط مقرا لقيادته فاستعاد كلا من صحار ودبي وخورفكان وغيرها من الاماكن التى كانت تحتلها حاميات من الفرس. كما قام بعدة غارات على الساحل الغربى للخليج العربى، عرف من خلالها بحماسته ومقدرته الحربية، لكنه من الناحية الاخرى كان معروفا بالعنف والقسوة، وقد اكسبته الاعمال والفظائع التى ارتكبها فى الخليج على مدى فترة تصل الى ثلاثة عشر عاما (١٦١٩ - ١٦٣٢)، اكسبته شهرة دائمة وسمعة سيئة [٣].

وعلى اية حال، فان الكتاب يعطينا معلومات مفصلة عن العمليات الحربية البرتغالية فى منطقة الخليج العربى آنذاك، وعن موقف القوى المحلية من البرتغاليين.

ومن المصادر المهمة فى تاريخ الغزو البرتغالى كتاب المؤرخ البرتغالى فاريا سوسا Fariay de Sousa المعروف بـ « اسيا البرتغالية The Portuguese Asia »، وقد ترجم جون ستيفن John Stevens هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية ونشر فى لندن عام ١٦٩٥.

يقع الكتاب فى ثلاثة اجزاء، ويحتوى على تاريخ مفصل للنفوذ البرتغالى فى الخليج العربى والمحيط الهندى وجنوب الجزيرة العربية والبحر الاحمر. بيد ان مما يؤخذ على فاريا سوسا تعصبه الشديد للبرتغاليين وروحه الحاقده ضد المسلمين، لذلك نجده يميل الى المبالغة فى تصوير عدد القتلى من المسلمين فى

المعارك التى جرت ضد البرتغاليين، وتصوير عمليات الارهاب والوحشية اثناء غزو البرتغاليين للخليج على انها من اعمال البطولة البرتغالية، لذا يجب ان تؤخذ رواياته بحذر شديد، ومقابلتها مع الروايات الاخرى المعاصرة.

والى جانب هذه المجموعة من كتب المذكرات (او التعليقات) والكتب البرتغالية الاصيلة، تبرز كتب الرحلات البرتغالية حيث تعد رحلة بيدرو تكسيرا الى الخليج عام ١٦٠٤ من اهمها وهى بعنوان: The Travels Of Pedro Teixeira, translated and annoted by William F— Sinclair (London Hakluyt Society, 1902)، ورحلة مانويل غودينهو Manoel Godinho الموسومة بـ « Relations Of The New route Father Manuel Godinho Took From India To Portugal In The Year 1663 » التى تجد لها ملخصا بالانكليزية نشره ديفيد لى فى كتابه: Portuguese Voyages 1498 — 1663 (London, 1947), PP. XX — XXI, 333 — 360.

والرحلتان لهما فائدة كبيرة عن الخليج العربى ذلك لأنهما تشيران الى عوامل ضعف النفوذ البرتغالى فى المنطقة، وتحذران من وصول القوى الاوروبية الاخرى، واعتزامها انهاء الوجود البرتغالى فى الشرق.

ويهمنا فى هذا المكان ان نشير بوجه خاص، الى رحلة الايطالى بترو ديلافال Pietro Della Valle، المعروف بـ « The Travels Of A Noble Roman to East Indies and Arabian Desert (London, 1665).

وترجع اهمية هذه الرحلة لانها الفت فى نفس الفترة التى ألفت فيها مذكرات القائد البرتغالى روى فريير اندرادى، ولهذا فان بالامكان استخدامها وسيلة للتحقيق فى المعلومات التى ذكرها اندرادى، تلك المعلومات التى تطغى عليها صفة المبالغة عن انتصارات البرتغاليين واعمالهم الوحشية تجاه سكان الخليج العربى.

المصادر التركية والمصادر العربية.

لم يكن القادة البحريون البرتغاليون هم الوحيدون الذين تركوا مذكرات عن اعمالهم الحربية ـ البحرية فى الخليج العربى كما هو الحال فى مذكرات البوكيرك واندرادى، ولكننا نجد مثل هذه المذكرات لدى بعض القادة البحريين العثمانيين امثال سيدى على ريس، الذى عهدت اليه قيادة الاسطول العثمانى عام ٩٦٠/ ١٥٥٣، وكان عليه ان يقوم بتخليص السفن العثمانية الراسية فى البصرة وايصالها الى مصر، وقد قبل سيدى علي هذه المهمة فتوجه الى البصرة عن طريق حلب وبغداد فوصلها فى اليوم الاخير من صفر

٩٦١/ الثالث من شباط عام ١٥٥٤، وشرع باصلاح السفن العثمانية للعودة الى مصر، ولكن فى طريق العودة التقى بالاساطيل البرتغالية فى الخليج العربى ودارت بينهما عمليات بحرية متعددة، وكانت النتيجة ان لاقى الاسطول العثمانى الهزيمة على يد البرتغاليين واندفعت السفن العثمانية المتبقية بفعل الرياح المعاكسة الى سواحل الهند. ومن هناك اتخذ سيدى على ريس الطريق الى القسطنطينية، وقد وصلها فى رجب ٩٦٤/ مارس ١٥٥٧.

لقد وصف سيدى على هذه الاحداث جميعها فى كتابة المعروف بـ مرأة المالك، درسعادت، اقدام مطبعة سى، اسطنبول، ١٣١٣): الذى يعد من ابرز المصادر التركية لا عن عمليات الصراع العثمانى ـ البرتغالى فى الخليج العربى فى منتصف القرن السادس عشر فحسب، ولكن عن كل الجهود البحرية العثمانية فى المياه الشرقية.

لقد ترجم كتاب « مرأة المالك » من قبل المستشرق الهنغارى فامبرى تحت عنوان: The Travels and Adventures Of the Turkish admiral Sidi Ali Reis In India, Afghanistan, Central Asia and Persia, during The Year 1553 — 56 (London 1899). ولكن من الملاحظ ان هذه الترجمة تتجاوز بعض التعبيرات، التى قد تكون غير مفهومة للمترجم، مما يجعل النص الانكليزى غير واضح فى بعض الاحيان.

استفاد الميرالاى اسماعيل سرهنك فى كتابه « حقائق الاخبار عن دول البحار » القاهرة، ١٣١٢هـ، من كتاب سيدى على « مرآة الممالك » فاشار بصورة ملخصة الى عمليات المواجهة البرتغالية ـ العثمانية فى الخليج العربى فى منتصف القرن السادس عشر (انظر ص ص ٥٤٧ ـ ٥٥٠).

ولا يقل كتاب « تحفة الكبار فى اسفار البحار » استنبول، مطبعة بحرية، ١٣٢٩، لمصطفى بن عبدالله حاجى خليفة، المعروف بكاتب جلبى (ت ١٠٦٧هـ /١٦٥٦م) اهمية عن كتاب سيدى على، ذلك لانه يلقى الضوء على النشاط العثمانى البحرى فى البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى والخليج العربى ابان القرن السادس عشر: مما يجعلهما افضل مصدرين واكثرهما تفصيلا لمن اراد الكتابة عن تاريخ الخليج البحرى فى القرن المذكور.

اما المصادر العربية، بخاصة العمانية، فقد كان من المتوقع ان تمدنا بمعلومات وافية عن اوضاع الخليج العربى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بصورة لا تقل أهمية عن المعلومات التى زودتنا بها المصادر البرتغالية المعاصرة الا انها للاسف الشديد جاءت مخيبة لآمال الباحثين. ذلك لأن المصادر العمانية قد تجاهلت، وبشكل يكاد يكون تاما، احداث الغزو

البرتغالى للخليج العربى التى بدأت بظهور البرتغاليين فى مياه الخليج عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م وحتى مجيء الامام ناصر بن مرشد اليعربى عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م. ويبدو ان سبب سكوت المؤلفين العمانيين عن هذا الحدث - كما يقول سليمان محمد الغنام. (٤) - يعود الى العوامل التالية:

١ - ان اهل عمان، كما يشير السالمى (٥) لا يعتنون بتدوين الاحداث التاريخة لذاتها وانما تأتى عرضا فى سير الائمة ومناقشة القضايا الدينية كالاحكام وغيرها.

٢ - ان المؤلفين العمانيين شعروا ان الاحتلال البرتغالى لموانئهم، وما يعنيه من سيطرة ليس فيه ما يشرف فأعرضوا عن تدوينه عمدا، فى حين انهم سجلوا بشيء من الحماس وعلى الاخص المراحل الاخيرة لطرد البرتغاليين من عمان. (٦).

والملفت للنظر انه لم ترد اى اشارة فى المصادر العمانية الى البرتغاليين واحتلالهم لموانيء عمان، او اسهام امام عمان محمد بن اسماعيل فى المقاومة التى أبداها سكان هذه البلاد ضد الاحتلال البرتغالى، سواء عند بدء هذا الاحتلال او الثورات التي حدثت فى كل من مسقط وقريات وصحار وقلهات عام ٩٢٠هـ/ ١٥٢٢م، بينما اوردت المصادر الاجنبية ذلك - (٧)

أحجمت المصادر العمانية، كما اشرنا، عن ذكر احداث الغزو البرتغالى لسواحل عمان حتى مجيء الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٢٤، وبدء الصراع معهم حتى اخراجهم النهائى من مسقط عام ١٦٥٠، ماعدا بعض الاشارات التي وردت عرضا، من ذلك وصف البرتغاليين « بالجبابرة » لان « خراج » عمان قد اصبح تحت سيطرتهم. (٨) واشارة ثانية الى احتلال البرتغاليين صحار سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م (٩).

توفرت الكثير من المعلومات بعد مجيء الامام ناصر بن مرشد، ودخوله فى حروب متواصلة مع البرتغاليين، ولكن هذه المعلومات على وفرتها النسبية، نجدها في مصدر يكاد يكون واحدا، هو كتاب « سيرة الامام ناصر بن مرشد »، لمؤلفه عبدالله بن خلفان بن قيصر (١٠)، الذى كان معاصرا للامام ناصر بن مرشد اليعربى، فأرخ له وكتب سيرته.

استقصت المصادر التى تلت ابن قيصر معلوماتها عنه فيما يتعلق بالعقدين الاولين من عهد الامام ناصر، يقول السالمى (١١) فى ذلك: « وانما كتبنا فى سيرة هذا الامام مالم نكتبه فى سيرة من قبله لأن بعض اصحابه (اى ابن قيصر) قد ارخوا بعض سيرته ولم يؤرخ من مضى الا ما وجدناه فى القضايا التى يحتاج الى البحث عنها فى الاحكام ».

وواضح من مقارنة كتاب « كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة »، لسرحان بن سعيد الازكوى، ان هذا الكتاب قد

اعتمد الى حد كبير على كتاب ابن قيصر، بيد ان الازكوى قد عدل من روايات ابن قيصر المسجوعة واضاف اليها وحذف منها، ولكنه لم يشر الى مصدرها (١٢).

ومع هذا فان كتاب « كشف الغمة » (١٣) الذى استمر بحوادثه حتى عام ١٧٢٨، يعد مصدرنا الوحيد فيما يخص استعادة مسقط من البرتغاليين وطردهم منها على يد الامام سلطان بن سيف عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩ ـ ٥٠م. (١٤).

وهناك كتاب « قصص واخبار جرت فى عمان » (١٥)، الذى ينسب لابى سليمان بن محمد بن عامر بن راشد المعولى (ت بعد سنة ١٧٨٣ م). ومقارنة بين هذا الكتاب وبين كشف الغمة يظهر مدى اعتماده على الاخير لدرجة انه ينقل حرفيا عنه، غير ان هناك بعض المعلومات فى كتاب المعولى غير موجودة فى كشف الغمة. وعلى اية حال، فالكتاب مفيد عن حروب الامام ناصر بن مرشد مع البرتغاليين حتى تحرير مسقط عام ١٦٥٠ م.

ويمدنا كتاب « الفتح المبين لسيرة السادة البوسعيديين » (١٦) لمؤلفه حميد بن محمد بن رزيق، وكتاب « تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان »، لمؤلفه نور الدين عبدالله بن حميد السالمى، بمعلومات مماثلة للمصادر العمانية الاخرى، وذلك عن علاقة الامام ناصر بالبرتغاليين. كما يشترك هذان المؤلفان مع المصادر العمانية المحلية الاخرى فى كونهما لا يعدان مصدرا رئيسيا بالنسبة لنشاطات البرتغاليين المبكرة فى الخليج وغزوهم له منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى.

وما دمنا بصدد الحديث عن المصادر العربية لا بد من الاشارة الى المصادر العربية الاخرى غير العمانية واهمية معلوماتها عن الموضوع الذى تناوله بالبحث.

يعد كتاب « تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتكاليين » لزين الدين المليبارى المعبرى (المتوفى فى القرن ١٠هـ/ ١٦م)، تحقيق دى لوبز Lopes (لشبونه، ١٨٩٨)، من أهم المصادر العربية واقدمها من حيث تناوله لامتداد النفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى، وتوضيحه للاهداف الصليبية والاقتصادية التى دفعت بالبرتغاليين لاجتياز راس الرجاء الصالح. ومع ان كتاب زين العابدين هذا يمتاز بدقة الملاحظة والتحليل، الا انه لم يترك لنا الا اشارات قليلة عن الخليج العربى وجنوب شبه الجزيرة العربية.

اما كتاب « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى »، لقطب الدين النهروالى المتوفى فى اواخر العقد الثامن من القرن السادس عشر، فيزودنا بمعلومات هامة عن مجىء البرتغاليين الى الشرق، وتحركاتهم فى البحر الاحمر، غير انه لا يتطرق الى احداث

الخليج العربى بشىء.

وتجدر الاشارة هنا الى ان المصادر اليمنية، ورغم انها كتبت فى نفس الفترة التى ازداد فيها النفوذ البرتغالى فى الشرق، الا انها لا تمدنا بمعلومات هامة عن منطقة الخليج العربى. يستثنى من ذلك « الحوليات الحضرمية » التى ترجمها سيرجنت R. B. Serjent فى كتابه المشهور بـ « البرتغاليون فى الساحل العربى الجنوبى - The Portuguese of The South Arabian Coast, (Beirut, 1974).

وقد تناولت هذه الحوليات بالذكر وصول البرتغاليين الى هرمز وسيطرتهم عليها، واتخاذها قاعدة لنفوذهم فى المنطقة (ص ص ٤٣ - ٤٤). كما تطرقت الى النشاطات العثمانية ضد البرتغاليين فى الخليج العربى فى منتصف القرن السادس عشر (ص ص ١٠٩ - ١١٠).

ويبدو ان سيرجنت لم يكن على علم بنص يمنى لا يقل اهمية عن تلك النصوص التى نشرها فى كتابه المشار اليه، بخاصة وانه يتناول الفترة التى صاحبت ضعف السيطرة البرتغالية وقيام الانكليز والفرنسيين بدورهم. وهذا النص الذى سنعرض له فيما يلى هو مخطوط لمؤرخ يمنى هو عبدالله بن على بن محمد بن عبدالله بن احمد الوزير الذى توفى سنة ١١٤٧ او ١١٤٨هـ/ ١٧٣٤ - ٣٥ م ، بعنوان: طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى ». لقد نشر الاستاذ عبدالله محمد الحبشى نصوصا من هذا المخطوط باسم «البرتغاليون على ساحل البحر الاحمر: نصوص لم تنشر عن مخطوطة يمنية »، فى (مجلة العرب)، ج أو ٢، السنة التاسعة آب وايلول (١٩٧٤) ص ص ١٨ - ٣٧، على ان النصوص التى نشرت من هذا المخطوط تكاد تكون ملحقا لكتاب سيرجنت، بخاصة وان المؤرخ اليمنى قد رصد اخبار البرتغاليين وتحركاتهم حول ساحل البحر الاحمر والخليج العربى فى القرن السابع عشر.

ومما يذكر ان الاستاذ الحبشى اشار (حاشية، ص ١٨) فى النصوص التى نشرها فى (مجلة العرب، عام ١٩٧٤ بانه عرض على الاستاذ سيرجنت ما نقله من مخطوطة « طبق الحلوى » فذكر له بأنه لم يرجع اليها فى كتابه المشار اليه ولم يكن له علم بها ». ويظهر ان الباحث الانكليزى المعروف قد انتبه الى اهمية هذه المخطوطة فاعتمدها اساسا فى كتابة بحثه الموسوم « النشاط الملاحى العمانى على الساحل العربى الجنوبى » الذى قدمه لندوة الدراسات العمانية عام ١٩٨٠، ونشر فى حصاد ندوة الدراسات العمانية (١٩٨١) ج ٨ (ص ص ١١٣ - ١٣٧).

وعلى اية حال، فان البحث يعد ذا فائدة كبيرة عن النشاطات العمانية

البحرية ضد البرتغاليين فى القرن السابع عشر.

المراجع والبحوث الاجنبية.

عندما وصل البرتغاليون الى الشرق الاوسط وسيطروا على اماكن كثيرة فيه اصبح توسعهم مطمح انظار الاوروبيين الذين ارادوا ان يعرفوا سر توسع دولة البرتغال الصغيرة والسياسة التى اتبعتها فى البحار الشرقية، فراحوا ينقلون كثيرا من المدونات البرتغالية كالوثائق وكتب المذكرات والرحلات. ولعل من ابرز هذه الكتب المنقولة كتاب فريا سوسا Sousa الذى ترجم من البرتغالية الى الانكليزية ونشر فى اواخر القرن السابع عشر، كذلك ترجمت « تعليقات » البوكيرك و« رحلة تكسيرا » وما الى ذلك. وقد اصبحت هذه الكتب المترجمة الاساس الذى بنيت عليه معلومات كثير من المؤلفات التى صدرت عن الشرق عامة والخليج العربى خاصة، منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر. نخص بالذكر كتابا يحمل عنوان « تاريخ الاكتشافات والغزوات والمؤسسات التى اقامها البرتغاليون فى جزر الهند الشرقية: The History of the Discoveries, Conquests and Establishments made by the Portuguese in the East Indies", والذى نشر غفلا وبدون تاريخ تحت عنوان « التاريخ الحديث استمرارية للتاريخ العام:Modern History : Being a Continuation of The Universal History, Book XIII.

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة ذلك لأنه يحتوى على معلومات مفصلة لا نجدها فى مؤلف اخر عن تاريخ الغزو البرتغالى للخليج، ومراحل هذا الغزو خلال السادس عشر والسابع عشر. وتأتى اهمية هذا الكتاب لكونه اعتمد بالدرجة الاولى على المصادر الاصلية المؤلفة باللغة البرتغالية واللغات الاوروبية الاخرى.

اما كتاب فردريك شارل دانفرز FrederickCharles Danvers, The Portuguese in India, 2 Vols (London, 1894). فانه يعد مكملا للكتاب المذكور اعلاه. لأنه لم يقتصر على احداث الغزو البرتغالى للخليج والسيطرة عليه خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وانما تابع المؤلف تاريخ البرتغاليين حتى القرن الثامن عشر.

وقد صدر فى القرن العشرين عدد من المؤلفات الاوروبية التى نالت شهرة كبيرة لدى الباحثين فى تاريخ الخليج الحديث، وهذه المؤلفات هى كتاب صموئيل مايلز المعنون:The Countries and Tribes of The Gulf, London, 1919). الذى ترجمه السيد محمد امين عبدالله باسم « الخليج بلدانه وقبائله »، وصدرت طبعته الثالثة عام ١٩٨٦؟ وكتاب جى. جى لوريمر, « The Gazetteer of The Gulf, Calcutta, 1908 ». الذي ترجم الى

العربية من قبل مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر لقسميه التاريخي والجغرافي بعنوان « دليل الخليج ». وهناك كتاب ارنولد ويلسون « The Gulf » « London, 1928 »، الذى ترجم من قبل الدكتور عبدالقادر يوسف، ونشر فى الكويت د. ت، وصدرت له ترجمة ثانية عام ١٩٨١ من قبل السيد محمد امين عبدالله.

يعد كتاب مايلز من اوائل المؤلفات الاوروبية التى صدرت فى القرن العشرين التى تناولت احداث الغزو البرتغالى للخليج اعتمادا على المصادر البرتغالية الاساسية، فضلا عن ابرازها لدور المقاومة العربية للبرتغاليين. غير ان هناك على اية حال كتاب « دليل الخليج » للوريمر، الذى وضعه المؤلف بتكليف رسمى من قبل حكومة الهند البريطانية فى مجلدين احدهما تاريخى والاخر جغرافى وذلك فى عام ١٩٠٨، ثم اعيد طبعه عام ١٩١٥، و١٩٧٠. وقد ظل هذا الكتاب مقصورا على الرسميين البريطانيين لعدة اعوام، ولم يتح للجمهور الاطلاع عليه الا فى الخمسينات من هذا القرن. ويعد هذا الكتاب اوسع نطاقا من كتاب مايلز ذلك لأنه تناول احداث الخليج من اوائل القرن السادس عشر حتى السنوات الاولى من القرن العشرين. ومن حيث علاقته باحداث الغزو البرتغالى للمنطقة فقد جاء معتمدا بصورة رئيسية على وثائق شركة الهند الشرقية الانكليزية، والمؤلفات الرسمية الاخرى للشركة (١٧).

اما كتاب ويلسون فقد كان واحدا من ابرز المصادر الهامة عن الخليج ذلك لأن مؤلفه افرد ثلاثة فصول مستقلة عن وصول البرتغاليين الى الخليج، والصراع بينهم وبين الانكليز، وطرد البرتغاليين من الخليج. ومما يزيد فى قيمة الكتاب انه احتوى على قائمة فريدة من المصادر الوثيقة الصلة بالخليج واوضاعه، بيد ان هذا الكتاب قد خلا من قائمة المصادر تلك بترجمته العربية.

والى جانب تلك المؤلفات الرئيسية عن الخليج هناك كتاب ستر بلنك G. W. F. Stripling، المعروف بـ « الاتراك العثمانيون والعرب ١٥١١ ـ ١٥٧٤ » The Ottoman Turks and The Arabs 1511 — 1574, The University of Illinois Press, Urbana, Illinois, 1942— ومع ان هذا الكتاب قد صدر فى الاربعينات (١٨) الا ان بعض معلوماته عن المراحل الاولى للغزو البرتغالى للخليج ما زالت مفيدة جدا، كما ان مصادره عن الموضوع ذات قيمة كبيرة للباحثين.

وقد وضع عدد من المؤلفات الحديثة عن البرتغاليين وتوسعهم في الشرق وقد تناولت هذه المؤلفات تاريخ الخليج ايضا، ومن بينها كتاب سى. أر. بوكسر Boxer الموسوم « امبراطورية البرتغال البحرية ١٥١٤ ـ ١٨٢٥ »، لندن ١٩٦٩ The

Portuguese Sea-borne Empire 1415 — 1825 (London, 1969). وللمؤلف نفسه فصل بعنوان « التنافس الانكليزى ـ البرتغالى فى الخليج ١٦١٥ ـ ١٦٣٥ »، فى مؤلف جى، بريستدج المعنون: « فصول فى العلاقات الانكليزية البرتغالية »، واتفورد، ١٩٣٥ « Chapter in Anglo — Portuguese relations in the Gulf 1615 — 35 (ed) by G. Prestage (Watford, 1935), pp. 46 — 130.

وهناك كتاب ار. اس، وايت وى R. S. White Way المعنون « ظهور القوة البرتغالية فى الهند ١٤٩٧ ـ ١٥٥٠ » The Rise of Portuguese Power in India," 1497 — 1550, London, 1967, الذى تناول فيه المؤلف احداث الغزو البرتغالى المبكرة للمياه الشرقية بصورة عامة ومياه الخليج العربى بصورة خاصة.

وهنا من الضرورى ان نتذكر كتاب سونيا. ى. هاو، المعنون « فى طلب التوابل » ترجمة محمد عزيز رفعت (مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧) باعتباره من المصادر القديمة التى ركزت على التوابل باعتبارها الدافع الاساسى لتوسع البرتغاليين والامم الاوروبية الاخرى من بعدهم. بيد ان كتاب نايلز سترينز كورد Niles Streens gaard الموسوم « carracks, Cavvans and Companies (Denmane, 1973 ». يعد قفزة نوعية فى الدراسات التاريخية الاقتصادية، ذلك لان مؤلفة تابع ولمدة طويلة دراسة النشاطات الاقتصادية البرتغالية والاوروبية الاخرى فى الخليج ودوافعها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا الى عدد من البحوث والدراسات التى تناولت الغزو والسيطرة البرتغالية لانها تحفل بمادة تاريخية كبيرة عنها، قلما تتوفر فى المصادر العربية. من ذلك دراسة ستيف « Arthar W. Stiffe المعروفة بـ Ancient Trade Centres of Gulf », The Geographical Journal, Vol. X (1897). التى احتوت على معلومات قيمة عن الوسائل التى احتل فيها البرتغاليون الساحل العمانى (انظر ص ص ٦١٥ ـ ٦١٧).

وثمة دراستان عالجتا بشكل خاص التوسع البرتغالى فى الخليج العربى والمحيط الهندى خلال القرن السادس عشر، لمؤلفهما بالارد G. A. Ballard الاولى بعنوان: The War of: The Arabian Sea, **Mariners Mirror** (tan. 1925)، والثانية باسم: The Century of Portuguese Supermacy in the Indian ocean", Mariner's Mirror, Oct. 1925.

وهناك بحثان يدخلان فى عداد الدراسات الخاصة التى تعالج نشوء القوة البحرية العثمانية وتطورها فى مواجهة القوة البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى والخليج العربى، اولهما مقالة هس Andrew C. Hess

الموسومة: « نشوء القوة البحرية العثمانية في عصر الاستكشافات المحيطية ١٤٥٣ ـ ١٥٢٥ » « The Evolution of The Ottoman Seaborne Empire in The Age of The Oceanic Discoveries, 1453 ' 1525 », The American Historical Review Vol. LXXXV (dec. 1970), PP. 1892 — 1919. وثانيهما بحث ديمز M. Longworth Dames الموسوم: « البرتغاليون والاتراك في المحيط الهندي في القرن السادس عشر » « The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in The Sixteenth Century », **Journal of the Royal Asiatic Society**, Pt. I (April, 1921).

على ان البحث الثاني يمتاز بتركيزه الشديد على عمليات المواجهة البحرية البرتغالية ـ العثمانية في المياه الشرقية بشكل عام ومياه الخليج العربي بشكل خاص، وذلك اعتمادا على المصادر العثمانية الرئيسية.

على ان هناك بعض البحوث التي عالجت السيطرة البرتغالية على بعض مناطق الخليج العربي، وتابعت مراحل هذه السيطرة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، نذكر منها على سبيل المثال بحث بلكريف J. H. D. Belgrave المعنون « البرتغاليون في جزر البحرين ١٥٢١ ـ ١٦٠٢ » ـ The Portuguese in the Bahrain Islands, 1521 — 1602, Journal of the Royal Central Asian Society, Vol. XXII (1935), PP — 617 — 30.

وقد عالج الباحث نونو. دي. سلفا الموضوع نفسه في بحثه الذي ترجم عن الانكليزية الى العربية بعنوان « ملاحظات حول تاريخ البحرين في العصر البرتغالي ١٥٢١ ـ ١٦٠٢ »، ونشر في مجلة **الوثيقة** البحرينية العدد الثامن السنة الخامسة (يناير، ١٩٨٦) ص ص ١٢٤ ـ ١٣٠. ولكن الملاحظ ان الباحث استعرض احداث الغزو البرتغالي للبحرين بصورة وصفية موجزة دون تحليل للأحداث.

اما ابرز البحوث والرسائل التي عالجت علاقة البرتغاليين بعمان فهناك بحث الدكتور بارثيست R. D. Barthust المعروف بـ « التجارة البحرية وحكومة الامامة. Maritime Trade and Imamate. Government: Two Principal Themes in The history of Oman to 1728 in: The Arabian Peninsula, (ed) by Derek Hopwood (London, 1972), PP. 89 — 106.

على ان الباحث قد تناول هذا الموضوع بشكل مفصل في رسالته التي قدمها لنيل درجة الدكتوراة من جامعة اكسفورد عام ١٩٦٧ الموسومة «اسرة اليعاربة في عمان»: The Ya'rubi Dynasty of Oman", Linacre College, Oxford University, (March, 1967). فقد افرد الفصل الثالث لدراسة موضوع « طرد البرتغاليين

من الخليج »، في حين خصص الفصل الرابع لدراسة « مطاردة البرتغاليين فيما وراء البحار »، وكان جل اعتماده على الوثائق الانكليزية غير المنشورة.

والى جانب تلك البحوث لا بد من الاشارة الى بحث مانديفل J. E. Mandaville الموسوم: ولاية الاحساء العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر « The Ottoman Province of al — Hasa in The 16 and 17th Centuries, Journal of the American Oriental Society 90 (1970), PP. 486 — 513. الذي ذكر فيه كثيرا من المعلومات عن العلاقات العثمانية ـ البرتغالية في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر اعتمادا على الوثائق العثمانية غير المنشورة، وهذه المعلومات تعين الباحثين على معرفة طبيعة النشاطات العثمانية في المنطقة انذاك.

المراجع والبحوث العربية.

مما لا شك فيه ان غزو البرتغاليين لمناطق الوطن العربي في القرن السادس عشر كان بداية المرحلة الاستعمارية الطويلة التي عاني منها وطننا العربي في القرون التالية، وهي عند كثير من الباحثين المنطلق الحقيقي لتاريخ العرب الحديث. ومما يدلل على اهمية هذه الفترة وبعدها التاريخي كثرة النصوص التاريخية التي كتبها الاوروبيون عنها.

ولكن للاسف الشديد فان معلوماتنا عن هذه الفترة ظلت حتى العقود الاخيرة من القرن العشرين معتمدة بالدرجة الاولى على كتب الاوروبيين الذين وفدوا الى الخليج العربي بصورة او باخرى، وكتبوا عنه كتابات عدة سبقت الاشارة اليها مثل كتاب « الخليج العربي.. » لأرنولد ويلسون، وكتاب « الخليج بلدانه وقبائله »، لمايلز، وكتاب « دليل الخليج » للوريمر، وما الى ذلك.

وقد وضح اهتمام الباحثين العرب بمنطقة الخليج العربي في العقود الاخيرة، بيد ان معظم دراساتهم انصبت على القرنين التاسع عشر والعشرين، اما القرنان السادس عشر والسابع عشر فقد كان نصيبهما محدودا حتى صدر كتاب الدكتور بدر الدين عباس الخصوصي الموسوم: « دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الجزء الاول، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٨ » الذي عالج الفترة من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر، ولكن هذا الكتاب اعتمد في سرده لاحداث الغزو البرتغالي على مراجع ثانوية معروفة ولم يعتمد على المصادر البرتغالية والاوروبية الاصيلة. ومع ذلك فان الكتاب يلقي اضواء جديدة على موضوعات جديدة مثل دراسة القوى العربية التي نشأت في الخليج العربي خلال القرنين الثامن

عشر والتاسع عشر وظروف تطورها.

وهناك كتاب الاستاذ مصطفى عقيل الخطيب « التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣ »، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨١. وهذا الكتاب فى الاصل هو رسالة ماجستير، لذلك فقد اعتمد فيه الباحث على مجموعة جيدة من الكتب والوثائق التى لها صلة بتاريخ الخليج خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، تعد البداية للدارسين عن تاريخ هذه المنطقة.

ومن المؤلفات التى صدرت عن البرتغاليين فى الخليج كتاب نوال حمزة يوسف الصيرفى « النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى »، الرياض، ١٩٨٣، الذى نالت فيه المؤلفة درجة الماجستير من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز. وواضح ان المؤلفة ركزت بصورة اساسية على الدافع الدينى كاساس لحركة الاستكشافات الجغرافية، ورد الفعل العثمانى الدينى تجاهه. ومع ان الباحثة قد جهدت فى بيان روح المقاومة التى اظهرها اهل الخليج ضد تلك الهجمة البرتغالية الصليبية بقدر ما وسعهم الجهد، بيد ان معظم اعتمادها جاء منصبا على مراجع ثانوية ولم يعتمد الا قليلا على المصادر الاساسية التى تناولت احداث الغزو البرتغالى للخليج ومراحله.

يعد كتاب الدكتور جمال زكريا قاسم « الخليج العربى: دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوروبى الاول ١٥٠٧ ـ ١٨٤٠ » دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٥، واحدا من ابرز المؤلفات التى لها علاقة وثيقة بتاريخ الغزو البرتغالى فى الخليج، ذلك لان المؤلف قد خصص فصلين رئيسيين عن هذا الجانب وتابع افول الامبراطورية البرتغالية فى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر. وقد اعتمد الباحث على عدد غير قليل من المصادر البرتغالية الرئيسية وكتب المذكرات التى وثقت الكتاب.

ومن المؤلفات التى تطرقت بصورة مفصلة الى عرب عمان وعلاقتهم بالبرتغاليين كتاب « دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا للفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ »، لمؤلفته عائشة على السيار، (دار القدس)، بيروت، ١٩٧٥). وفيه تابعت المؤلفة نمو قوة دولة اليعاربة وقيامها بمطاردة البرتغاليين ليس فقط فى الخليج العربى وانما فى المياه الشرقية بصورة عامة.

والى جانب الكتب المذكورة هناك الكثير من البحوث المنشورة التى تناولت البرتغاليين فى الخليج من جوانب مختلفة، اولها بحث الاستاذ عبدالعزيز محمد الشناوى « المراحل الاولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية »، الذى نشره ضمن البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات

تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، قطر، الجزء الثانى، ١٩٧٦. ويمتاز هذا البحث انه يتناول تاريخ مجىء البرتغاليين الى الشرق منذ اواخر القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر، ولكن الملاحظ انه جاء بحثا استعراضيا عاما اكثر منه تحليليا خاصا.

وهناك بحث للدكتور عبدالعزيز محمد عوض باسم « الاحتلال البرتغالى لموانىء الجزيرة العربية »، **المؤرخ العربى**، العدد ٢٩، السنة الثانية عشرة (١٩٨٦) ص ص ١٧ - ٢٦، الذى عالج فيه الباحث وقائع الغزو البرتغالى لموانىء الخليج العربى فى النصف الاول من القرن السادس عشر، وعملية الصراع العثمانى - البرتغالى فى المنطقة، معتمدا فى ذلك على عدد من الدراسات وثيقة الصلة بالموضوع.

ومن البحوث التى تلقى مزيدا من الضوء على حالة الصراع العثمانى - البرتغالى بحث الدكتور عبدالوهاب القيسى المعنون « موقف العثمانيين من الغزو البرتغالى للمياه العربية »، مجلة الخليج العربي (البصرة)، المجلد ١٢، العدد ١ (١٩٨٠) ص ص ٤٥ - ٥٣. وفيه تناول الباحث اسباب المجابهة العثمانية - البرتغالية، والاحداث الرئيسية فى هذه المجابهة ونتائجها.

على ان فلسفة الصراع العثمانى - البرتغالى فى الخليج العربى خلال القرن السادس عشر قد تطرق اليها الدكتور طارق نافع الحمدانى فى بحثه الموسوم « النزاع العثمانى - البرتغالى: رؤية جديدة ». المنشور فى « دراسات عن تاريخ الخليج والجزيرة العربية »، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة (١٩٨٥) ص ص ١٨٥ - ١٩٨. وتقوم فكرة البحث الرئيسية على اعتبار أن عملية الصراع بين البرتغاليين والعثمانيين قد اتخذت مراحل مختلفة دينية وسياسية واقتصادية. ومع صعوبة الفصل بين كل مرحلة من هذه المراحل لتداخلها وامتزاجها مع احداث المرحلة الاخرى، الا انه من الممكن القول ان المرحلة الاولى فى النزاع العثمانى - البرتغالى اتخذت الصبغة الدينية على اعتبار ان البرتغاليين انتحلوا هذه الظاهرة لدعم اهدافهم التوسعية من قبل الكنيسة من جهة ولتبريرها فى الشرق من ناحية اخرى، واتخذ العثمانيون الصفة الدينية نفسها فى الرد على اهداف البرتغاليين وكسب شعور المسلمين من ناحية والدفاع عن الاماكن المقدسة والاماكن المحيطة بها من ناحية اخرى.

وبمضى الوقت اتخذ النزاع اشكالا سياسية واقتصادية على اعتبار ان البرتغاليين ارادوا ان يوجدوا لهم قواعد يستقرون فيها ويثبتون نفوذهم فى الشرق، ومن ثم عمدوا الى تحقيق منافع اقتصادية عن طريق ذلك، وكان

الرد العثماني على ذلك منسجما مع الاهداف العثمانية.

وهناك عدد من البحوث التى تناولت عمليات الغزو البرتغالى لمناطق معينة فى الخليج العربى منها بحث الاستاذ احمد العنانى الموسوم « البرتغاليون فى الخليج وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر »، مجلة **الوثيقة**، العدد الرابع، السنة الثانية (يناير، ١٩٨٤). وفيه تابع الباحث المطامع البرتغالية فى المنطقة حتى طردهم من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر. وعلى غرار هذا البحث نشرت مجلة **الوثيقة** ايضا فى عددها الاول، السنة الاولى (يوليو ، ١٩٨٢) بحثا تحت عنوان «صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين» ، تناول البحث عمليات الغزو البرتغالي للمنطقة ، وتضمن نشر عدد من الوثائق التركية المتعلقة بأوضاع البحرين (أنظر ص ص ١٤٧ ـ ١٤٩) .

ومن البحوث التى عالجت عملة مقاومة البرتغاليين فى الخليج وطردهم منه بحث الدكتور صالح محمد العابد الموسوم « تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية فى الشرق، مجلة **افاق عربية**، العدد الثالث، السنة العاشرة (١٩٨٥).

وهناك بحث اخر للدكتور صلاح العقاد بعنوان « دور العرب والفرس فى مكافحة الاستعمار فى الخليج » دراسة مقارنة »، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الرابع (١٩٨٠). وهذا البحث الاخير كما يقول الباحث نفسه « يستهدف توضيح الفرق بين الاسلوب الذى اتبعه العرب عامة، والعمانيون بصفة خاصة حينما كافحوا البرتغاليين بصورة منفردة، فى حين ان الفرس رغم قيام دولة قوية فى بلادهم كانت اوسع انتشارا من الدولة العمانية الا انهم تصدوا للبرتغاليين مستندين الى محالفات اجنبية ». (انظر ص ٥٩).

الهوامش

١ ـ بروفسور سى. بكنهجام، بعض الملاحظات عن البرتغاليين فى عمان، حصاد الندوة العمانية، سلطنة عمان، مطابع سجل العرب (١٩٨١) ص ١٨٥.
٢ ـ بكنجهام، المصدر نفسه، ص ١٨٧.
٣ ـ بروفسور سى. بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣ ـ ١٦٣٢، حصاد الندوة العمانية، المجلد الثانى (مطابع سجل العرب، ١٩٨٠) ص ٢١٠.
٤ ـ « الوجود البرتغالى فى عمان فى المصادر المحلية العمانية »، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية،(مطبعة جامعة الرياض، الرياض، ١٩٧٩)ج ٢ ص ١١٦.
٥ ـ نور الدين عبدالله بن حميد السالمى، تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان (١٣٩٤/ ١٩٧٤)ج ١ ص ٣٥٣.
٦ ـ س .ب. مايلز، الخليج العربى بلدانه وقبائله، ترجمة محمد امين عبدالله (امون للطباعة، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٦) ص ١٤٩.
٧ ـ Frederick Charles Danvers, The Portuguese in India (London, 1894), Vol. I, P. 354. الغنام، المصدر السابقة، ص ١١٧.
٨ ـ سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان « المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة »، حققه عبدالمجيد حسيب القيسى (مطابع سجل العرب، ١٩٨٠) ص ٧٧.
٩ ـ الأزكوى، المصدر نفسه، ص ٩٢.
١٠ـ حقق هذا الكتاب عبدالمجيد حسيب القيسى، ونشرته وزارة التراث والثقافة لسلطنة عمان، ١٩٧٧.
١١ـ تحفة الاعيان، ص ٢٠.
١٢ـ انظر الدكتور فاروق عمر، مقدمة فى دراسة مصادر التاريخ العمانى (بغداد، ١٩٧٩) ص ١٠٢.
١٣ـ من المعروف ان المستر روس الذى كان معتمدا بريطانيا فى مسقط قد نشر ترجمة لهذا الكتاب فى مجلة الجمعية الاسيوية فى البنغال عام ١٨٧٤ تحت عنوان «حوليات عمان » E. C. Ross, Annals of Oman by Sirhan Bin Said.

From Old days until 1728, The Journal of the Asiatic Society of Bengal, Vol. XLIII, Pt. I (1874).

١٤- الأزكوى، المصدر السابق، ص ١١١.

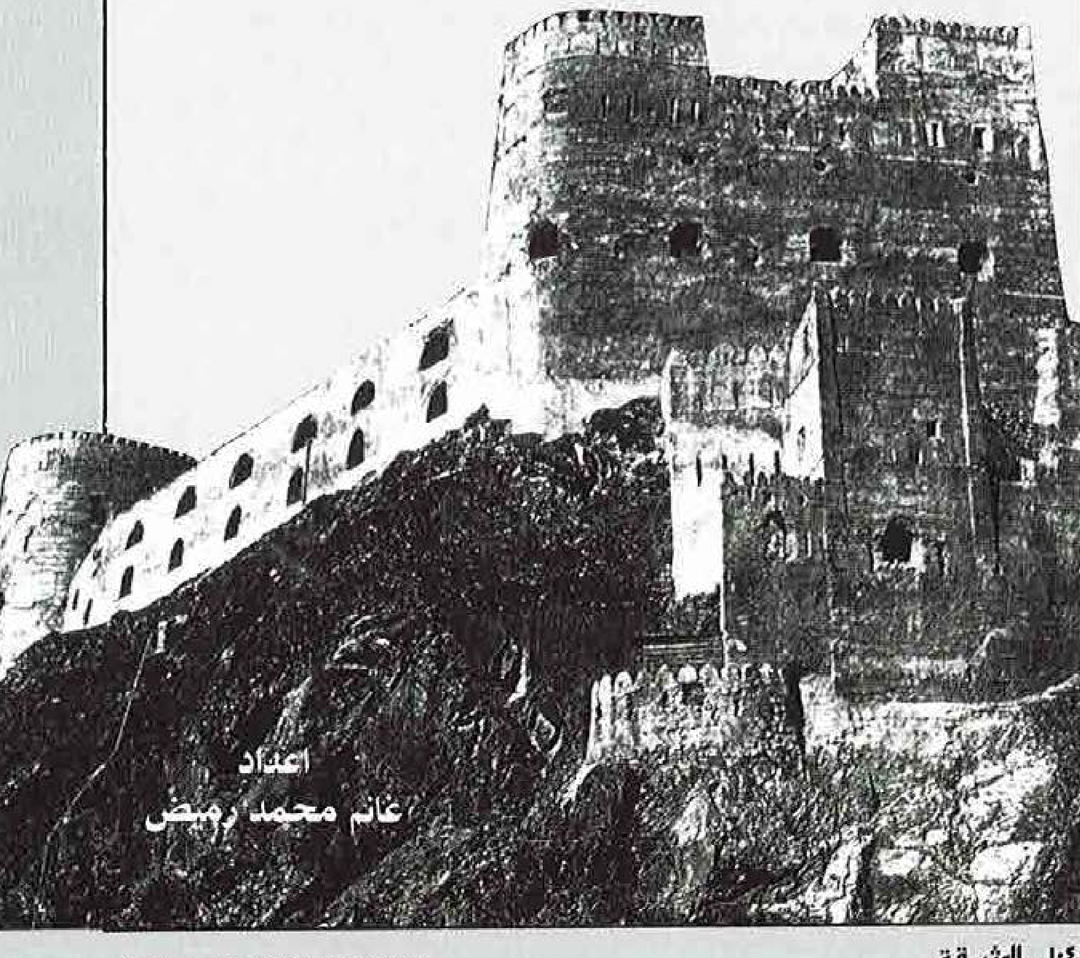
١٥- نشرت وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان هذا الكتاب عام ١٩٨٣ .

١٦- لقد نشر جورج برسى بادجر George Percy Badger، وهو احد الباحثين الثقاة في تاريخ عمان، هذا الكتاب الذى تناول تاريخ الائمة والسادة البوسعيدين حتى عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦). وقد اضاف مقدمة تاريخية تحليلة امتد بها الى عام ١٨٧١ تحت عنوان: « History of the Imams and Seyyids of Oman », by Salil Ibn Razik.

١٧- يمكن الاطلاع على المصادر العديدة التى اعتمدها المؤلف فى كتابة دليل الخليج، القسم التاريخى، ج ١ ص ص ٢٠ - ٢١.

١٨ - لقد صدرت طبعة جديدة للكتاب عام ١٩٧٨.

معركة تحرير مسقط



اعداد
غانم محمد رميض

كان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية هدفا مركزيا للامام ناصر بن مرشد (١٦٢٤/١٦٤٩) بعد نجاحه بتحقيق وحدة وطنية ارتكزت على قوة القبائل العمانية وتلاحمها[١]. وقد ادرك ان الاستقرار الحقيقي للبلاد لا يمكن أن يتحقق الا بالتخلص من الوجود الأجنبي فوجه اهتمامه صوب الشريط الساحلي، وخاض صراعا مريرا ضد الفرس والبرتغاليين ومما تجدر الاشارة اليه انه على الرغم من ان كثيرا من المصادر تحدد سقوط قلعة البرتغاليين في هرمز على ايدي الانجليز والفرس عام ١٦٢٢، على انها نقطة النهاية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي، الا ان حقيقة الامر تبدو في تحول البرتغاليين بتحصيناتهم الى السواحل الغربية للخليج، وبدأت القلاع البرتغالية في مسقط[٢] تدعم تدعيما كافيا باعتبارها القلاع الرئيسية بعد سقوط قاعدتهم الحصينة في هرمز.

شهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة في حرب التحرير تتويجا لخطة الامام في انتزاع قاعدة البرتغاليين في مسقط، فقد تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان ووصل الى مسقط في ١٦ آب ١٦٤٨ وباشر بعملية التطويق. وتواصل القتال حتى ١٠ ايلول من العام نفسه. ونجح العرب خلاله في انتزاع معظم تحصينات الميناء، كما اجبرت الحامية البرتغالية على طلب الصلح في نفس الوقت الذي كان القتال مستمرا بشكل متقطع[٣]. وقد تضمنت الشروط العمانية: اعفاءهم من دفع الضرائب على البضائع العربية في مسقط، وان يدفع البرتغاليون جزية الى الامام، ويزيلوا اسوار مسقط[٤]. الا ان القائد البرتغالي دوم جولجيار دانورنها اعتبر هذه الشروط ثقيلة جدا، ولذلك استأنف القتال، واستطاعت القوات العربية الاستيلاء على القلعتين الكبيرتين فورت كابتن ومكلا (الميراني والجلالي)[٥]، واستمر ضغط العرب باصرار متزايد ستة اسابيع اخرى على البرتغاليين مما ولد اليأس في نفوسهم، ووجد القائد البرتغالي نفسه مجبرا على التماس الصلح موافقا على الشروط العربية، وتم التوقيع على اتفاقية في ٣١ تشرين الاول ١٦٤٨، وقعها كل من سلطان بن سيف القائد العام لقوات الامام، والقائد البرتغالي دوم جوليار دانورنها[٦]، وقد تضمنت الاتفاقية[٧].

١ - يتعهد البرتغاليون بدفع الجزية بانتظام لامام عمان.

٢ - يمتنع البرتغاليون عن القيام

باية اعمال عدوانية ضد رعايا وممتلكات الامام.

٣ ـ ضمان حرية التجارة لرعايا الامام واعفاؤهم من الضرائب ورسوم الجمارك.

٤ ـ حرية السفن العربية في الملاحة والتجارة وعدم خضوعها للتفتيش في مقابل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية في طريق عودتها.

ومن الواضح جدا ان هذه المعاهدة اوضحت ان السيطرة البرتغالية لمسقط اوشكت على نهايتها، وانه من الضروري بذل جهود موحدة وقوية لتأمين طردهم منها. وان اهم ما يستلفت النظر ما نصت عليه المعاهدة باعتراف البرتغاليين بحرية التجارة في مسقط والمحيط الهندي ومرور السفن العمانية في البحر دون تفتيش، وان كان عليها ان تتزود بتصاريح من المراكز البرتغالية عند عودتها من الهند فهي بمثابة جوازات للمرور تسمح للعمانيين بالابحار بحرية مع اي نوع من البضائع والى اي من الموانيء.

اثارت انباء الحصار العربي للحامية البرتغالية قلقا كبيرا للسلطات البرتغالية في كل من لشبونة، ومستعمراتها في الهند، فقد رفض ملك البرتغال الشروط السابقة واعتبرها اهانة لشرف بلاده، وامر باعلان الحرب ضد العرب. وسارع نائب الملك في الهند الدوم فيلبى ماسكارينا الى ارسال قطعة من الاسطول لنجدة الحامية البرتغالية ووصل الاسطول الى مسقط في منتصف كانون الثاني ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التي تمت بين القيادة العربية وقائد الحامية البرتغالية [٨] وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الاسطول فوجه الاتهام الى دوم جوليار لعدم صموده امام الحصار العربي وامر بارساله الى (كوا) حيث ألقى به في السجن[٩]. كما ان الملك دوم جوا الرابع اصدر اوامره في ٤ كانون الثاني ١٦٤٩ ببذل كافة الجهود من اجل التمسك بمسقط وزيادة عدد السفن الحربية في الميناء ومنع العرب من البقاء في المدينة.[١٠] ولكن في الوقت الذي وصلت فيه الاوامر الى (كوا) كان الامر قد خرج عن ارادة البرتغاليين وكان العلم العربي يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر.

توفي الامام ناصر بن مرشد[١١] في ٢٣ نيسان ١٦٤٩ بعد ان حقق المرحلة الاصعب من مراحل ملاحقة وطرد الغزاة البرتغاليين. ويصف لنا المؤرخ انطونيو بوكارو صعود نجم الامام بأنه (جعل من نفسه منذ سبع سنوات أقوى حاكم في جميع انحاء الجزيرة العربية، بمناصرته للشريعة المحمدية التي كان من اشد المتمسكين بها)[١٢] الا أنه توفي ولم تسعد عيناه برؤية أخر جندي اجنبي يرحل عن بلاده فقد انحصر وجودهم في مسقط ومطرح.


in Arabia.

انتخاب سلطان بن سيف

ما ان اعلنت وفاة الامام ناصر بن مرشد حتى اجتمع الفقهاء والقضاة والقادة لاختيار امام جديد. وفي تلك الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها البلاد لا سيما ان معركة تحرير مسقط لم تحسم بعد كان منطقيا ان يحصل الاجماع على اختيار ابن عم الامام الراحل وقائد جيوشه سلطان بن سيف لما يتمتع به من صفات ابرزها: الحزم والجرأة والكفاءة العسكرية ويصفه السالمي بانه كان (للامام ناصر بن مرشد سيفا وكفا يبيد بها الاعداء)[١٣] وقد شهد عهده المرحلة الاخيرة من عملية التحرير فقد عاود السياسة الهجومية ضد البرتغاليين وتقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التي تكللت بنهاية مجيدة خلال أشهر تسعة [١٤].

شهدت عمان في ظل امامة سلطان بن سيف عهدا زاهرا بذرت فيه بذور التوسع المذهل الذي اعطى ثماره بعد فترة وجيزة[١٥].

قطعت عمان شأوا بعيدا في الرقي والازدهار بعد نجاحه في فتح منافذ البلاد البحرية. وقد لخص لنا ابن رزيق عهده بقوله (ان عمان اعتمرت في ايام دولته وازدهرت واستراحت في عصره رعيته ورخصت الاسعار وصلحت الاسفار وكان متواضعا رؤوفا بالرعية وكان يخرج الى الطريق بغير عسكر)[١٦] وهذا هو شأن القادة العظام.

وضع الامام الجديد الخطط الكفيلة بتطوير ودعم قوة عمان البحرية لحماية سواحلها وتجارتها البحرية ضد القرصنة البرتغالية واضاف الى الاسطول التجاري العماني عددا ملحوظا من السفن كما كان يشترك بنفسه في الاعمال التجارية[١٧] مقدما المثل لمن جاء بعده من الائمة الامر الذي جعله موضع انعقاد البعض من الوجهة الفقهية.

وفي عصر الامام سلطان بن سيف وضعت خطط عديدة لحملات بحرية بهدف مطاردة البرتغاليين وتصفية تدخلاتهم حتى في المياه الاقليمية الهندية وشرق افريقيا، الامر الذي هيأ الفرصة لحكام عمان لطرد البرتغاليين من (مومباسا). اما في داخل عمان فقد بنى الامام الجديد القلعة المستديرة في نزوى التي استغرق بناؤها اثني عشر عاما.

يذكر لنا المؤرخ العماني سرحان بن سعيد بصدد ذلك انه :

«نصب الحرب لمن بقي من النصارى بمسقط وسار عليهم حتى نصره الله عليهم وفتحها له ولم يزل يجاهدهم اينما وجدهم في بر وبحر، فاستفتح كثيرا من بلدانهم وخرب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من اموالهم فقيل انما بني القلعة التي بنزوى من غنيمة الدير»[١٨].

وادى انتعاش الموانىء العمانية وازدهارها بالحركة التجارية، الى

انتعاش مماثل شمل الاقسام الداخلية من البلاد، فنشطت حركة التبادل التجاري، وتطلب ذلك من الامام ان يوجه اهتماما متزايدا للزراعة ويوضح هذا الاموال الطائلة التي صرفها لصيانة الافلاج عماد الزراعة العمانية منذ عهود قديمة[١٩]. فقد احدث فلج (البركة) قرب (ازكان)[٢٠].

ومن الملفت للنظر ان المصادر العمانية [٢١] لا تفصل لنا في موضوع الصراع بين الامام سلطان بن سيف والبرتغاليين بالقدر الذي كتبت عن الصراعات القبلية المحلية وهو تقصير كبير في رأينا فمما لا شك فيه أن طرد البرتغاليين من السواحل الشرقية بشكل نهائي على يد الامام سلطان بن سيف يعد عملا رائعا ومفخرة قومية. ولم يكتف بذلك بل نقل ميادين القتال الى مراكز المستعمرات البرتغالية غرب الهند وشرق افريقيا[٢٢] محققا انتصارات مهمة.

معركة تحرير مسقط

اوضحت المعاهدة التي فرضها الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٨ درجة الضعف الكبيرة التي كان يعيشها البرتغاليون وان نهايتهم اصبحت وشيكة.

اعد الامام سلطان بن سيف الخطط اللازمة لمهاجمة البرتغاليين في مسقط وفي عام ١٦٤٩ باشر الامام حملته النهائية لدحر العدو:

(واستجابت القبائل العمانية بابتهاج عظيم لنداء الامام واحتشدت في (سيح الحرمل) خارج مطرح وهي مهيأة للهجوم)[٢٣].

ولا بد من ملاحظة ان بعض المصادر العمانية [٢٤] تشير الى ان الامام سلطان بن سيف هاجم مسقط لعدم التزام البرتغاليين بالاتفاقية التى فرضها عليهم الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٨. ولكن واقع الحال ان الامام كان مصمما اساسا على انهاء الوجود البرتغالي في البلاد متمما الشوط الذي قطعه سلفه العظيم.

وكان البرتغاليون قد استعدوا لصد الهجوم فبنوا ابراجا حصينة على رؤوس الجبال، وكانت الحاميات العسكرية البرتغالية مكونة من وحدات عسكرية برتغالية ووحدات هندية وصفها مؤرخو عمان بانها من ولاية (هندجوه)[٢٥]، اتخذت لها مواضع دفاعية عند اطراف المدينة ووضعوا فيها خيرة رجالهم المزودين بالبنادق والمدافع وكانوا يضربون كل من يتقدم من قوات الامام باتجاه مسقط[٢٦]. اما قلعتا مسقط الشهيرتان فقد كانتا بمثابة مقر للقيادة العامة والتموين ومدفعية الساحل والثكنة العسكرية الرئيسية في المنطقة، وقد اكمل البرتغاليون تحصيناتهما بشكل محكم[٢٧].

اتخذ الامام من منطقة (طرى الرولة) قاعدة متأخرة له وتقدم بوحداته المقاتلة الى منطقة التجمع والوثوب في منطقة (سيح الحرمل)

ومن هناك اصدر اوامره بالهجوم. وتقدمت القوات العربية واستولت على اول اهدافها وهي مجموعة تلال تسمى (بير الراوية)، لكنها جوبهت بنيران كثيفة وفي نفس الوقت لم يتمكن البرتغاليون من زحزحة قوات الامام في المطرح (٢٨).

وفي ٢٣ كانون الثاني ١٦٥٠ (٢٩) قامت قوة فدائية بهجوم ليلي مباغت، فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط ببسالة عالية واصيب البرتغاليون بالذعر والانهيار المعنوي التام، فتدافعوا الى السفن الراسية في الميناء(٣٠) والمراكز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة. واندفع العرب نحو اعدائهم ونجحوا في الاستيلاء على سفينتين كانتا راسيتين في الميناء واحاطوا بالمركز ولم يتمكن المدافعون من الصمود وانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن - الجلالي) تاركين الحرس الهنود لمصيرهم. وفي اليوم نفسه استسلم قائد القلعة فرانسسكودي تافرتا وبعد ثلاثة ايام استسلم المركز وتراجع الاسطول البرتغالي بعد ان فقد اثنتين من سفنه(٣١).

ومن المناسب ان نطلع على ما كتبه لنا الكسندر هاملتون الذي اورد لنا اقوال شاهد عيان لعملية الهجوم الاخير على مسقط:

«بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدم ضباطهم على الفور الى الهجوم على اسوار المدينة وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن تهدىء ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل اصدر امره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة اطلقها البرتغاليون عليهم من قلاعهم على المرتفعات ولكن العرب تقدموا الى امام ولم يكن بحسبانهم ان يتراجعوا ولم يبالوا بالاعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الاسوار على اشلاء من سقطوا في ساحة الوغى. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من ابواب المدينة مجبرين المدافعين على الفرار. واندفعوا خلف اعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم احد بالرغم من فرارهم باقصى سرعة باتجاه القلعة الكبيرة حيث يقيم الحاكم. وكانت القلعة مبنية على صخرة عظيمة محاطة بالبحر من كل جهاتها تقريبا. والطريق الوحيد المؤدي اليها لا يسمح لاكثر من شخصين او ثلاثة بارتقائه سوية. وادرك العرب ان اقتحامها امر مستحيل دون تضحية جسيمة ولهذا فرضوا عليهم الحصار الكامل وخسر العرب في الهجوم مابين اربعة الى خمسة الاف من رجالهم... واجبر المتحصنون في الحصون الصغيرة على الاستسلام... ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد او شرط»(٣٢).

وهكذا دخل الامام المدينة محررا وطهر القلعتين الشهيرتين وابدل اسميهما الى (الميراني) و(الجلالي)،

وعين سيف بن بلعرب واليا عليها [٣٣] اما هو فقد اسرع بقواته الى مطرح لمنازلة البرتغاليين هناك ويبدو ان قائد منطقة مطرح العسكري قد وصلته انباء الهزيمة المريرة التي حلت بالحامية البرتغالية في مسقط فخرج على رأس معاونيه ورجاله رافعا راية الاستسلام[٣٤].

وكان رد الفعل البرتغالي على الاندحار الذي منيت[٣٥] به قواتهم في مسقط سريعا فما ان وصلت انباء الهزيمة إلى نائب الملك (دوم فيلبي) عن طريق سفينة تحمل ٧٠٠ برتغالي نجحت في الهروب من مسقط الى ديو[٣٦] حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربي واصدر تعليماته الى قائد الاسطول بان يبذل ما بوسعه للحصول على مساعدة الفرس ضد العرب[٣٧] وبعد ان توقف في ميناء (كنك)[٣٨] اتجه الى القطيف، وهناك التقى بقطعة من الاسطول العماني، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين. وفشل اسطول اخر اكثر قوة من سابقه ارسله نائب الملك في اذار ١٦٥٠ لاستعادة اي من موانيء ساحل عمان[٣٩].

وبعد هذه الانتصارات الرائعة عاد الامام الى العاصمة (نزوى) واستقبل استقبالا كبيرا يليق بهذا الانتصار العظيم الذي الهب حماس العمانيين الذين لم يكتفوا بذلك، بل وضعوا استراتيجية جديدة تمثلت في ضرب مواقع العدو في غرب المحيط الهندي وشرق افريقيا وبموجب هذه الاستراتيجية كان من الطبيعي ان يعمد العمانيون الى بناء قوة بحرية[٤٠] مناسبة للمنازلة المرتقبة.

بناء القوة البحرية العمانية:

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لم تكن نهاية الصراع مع البرتغال فقد صاحب الوحدة الوطنية الجديدة في عمان انبعاث الشعور القومي ضد البرتغاليين بشكل خاص ولهذا فان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو يعد امرا حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد، فالصراع مع البرتغال هذه المرة سيكون صراعا بحريا بالدرجة الاولى حتى ان هذه الفترة اطلق عليها (حرب البحر العربي)[٤١] او حملة بحر الهند ولتحقيق نتائج حاسمة كان على العرب تطوير بناء سفنهم، وبناء قوتهم البحرية على طراز جديد وقد شكلت السفن التي اسرها العرب خلال معارك التحرير نواة الاسطول الحديث[٤٢]. وكان يتم بناء السفن والمراكب في العديد من الموانيء العمانية وخاصة مينائي مطرح وصور، اما الاخشاب بمختلف انواعها فيتم استيرادها من (ملبار) في الهند. ويتم ربط اجزاء السفينة

بواسطة الحبال التي تصنع محليا في مطرح وغيرها من الموانىء، اما الاشرعة فيتم جلبها من البحرين ويتم صنعها في صحار والموانىء العمانية الاخــرى. ويمكن تقسيم السفن العمانية من حيث حجمها ونوعها الى طبقتين تختلف احداهما عن الاخرى، فطراز (البدن) و(البغلة) مخصصة للتجارة مع الموانىء الاجنبية، بينما تستخدم الانواع الصغيرة للتجارة المحلية(٤٣) والى جانب السفن التي تصنع محليا، كانت السفن الكبيرة تصنع في سورات على نهر السند، في احواض بناء السفن التي لم يكن الاوربيون يعرفون عنها الا القليل ولم يكن لهم فيها نفوذ.

ولقد نجح العمانيون في التكيف مع الاساليب الجديدة في صناعة السفن، وقد مكنهم هذا النجاح من اتقان هذه الاساليب من خلال المراكب التي اسروها من عدوهم واستخدموها، واستوعبوها دون وسيط(٤٤). فخلال وقت قصير تحرر العرب من الاسلوب التقليدي في بناء السفن ذات الهيكل الذي تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطراز الاوربي من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة، وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبني بالواح مثبتة بالمسامير(٤٥).

واضافة الى السفن التي تم اسرها فقد نما الاسطول العربي وفق خطة بعيدة المدى وضعها العرب للحصول على كافة الوسائل التي يمكن بها مقابلة خصــومهم. واخذت القــوة البحرية اليعربية في النمو في نفس الوقت الذي تدهورت فيـه القوة البحرية البرتغالية(٤٦)، وقد اشار المبشر الفرنسي الشهير (الاب روفائيل دي مان) الذي مكث في اصفهان مدة ستة وعشرين عاما وقدر له البقاء هناك حتى مماته في ١٦٩٦، الى ما يعانيه البرتغاليون من مضايقات يثيرها عرب عمان.

«الذين نجحوا بفضل السفن التي غنمــوها من مختلف مقــارعــاتهم البحرية في الحد من قدرات وامكانيات البرتغاليين في فرض هيمنتهم على البحر»(٤٧).

وخلال حكم الامام فقد قطعت القوة البحرية في عهده شوطا بعيدا في الرقي والازدهار واصبحت (البحرية العمانية في اوج نشاطها من حيث القوة والقدرة والتجهيزات والمدفعية الحديثة)(٤٨)، وقد وصف لنا الكابتن شارلز لوكير الذي زار مسقط عام ١٧٠٦ ذلك الميناء فاشاد بتطوره:

«تحسن تحسنا مطردا منذ انتزعه العرب من ايدي البرتغاليين حتى انه اصبح مصدر قلق لكافة المتاجرين مع الهند... ان السفن الحربية كانت تصنع في سورات. وشاهدت في الميناء:

أربع عشرة سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية، وكانت تحوى احدى هذه السفن سبعين مدفعا ولا يوجد من بين هذه السفن الحربية جميعها من تحمل اقل من عشرين مدفعا... ورغم ان البارود كان شحيحا فان العرب كانوا من اكثر سكان العالم تبذيرا له وفي كافة المناسبات... لقد كانت الالوان الحمراء هي المفضلة لـديهم حيث تتجـلى في رايـاتهم وصواريهم وعارضات اشرعة سفنهم وفي كل الاماكن البارزة الاخرى من سفنهم، كما كان للاسطول العربي مظهرا آخاذا عند دخولنا المرفـأ للوهلة الاولى»[٤٩].

توفي الامام سيف بن سلطان الاول في الرستاق عام ١٧١١ بعد ان حكم البلاد حوالي عشرين عاما حافلة بالامجاد.. وخلفه في الامامة ولده سلطان بن سيف الثاني الذي شهد عهده قمة التفوق الملاحي العربي. فزاد من قوة الاسطول الذي شن بواسطته سلسلة من الغارات على المواقع البرتغالية وبعمله هذا فانه لم ينفق كل ما ادخره اسلافه من اموال فحسب بل تعداه الى اقتراض اموال الجوامع والاوقاف[٥٠] وكان عدوا لدودا للبرتغاليين والفرس[٥١] لقد اعطى الكابتن الكسندر هاملتون الذي كان في مسقط عام ١٧٢١ الوصف التالي لما كان عليه الاسطول العربي من قوة في عهد سلطان بن سيف.

«كان الاسطول العربي عام ١٧٥١ يتكون من سفينة تحمل اربعة وسبعين مدفعا وسفينتين تحملان ستين مدفعا وواحدة بخمسين مدفعا وثمان عشرة سفينة صغيرة تحمل مابين اربعة الى ثمانية مدافع لكل منها».

اما السالمي فقد قدر الاسطول العربي في الحقبة نفسها بما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما[٥٢]. وتمكن الائمة اليعاربة المتعاقبون[٥٣] وحتى عام ١٧١٨ من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوربية في غرب المحيط الهندي وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثاني من القرن الثامن عشر.[٥٤]

«وبفضل خبرتهم هذه وقوتهم البحرية فرضوا هيبتهم وسيطرتهم على كافة السواحل البحرية الممتدة من رأس قمران حتى البحر الاحمر وكان العرب غالبا مايشنون غاراتهم ضد المستعمرات البرتغالية على ساحل الهند».

الهوامش

(١) صالح محمد العابد. تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية، مجلة أفاق عربية (بغداد/اذار ١٩٨٥)، ص ٣٩.
(٢) للتعرف على تحصينات البرتغاليين في مسقط يراجع: نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان، ١ (القاهرة، ١٢٥٠ هـ)، جـ ٢، ص ٦٢. سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية في مسقط، ندوة الدراسات العمانية . وزارة التراث القومي والثقافة، (سلطنة عمان ـ ١٩٨٠) المجلد الثاني، ص ١٤٠ ـ ١٤٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.
(٥) في عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء هاتين القلعتين، وقد تم تجديد قلعة الجلالي عام ١٥٨٧، والميراني عام ١٥٨٨. انظر: احمد حمود المعمري، عمان وشرق افريقيا، ترجمة محمد امين عبدالله، (سلطنة عمان، ١٩٨٠) ص ٦٢.
(٦) مصدر السابق.
(٧) عبدالعزيز محمد عوض، الاحتلال البرتغالي لموانيء، الجزيرة العربية مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، العدد ٢٩، بغداد ١٩٨٦). ص ٢٠.
(٨) العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.
(٩) المصدر السابق.
(١٠) المصدر السابق.
(١١) توفي الامام بنزوي بعد ان دام حكمه ستة وعشرين عاما حافلة بالكفاح البطولي ولم يخلف غير ابنة واحدة هي فاطمة الزهراء توفيت بعده بستة اشهر. انظر: السالمي تحفة الاعيان، جـ ٢، ص ٥٧.
(١٢) مقتبس من: بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣ الى ١٦٣٣، ندوة الدراسات العمانية، (سلطنة عمان ـ ١٩٨٠) ص ٢١٢.
(١٣) السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٣.
(١٤) المصدر السابق.

(١٥) لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين احمد حسين، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر ١٩٧٨، ص ٩٠.
(١٦) حميد بن محمد بن زريق، الفتح المبين في سيرة السادة البو سعيديين تحقيق عبدالمنعم عامر ومرسي عبدالله، وزارة التراث القومي، (سلطنة عمان - ١٩٧٧) ص ٢٩١ - ٢٩٢.
(١٧) وزارة التراث: القومي والثقافة، عمان تاريخنا وعلماؤنا، ترجمة محمد امين عبدالله، سلسلة تراثنا، العدد العاشر (سلطنة عمان ١٩٨٠) ص ٩.
(١٨) سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة (سلطنة عمان، ١٩٨٠) ص ١٠١.
(١٩) وزارة الاعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحري، (سلطنة عمان ١٩٧٩) ص ٦٤.
(٢٠) الأزكوى، المصدر السابق، ص ١١١.
(٢١) من امثلة هذه المصادر: الأزكوى، المصدر السابق، بن زريق، المصدر السابق، السالمي، المصدر السابق.
(٢٢) جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية (القاهرة، ١٩٧٥) ص ١٠٥.
(٢٣) نفس المصدر.
(٢٤) السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٣.
(٢٥) ابن زريق، الفتح المبين، ص ٢٨٤.
(٢٦) السالمي، تحفة الاعيان، جـ ٢، ص ٦٣؛ابن رزيق، الفتح المبين ص ٢٨٥.
(٢٧) فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ، الامارات العربية المتحدة (ابوظبي) جـ ١ ص ٨١.
(٢٨) طارق نافع الحمداني، دور عرب عمان في اقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الاول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد الثالث، ١(بغداد، ١٩٨٤) ص ٢٨٠.
(٢٩) يذكر لنا مايلز تاريخين فيهما اختلاف بسيط حول عملية الهجوم واستسلام القائد البرتغالي، ففي الصفحة ١٩٣ يحدد يوم ٢٣ كانون الثاني وفي الصفحة ٢٠٧ يحدد يوم ٢٢ كانون الثاني تاريخا للهجوم العماني.
(٣٠) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، وزارة التراث القومي والثقافة، (سلطنة عمان - ١٩٨٦)، ص ١٩٣.
(٣١) العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.

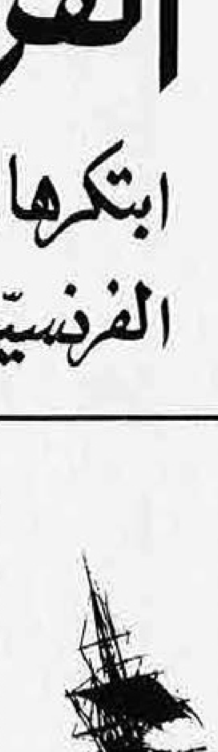
(٣٢) المصدر السابق.
وانظر ايضا العابد تحرير ساحل عمان، ص ٤٢ ـ ٤٣.
(٣٣) بن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٠٩، السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٥.
(٣٤) فالح حنظل، المصدر السابق، جـ ١، ص ٨٣.
(٣٥) ان طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ ومن مسقط عام ١٦٥٠ قد اضاع لقبين هامين من القاب ملوك البرتغال وهما (سادة الفتح والملاحة في جزيرة العرب وفارس). انظر: لوريمر، دليل الخليج القسم التاريخي، ترجمة قسم الترجمة بمكتب امير دولة قطر، (الدوحة) جـ ١، ص ١١ ـ ١٢.
(٣٦) مايلز، المصدر السابق، ص ١٩٣. لوريمر، المصدر السابق، جـ ٢ ص ٦٣٦.
(٣٧) مايلز، المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣٨) كنك: ميناء صغير يقع على الساحل الشرقي من الخليج العربي التجأ اليه البرتغاليون بعد طردهم من مسقط.
(٣٩) مايلز ـ مصدر سابق.
(٤٠) يذكر مايلز ان الامام قام بزيادة سفنه الحربية مباشرة بعد الهجوم على مسقط والحقيقة ان الاسطول العماني كان مكونا من السفن البرتغالية التي غنمها العرب بعد معركة تحرير مسقط ولا نتفق مع المؤرخة عائشة السيار بذكرها أن (الامام سلطان بن سيف تزعم حركة الجهاد ضد البرتغاليين حيث ارسل حملاته الى المحيط الهندي قبل استيلائه على مسقط). (عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان، وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ص ٧٢) اذ لا يتفق ذلك مع المنطق العلمي.
(٤١) وزارة التراث القومي والثقافة، عمان في امجادها البحرية، (سلطنة عمان، ١٩٨٠) سلسلة تراثنا، العدد الثامن، ص ٦٤.
(٤٢) لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر، (جامعة البصرة ـ ١٩٧٨) ص ٩٠:
(٤٣) مايلز، المصدر السباق، ص ٣٤١.
(٤٤) وزارة الاعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحرى، ص ٦٤.
(٤٥) روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد امين عبدالله، (سلطنة عمان ـ ١٩٨٤)، ص ٥٤.
(٤٦) السيار، المصدر السابق، ص ٦٧.
(٤٧) مقتبس من : لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٠.
(٤٨) لاندن، المصدر السابق، ص ٥٤.
(٤٩) مقتبس من : لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٢.

(٥٠) السالمي، تحفة الاعيان، جـ ٢، ص ١٠٩ مايلز، المصدر السابق، ص ٢١٣.
(٥١) مايلز، المصدر السابق، ص ٢١٣.
(٥٢) السالمي، تحفة الاعيان، ٢، ص ١٠٠.
(٥٣) سلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٧٩)، بلعرب بن سلطان (١٦٧٩ ـ ١٦٩٢)، سيف بن سلطان الاول (١٦٩٢ ـ ١٧١١)، سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ ـ ١٧١٨).
(٥٤) كاظم باقر علي، البحرية الفارسية في الخليج العربي، دراسة لواقعها البحرى ١٨٤٨ ـ ١٩٠٧، مركز دراسات الخليج العربي (جامعة البصرة ١٩٨٤) ص ص ٣٣ ـ ٣٤. المصدر السابق: ص ٢١١.

القرصنة

ابتكرها الأوروبيون وَاتهموا بها العرب

الفرنسيّون حَولوا مورديشيوس إلى وكر



يعتبر موضوع القرصنة من أكثر من المواضيع التي تثير نقاشا وجدلا حول تفسير الاعمال البحرية التي قامت بها القوى البحرية العربية المحلية ، والقوات البحرية للدول الاوربية في العصور الحديثة من تاريخ الخليج العربي ، ففي الوقت الذي كانت القوى العربية ترى فيه ضرورة استجابة الاوربيين للاعتراف بسيادتها على مياهها الاقليمية (وهذا من حقها) وبالتالي دفع رسوم المرور على السفن الاوربية المارة في تلك المياه ، وفي حالة الرفض تلجأ الى مهاجمة الرافضين الى أن يخضعوا للأمر الواقع ، كانت الدول الاوربية من جانبها تصف تلك الاعمال وتطلق عليها اسم القرصنة مبررة بذلك اعمالها العدوانية على تلك القوى العربية المحلية الناهضة .

الدكتور صادق ياسين الحلو
جامعة بغداد . كلية التربية

«القرصنة الاوربية في الخليج العربي وسواحل افريقيا الشرقية ضد القوى البحرية العربية في القرن الثامن عشر ونهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر» .

المدافعون عن مياههم وبحارهم للقرصنة في المياه العربية



وقد ناضلت القوى العربية لكي تحافظ على استقلاليتها من مسألة الصراع بين الفرنسيين والبريطانيين والهجمات البحرية المتبادلة بينهما في مياه المحيط الهندي والخليج العربي ، لكنها لم تنجح في تحقيق هذا الهدف في كثير من الاحيان لأن موانئها وسفنها تعرضت لأعمال قرصنة من هذا الطرف أو ذاك بحجة ضرورة تأييد تلك القوى وانحيازها الى أحد الطرفين . ولهذا خسرت عدداً من سفنها وبضائعها بسبب تجاهل اولئك الاوربيين لموقف الحياد العربي وبخاصة في مسقط ، ومع ذلك ظل العرب يلجأون الى الطرق الدبلوماسية

للوصول الى حل لتلك المشاكل ، بينما لجأوا في أحيان اخرى الى قوة السلاح وهاجموا اولئك المعتدين واتصفت تلك الهجمات بالجرأة والشجاعة .

وتعرض البحث الى هذا الموضوع الذي سمي القرصنة الاوربية في مياه الخليج وشرق افريقيا ويقصد بها الاعتداءات الاوربية على السفن العربية ونهبها وذلك ابتداء بالقرصنة البرتغالية في القرن السادس عشر وانتهاء «بالقرصنة الانكليزية ضد القواسم في القرن التاسع عشر .

القرصنة البرتغالية في الخليج العربي

ابتدأت أعمال الاعتداء والقرصنة الاوربية ضد السفن والاساطيل العربية البحرية التجارية والحربية منذ ان غزا البرتغاليون الخليج العربي في القرن السادس عشر وكان من أهم أهدافهم تدمير الامكانيات العربية البحرية حيثما صادفوها حتى وان كانت مسالمة وليس لها أي أذى أو مقاومة ضدهم[١]، وقد بلغ عدد السفن المدمرة اثناء تجوال الاسطول البرتغالي في المنطقة الشمالية الشرقية من المياه العمانية بالقرب من مصيره وحدها كما قدرها مايلز بين ٣٠ و٤٠ سفينة[٢] .

ولم تتوقف اعمال القرصنة للبرتغاليين ضد السفن العربية طيلة القرن السابع عشر فظلوا ينهبون حتى السفن الصغيرة في الموانىء العربية ساعين الى تحجيم القوى البحرية حتى وان كانت صغيرة الى الحد الاقصى الممكن[٣]، وقد تذرعوا بحجج واهية منها ان هذه السفن لا تحمل تراخيص من السلطات البرتغالية .

غير ان القرصنة البرتغالية لم تتمكن من ايقاف تطور نمو القوى البحرية العربية وبخاصة العمانية منها التي استطاعت ان تبرز وتنشط بشكل فاعل على المسرح التجاري والحربي في مياه الخليج العربي وكان لها شرف طرد البرتغاليين نهائيا من مياه الخليج العربي وملاحقة الغزاة الى سواحل افريقيا والهند .

عمليات القرصنة لسفن جزيرة فرنسا ضد الموانىء والسفن العربية في القرن الثامن عشر :

أدى امتداد الصراع الفرنسي ـ الانجليزي الى مياه المحيط الهندي والخليج العربي الى تعرض الموانىء والسفن العربية لهجمات قرصنية نتج عنها نهب بضائع وأسر عدد من السفن العربية تحت حجج ملاحقة كل طرف اوربي للآخر ضمن اطار عمليات نهب السفن وبضائعها المتبادلة بين فرنسا وبريطانيا .

ففي عام ١٧٥٨ دخلت بندر عباس سفينتان بريطانيتان هما Revenge الريفانج ، والدراك Drake للاستيلاء على سفينة فرنسية كانت ترسو في ميناء البصرة منذ ثلاثة شهور لتتزود

بالوقود ، وطلب ممثل شركة الهند البريطانية من حاكمها بأن يضع كل الفرنسيين في البصرة في الحجز حتى يمنـع بذلـك السفينة الفـرنسيـة البريستول (Bristol) من أسر ثلاث سفن انجليزية قادمة من الهنـد وستكون في مدخل شط العرب[٤].

وقد تطور الصراع أكثر في عام ١٧٥٩ عندما دمر اسطول فرنسي المكتب التجاري البريطاني في بندر عباس وهذا الاسطول كان يتألف من سفينتى شركـة الهند الفـرنسيـة «الكوندي» Le conde والفرقاطة الاكسبديسيون L'Expedition وقد كانتا غادرتا ميناء جزيرة فرنسا تحت أمرة ديستيان D'Estaing وعند مرورهما في مسقط أطلق ديستيان النار على سفينة تسمى الميري Le merry [٥] معتقداً انها تابعة الى الانكليز، ولكنها في الواقع كانت تابعة لشخص يدعى شلبي من تجار البصرة من الدرجة الاولى[٦]، وعند مقابلة أسقف بابل لباشا بغداد كان الباشا يذكر الأسقف «بأنه اندهش عندما علم أن اسطولاً فرنسياً نهب سفينة تعود الى أحد الرعايا الاتراك في ميناء محايد ويعود الى المسلمين «كميناء مسقط»[٧] ويبرر أسقف بابل العملية عند رده على الباشا ويقول «بأن السفينة شحنت البضائع من سورات، المدينة التي استولى عليها الانكليز من الفرنسيين وانها تحمل أوراق موقعة من الانجليز، وعندما دخل اسطولنا ميناء مسقط كانت السفينة ترفع العلم الانكليزي، كما انها أطلقت طلقات المدفعية ضد اسطولنا قبل أن تعرف بأن سفينتنا ستهاجمها»[٨].

ويبدو أن الفرنسيين خرقوا بشكل واضح حياد ميناء مسقط، فيستمر أسقف بابل بالقول «المسقطيين لم يكونوا أبدا محايدين تجاهنا فالأمير العربي الذي يحكم مسقط طرد بطلب من الانكليز السير هوكيت Hoquet ساعي البريد الذي كان يقيم في ذلك الميناء[٩] واعتدوا على سفينة بصرية فيه وبهذا العمل خرق الفرنسيون حياد ميناء مسقط والبريطانيـون خرقوا حياد ميناء البصرة.

وتكررت تلك الأعمال القرصنية في السنوات التالية ففي عام ١٧٦١ وصلت حملة فرنسية جديدة ورست في ميناء مسقط قادمة من ميناء بورت لويس Port Louis وكانت تتألف من السفينة بولون Boulogne وقارب للحماية، وتجاهل قائد البولون حياد ميناء مسقط، فهاجم فيـه احدى السفن الانكليزية[١٠].

وهكذا أصبح ميناء مسقط مسرحاً للصراع الـدمـوي[١١] الانكليـزي الفرنسي، ونتيجة لاستمرار خرق حياد ميناء مسقط من السفن الفرنسية اتخذت حكومـة مسقط في بعض الاحيان مواقف حـادة عند تلـك الهجمات. ففي عام ١٧٧٨ تابعت احدى السفن الفرنسية القرصنية سفينة انكليزية لجأت الى الميناء فما

كان من حاكم مسقط خلفان بن محمد الا أن قدم الحماية الى تلك السفينة الانكليزية، وقدم ملاحظة احتجاج الى المهاجمين (الفرنسيين) وعندما لم يرتدعو أطلق النار على السفينة الفرنسية التي قتل خمسة من بحارتها قبل أن تتمكن من الهرب.[١٢]

ولكن هذا الموقف لا يعني أن حاكم مسقط والعمانيين كانوا بجانب الانكليز «وإنما كان ذلك العمل من العادات العربية التي تقوم على حماية الدخيل والدفاع عنه بالسلاح عند الضرورة بغض النظر عن جنسيته ودينه»[١٣].

وفي هذه الفترة أيضا بدأت قوى القواسم بالبروز وأخذت زمام المبادرة في مهاجمة السفن الانكليزية التى ترفض الاعتراف بسيادتهم أو دفع ضرائب المرور مقابل الرسو في موانئهم، وقد أطلق الانكليز على تلك المقاومة المشروعة اسم القرصنة.[١٤]

وفي أثناء فترة حرب الاستقلال الامريكية، تصاعد التصادم الانكليزي الفرنسي، فانعكس ذلك سلباً حيث تبعه خرق لحياد ميناء مسقط من قبل أساطيل البلدين وبالأخص الاسطول الفرنسي.

غير أن العلاقات المسقطية الفرنسية وإن لم تقطع الا أنها شهدت مرحلة تأزم عندما أسرت السفينة المسقطية، الصالح، ونهبت بضاعتها، من قبل الاسطول القرصني الفرنسي الذي كان يقوده الكابتن (ديشتيان كالوي) (Deschiens Kalway)[١٥].

وبدأت عمليات سفن القرصنة الفرنسية التابعة لجزيرة فرنسا بالقرب من سواحل أفريقيا الشرقية والتي تتجول في السواحل الغربية للهند ومياه الخليج العربي بالعمل على ضرب وتخريب تجارة العدو (الانكليزي) وكذلك كانت تعامل كل السفن التي يشك بأنها تحمل بضائع تعود للتجار الانكليز بنفس المعاملة (للسفن الانكليزية).[١٦].

أما عن كيفية أسر سفينة الامام الصالح فيروى «ان سفينتين من سفن القرصنة الفرنسية (Corsaires) تلاقتا فى الخليج معها، وفيها بطاريتان ومسلحة بـ ٥٠ مدفعا، وهي محملة ببضائع ومنتجات هندية وكانت متوجهة الى البصرة فهاجمتها تلك السفن وسيطرت عليها ومن ثم نهبت بضاعتها»[١٧] وتعتبر شحنة السفينة مهمة جداً لأنها مرسلة الى تجار عديدين[١٨] وقد تمكن أحد أفراد الطاقم من الهرب من الاسر وأخبر الامام بالحادث.

وكان لهذا الحادث القرصني وقع مؤثر على الامام والمسقطيين لأن مسقط ليست في حالة حرب ضد فرنسا، والامام كان يحتفظ بعلاقات تجارية مهمة مع جزيرة فرنسا لذلك عندما رست احدى السفن الفرنسية في ميناء مسقط للتزود بالمياه وهي تجهل ما وقع للسفينة المسقطية أعطى

الامام الامر بالاستيلاء عليها. وبعث رسولاً الى السفن القرصنية الفرنسية التى أسرت الصالح مقترحاً استبدالها بالسفينة الفرنسية المحتجزة واسمها الفلبين «Le philippine».

غير أن الامام عاد وفضل حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية متحاشياً اللجوء الى الانتقام من السفن الفرنسية، ولهذا أطلق سراح الفلبين وطاقمها وأرسل ملاحظة الى حاكم جزيرة فرنسا (السيد دوسوياك) (Desouillaq) للاحتجاج ضد أعمال السفن الفرنسية القرصنية المتصاعدة وخرقها لحياد ميناء مسقط. كما وجه رسالة أخرى الى لويس السادس عشر عبر فيها عن رغبته بالاحتفاظ بعلاقات طيبة وقلبية مع فرنسا، لكنه طالب باتخاذ عقوبات ضد قبطان السفينة المسؤول عن حادث أسر السفينة المسقطية.[١٩]

وكان رد الملك الفرنسي ايجابياً فهو أيضاً يسعى للحفاظ على العلاقة الفرنسية المسقطية[٢٠]، وتعهدت الحكومة الفرنسية باهداء سفينة فرنسية (Le courrier d'ile de france) كتعويض للامام عن خسارة الصالح.[٢١]

لكن تلك الهدية لم تصل مسقط مطلقاً، لأنها نهبت في الطريق بفعل عملية قرصنة من السفن الانكليزية، وأصبح إمام مسقط ضحية مرة أخرى للصراع الفرنسي الانكليزي.[٢٢]

وواصل خلال هذه الحقبة الاسطول الفرنسي فعاليته القرصنية في مناطق الخليج الاخرى، مما أدى الى الاضرار بتجارة الخليج ودمرت أكثر من مئتي بارك (نوع من السفن الصغيرة) في البصرة.[٢٣]

أضرت تلك العمليات البحرية التي قام بها الاسطول القرصني لجزيرة فرنسا (مورشيوس) بصغار التجار العرب الذين فقدوا أموالهم والذين أخذوا يضغطون أكثر فأكثر على الامام ليسرع بارجاع الاموال المنهوبة.[٢٤] وبدأ الناس في البصرة لا ينظرون الى الفرنسيين الا بمنظار سيء منذ أن قامت سفن القرصنة لجزيرة فرنسا بعمليات النهب في الخليج العربي.[٢٥] وطالب تجار بغداد سلطان عمان بمنع الفرنسيين من دخول ميناء مسقط لأنهم تسببوا في فقدانهم لبضائعهم.[٢٦]

وظل سلطان مسقط ينتهز كل فرصة للمطالبة بالتعويض عن سفينته المنهوبة بعمل قرصني، الا أن التعويض لم يتم الا بعد تسع سنوات لانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية وعدم اعارتها المشكلة ما تستحق من الأهمية، وعلى الرغم من أن السفينة المهداة من الملك الفرنسي الى السلطان لم تكن كبيرة كتلك التي فقدها الامام[٢٧]، فانها أحدثت فرحا عظيما مشوبا بالعاطفة لدى المسقطيين وأفتخر الامير العربي بها، حيث شرف بالاحترام الكبير من قبل عظيم اوربا.[٢٨]

نشوب الثورة الفرنسية وتصاعد الاشتباكات الفرنسية البريطانية القرصنية في الخليج العربي:

عند قيام الثورة الفرنسية في ١٤ تموز ١٧٨٩ تجددت حدة الصراع البريطاني الفرنسي البحري القرصني، وقد قدرت الحكومة العمانية، بأن قيام الجمهورية الفرنسية ستكون له نتائج مقبولة على العلاقات مع فرنسا وستحد من أعمال القرصنة التي أقترفتها البحرية الفرنسية ضد السفن العمانية في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي. ولهذا السبب تقدمت حكومة مسقط برسالة الى القنصل الفرنسي طلبت فيها معرفة «فيما اذا كانت الصداقة السائدة بين الفرنسيين والمسقطيين تبقى دائمة، والا اذا كانت الحالة معاكسة لذلك تستطيع (الحكومة العمانية) أن تحمي بلدنا وتجارتنا»(٢٩)

وصدقت توقعات العمانيين فبعد اشتعال حرب عام ١٧٩٢ في أوربا «خرق الفرنسيون من جديد حياد مسقط»(٣٠) «وعادت شكاوي واحتجاجات المسقطيين ضد قراصنة جزيرة فرنسا الى الشرق من سواحل افريقيا الشرقية فبالرغم من الحبوب التي يأخذونها من مسقط، فالمستعمرون الفرنسيون في الجزيرة كانوا مهتمين جدا بالنهب، حتى يؤمنوا الخدمات لأن الحكومة الفرنسية بعيدة عنهم، وليس لها سلطة على هذه المستعمرة، فهم مستقلون في الحقيقة ومن جهة أخرى، لهم هموم أخرى، وعندما يأتيهم احتجاج من الامام يعرضونه على المجلس، ويظهر أن السلطان العمانى غير معروف لديهم».(٣١)

وهكذا عاد عهد قرصنة سفن جزيرة فرنسا (Corsaire)، وبدأ الحياديون وبخاصة سفن مسقط تقاسي بعنف من تلك الاعمال(٣٢)

وفي الحقيقة لم تول الحكومة الفرنسية اهتماما كبيرا بمنطقة الخليج العربي في البداية وانما أعطتها اهتماما ثانويا لانشغالها بأوضاعها الداخلية والاوربية، ولذا بدأ قلق حكومة عمان من جديد وحاولت معرفة موقف الحكومة الجديدة من الأعمال القرصنية فكتبت اليها «اذا أثبتت لنا الجمهورية الفرنسية رغبتها بعدم قطع علاقاتها معنا واذا ما أرجعت السفينتين التي نهبها رعاياها الى امام مسقط، والا في الحالة المعاكسة، اذا رغبت في قطع عقدة الصداقة، سيكون لكل واحد منا يعمل ما يحلو له من جانبه ويلائمه»(٣٣)

لم يقم العمانيون بأي عمل انتقامي ضد السفن الفرنسية بل ظلوا يأملون بالطرق الدبلوماسية لوضع نهاية لأعمال القرصنة وهددوا بقطع

العلاقات التجارية مع جزيرة فرنسا في حالة استمرارها، لكن هجمات سفن قرصنة الجزيرة استمرت ضد السفن العربية(٣٤) وأخبر ممثل الامام في بغداد القنصل الفرنسي روسو Rousseau بأن سفن الكورسير Corsaire (القرصنة) استولت على السفينة المسقطية فتح (FATH) ونهبت بضائعها التي قدرت قيمتها بـ ١٤,٠٠٠ روبية قبل قيادتها الى جزيرة فرنسا.(٣٥)

وعندما تمادت عمليات القرصنة ووصلت الى حد «قتل طواقم السفن من قبل السفن الكورسير Corsaire القرصنية»(٣٦) ردت السلطات المسقطية «بمنع تصدير الحبوب الى المستعمرات الفرنسية(٣٧).

وقد أدينت عمليات القرصنة في داخل فرنسا فقدمت لجنة العلاقات الخارجية تقريرا الى لجنة السلامة العامة تدين العمليات القرصنية التي ارتكبتها البحرية الفرنسية ضد السفن العربية مؤكدين انها ضد أخلاق البلاد المتطورة والمتمدنة»(٣٨) ومع ذلك ظل المسقطيون يستقبلون السفن الفرنسية التي كانت ترسى في ميناء مسقط استقبالا حسنا، ولم ينجرفوا الى أعمال القرصنة، فالشيخ خلفان حاكم مسقط كتب بهذا الخصوص يقول بأن «سفينة فرنسية في نفس هذه الفترة وصلت الى مسقط، لاننا ليس فقط لم نقم بأي سوء ضدها، لكننا قمنا بمساعدتها وحمايتها لأن الجمهورية الفرنسية عزيزة علينا، ونترك لها أن تعطينا العدالة التي تتوجب عليها جزاء العمليات القرصنية ضد السفن المسقطية»(٣٩)

مع ذلك تصاعدت عمليات سفن (الكورسي) السفن القرصنية الفرنسية ولم تسلم من شرها السفن العربية، وهذا ما وصفه روسو القنصل الفرنسي في بغداد لتلك الاعمال «ان ما يقوم به الجمهوريون (المستعمرون) من جزيرة فرنسا من أعمال مزعجة في كل بحار الهند، فنهبوا أكثر من ثلاثين سفينة من مختلف القوى اضافة الى اسطول مؤلف من خمس سفن وفرقاطة للتجوال، ومنذ ثلاثة سنوات في ضواحي سورات وبومباي، وكل ساحل ملبار، وبالنسبة الى معرفتي، فالكورسيرا سبق ونهبت خمس سفن انجليزية كبيرة كانت قادمة من الصين، وسفينتين انكليزيتين من البنغال، وفي منطقة الخليج العربي نهبت سفن محملة ببضائع غنية ذاهبة من مدراس الى امام مسقط، وقائدها كان انكليزيا، وسفينة اخرى عربية اكد لي ان على ظهرها ما قيمته اكثر من ٦٠٠ الف روبية من ذهب، وفي الاخير فان سفن الكورسيرا نهبت من ميناء مسقط سفينة كبيرة لشركة الهند الهولندية قادمة من بتافيا.(٤٠)

وكما هي الحالة مع السفينة المسقطية التي نهبت سابقا بعمل

قرصني لم تتوقف حكومة مسقط عن المطالبة بالتعويض عن السفن المنهوبة، وانفجر جدل بخصوص القيمة الحقيقية لحمولة تلك السفن، فالفرنسيين رأوا بأن الادعاءات العربية مبالغ فيها فانهم (الفرنسيون) يرون بأن السفن العربية صغيرة ومبنية دون حديد أي الألواح المخاطة المشدودة بالحبال».(٤١)

ويظهر من ذلك أن اللجنة المكلفة من الحكومة الفرنسية بتقدير التعويضات عن تلك السفن «تجهل بشكل عام حالة الاسطول العربي وسفنه، وتمزج في الواقع بين البارك (القارب الصغير) التي تستعمل محليا مع السفن الكبيرة التي يبنيها العرب لأغراض التجارة».(٤٢)

وفي الواقع لا توجد معلومات عما قدمته فرنسا من تعويضات الى حكومة مسقط غير أن احدى رسائل روسو الى الشيخ خلفان حاكم مسقط تؤكد استعداد فرنسا لاحترام حياد الميناء.(٤٣)

ان عدم منع القرصنة الفرنسية ضد السفن المسقطية لم يمنع من تطور التبادل التجاري بين ميناء مسقط وجزيرة فرنسا. ونظر الانجليز بعدم الارتياح لهذه الوضعية، ففي الحقيقة ليس فقط العمانيون يحصلون على فائدة كبيرة من بيع البضائع والسفن المستولى عليها من الانكليز (كما يدعون)، كما انهم (الانكليز) لم يتمكنوا من منع مسقط لأن تكون قاعدة تنطلق منها هجمات الكورسير المدمرة ضد سفن الملاحة الانكليزية في المحيط الهندي والخليج العربي.(٤٤)

القرصنة ومشكلة رفع العلم المسقطي على السفن الفرنسية والهولندية:

في عام ١٧٩٧ أخذت حكومة بومباي على ممثلي شركة الهند الشرقية في مسقط عدم تأشير الدعايات التي تقول بأن سلطان مسقط سمح للسفن الفرنسية والهولندية برفع العلم العربي (يقصد المسقطي) والتجهز بالمؤن في ميناء مسقط، وهكذا تتخلص من هجمات السفن الانكليزية ويأخذ عليهم (ممثلي شركة الهند ايضا) عدم احتجاجهم لدى السلطان على ذلك، لذا طلب السلطان بعدم السماح للأوربيين برفع العلم العربي على سفنهم في أعالي البحار.(٤٥)

ولا ننسى أن نؤشر أن الوجود الفرنسي كان فاعلاً بمنطقة الخليج العربي في نهاية القرن الثامن عشر فللفرنسيين علاقات تجارية مزدهرة مع مسقط والبصرة وهذه التجارة كان يمكن أن تتطور اكثر لو تجنبت السفن الفرنسية مهاجمة السفن العربية ونهبها.(٤٦)

لذا سعت انجلترا لتقوية جهدها السياسي في مسقط فالانكليز تخوفوا من السلطان وشكوا بأنه يهاجم

السفن الانكليزية لحساب الفرنسيين وهذا ما كتبه مهدي علي خان (مبعوث حكومة الهند الى فارس) ممثلهم في بوشير فيذكر «لدى أسباب كثيرة تجعلني أشك ان الفرنسيين يستخدمون السفن التي تقوم بالتجارة بين مسقط وخليج البنغال والتي اعتقد أن عددها ارتفع من سبعة الى ثمانية»(٤٧)

ومن جهة أخرى اعتقد الانكليز أن السلطان لم يحتفظ بحياده تجاه النزاع الانكليزي الفرنسي في الخليج والمحيط الهندي، فالتجار المسقطيون يشترون البضائع وحتى السفن المأسورة من الفرنسيين، واضافة الى ذلك أن أحد الاسباب لفشل الحصار الانكليزي ضد جزيرة فرنسا هو الاحتفاظ بالعلاقات التجارية بين الجزيرة ومسقط.

ومما زاد من الشكوك الانكليزية أن سلطان بن أحمد، بعث برسالة الى دنكان (حاكم الهند) أصر على حياده ويشرح له فيها رفضه مهاجمة السفن الفرنسية فيقول «انتم تعلمون بأنه لا يوجد بينهم (الفرنسيين) وبيني أي تقارب لكن أخذين بالحساب النقل البحري مع الهند والاتصالات العديدة مع السفن الفرنسية التي تسير بهذا الاتجاه لا أستطيع اعلان الحرب عليهم بشكل مفتوح، وذلك حتى لا تتحطم تجارة رعاياي الذين يتعاملون بشروط جيدة معهم. اذا اعتقدتم بأنه يجب اعلان الحرب على الفرنسيين فيجب أن تعرفوا بأننا سنكون مضطرين لاستخدام كل سفننا التجارية للدفاع عن زنجبار ومسقط وجانبي الخليج».(٤٨)

وهذا الموقف تلاءم بشكل تام مع جهود ماكلون (Magallon) (حاكم جزيرة فرنسا) الذي دفع باتجاه بقاء مسقط على الحياد ومن هذه الفترة وظهر ذلك عندما «اسرت سفن الكورسير الفرنسية ثلاثة سفن مسقطية: الاحمدي، المصطفى، والفضل عيلام، فرفض ماكلون الاعتراف بهذا الاستيلاء، فكلف دليل السفينة شاتوفيل ليقود تلك السفن الى الهند لارجاعها الى الامير العربي وفي مارس ١٨٠١ ظهر شاتوفيل Chatouville أمام مسقط على ظهر الاحمدي وهو يحمل رسائل بتعليمات مناسبة.(٤٩)

مناقشة حجج عمليات القرصنة البريطانية ضد القواسم في القرن التاسع عشر:

ان تطور القوى البحرية العربية اقلق بريطانيا التي وجدت فيها تهديدا لمصالحها في المنطقة، فالانكليز لم يريدوا بأي ثمن رؤية قوة عربية تتنافس مع قواتهم على طريق مستعمراتهم الهندية حتى وان كانت تلك القوى تمارس تجارة عادية. فكان عليهم اذن عاجلاً أو أجلاً الدخول في

صراع مع القواسم الذين يمتلكون اكبر اسطول عربي مهم يقاوم محاولاتهم للهيمنة، كذلك كانت بريطانيا في نفس الوقت تواجه البحرية الفرنسية لتتخلص من المنافسة الاجنبية في مناطق النفوذ هذه.

ولاجل بلوغ هذا الهدف اي ضرب القوى العربية البحرية، كان على الانكليز ايجاد غطاء لذلك فاخترعوا مسألة ما يسمى بالنضال ضد القرصنة، فأطلقوا على أعمال تصدي القواسم وكعب وغيرهم للسفن الاجنبية التي ترفض الاعتراف بالسيادة العربية على مياههم الاقليمية اسم القرصنة فكان «ضرورة القضاء على القرصنة أحد الحجج، المقبولة كغطاء للتدخل في شئون كل الدول الصغيرة لساحل بحر عمان. فالعرب لم يظهروا أقل حماسة في نهب السفن فهي مثل القوافل من وجهة نظرهم، فالبحارة الهندوس كفره والملاحين الاوربيين غير مؤمنين»، كما كتب أحد الرحالة الفرنسيين.(٥٠)

وفي الواقع لا نستطيع أن نطلق اسم القرصنة على الهجمات التي شنها القواسم ضد السفن الحربية أو المدنية التي ترفع العلم الانكليزي أو الأمم الاخرى لأنهم يدافعون عن أراضيهم. «في حين أن القراصنة هم أولئك الذين يهاجمون السفن او الجزر في أعالي البحار».(٥١)

ومن جانب آخر فان المعنى السياسي للدولة لم يكن بعد قد تطور لدى القوى العربية والحروب تركت آثارها بين مختلف القبائل العربية على ضفتي الخليج فكل واحد يهاجم سفن الاخر، وكان المؤرخون الغربيون لا يفهمون تلك الحروب ولذلك اطلقوا عليها مصطلح قرصنة.(٥٢)

وكمثال على تلك الاحداث ما زودنا به الصراع في ذلك العصر بين العمانيين والقواسم والذي حوّل الخليج الى ساحة معركة حقيقية ونتج عنه الاستيلاء على بعض السفن البريطانية، فالانكليز سموا ذلك قرصنة بدون أن يأخذوا بنظر الاعتبار أن سفنهم كانت تمر من خلال منطقة حربية.(٥٣)

وبمهاجمتهم للسفن التجارية تصور القواسم بأنهم يقومون بعمل مهم يشبه الى حد ما الغزو لدى البدو.(٥٤)

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر اتخذت نشاطات القواسم البحرية طابعا دينيا واعتبرت أعمال مهاجمة السفن نوعا من الجهاد (حرب مقدسة) واعتبروا ما يستولون عليه من بضائع كغنائم الحرب يعطي خمسها الى الشيخ، فعندما كانوا يسيطرون على سفينة انكليزية كانوا يغسلونها ويطهرونها بالمياه.(٥٥) ثم يقودون أعضاء طاقمها الواحد بعد الآخر الى مقدمة السفينة ليقطعوا رؤوسهم تحت هتافات (الله أكبر).(٥٦)

ولم يكن القواسم وحدهم يمارسون القرصنة فالانكليز والفرنسيون أنفسهم مارسوها الواحد ضد الآخر في مياه المحيط الهندي والخليج العربي.(٥٧) وخصوصاً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وسنوات العشرينات من القرن التاسع عشر ونفس الحالة بالنسبة للقوى الامبريالية الاروبية الاخرى، وهكذا فبين ١٨٠٣ و ١٨٠٩، استطاعت فرنسا من خلال عمليات القرصنة أن تنهب ما قيمته بحدود ١٥,٠٠٠ طن من البضائع تعود الى شركة الهند البريطانية.(٥٨)

ان هجمات القواسم ضد السفن الانكليزية كانت بسبب رفض الاخيرة دفع ضرائب الكمارك في الموانىء القاسمية، وكان هدف القواسم القضاء على الاحتكار التجاري الذي يمارسه الاجانب في الخليج العربي،(٥٩)، وهذا ما رفض الانكليز الاقرار به لأن الخليج يقع على الطريق بين أوربا والهند، لذا مارست بريطانيا ضغطاً على التجار الهنود الذين يقيمون علاقات مع الخليج للشكوى ضد القواسم.

فالانكليز أنفسهم كانوا يعتبرون عمليات القرصنة التي مارسوها ضد السفن الفرنسية شرعية سواء كانت تعود الى أشخاص أو الأسطول الحكومي.(٦٠)، لأن تلك الاعمال أجيزت من الحكومة البريطانية بهدف أضعاف قوة منافسة، والفرنسيون من جانبهم طوروا من تلك التبريرات (التفسيرات)، فنشاط القواسم أذن اعتبر نوعا من القرصنة لأنه لم يجز من قبل حكومه لكن في بعض الحالات يمكن اعتبار القبيلة كيانا سياسيا رسميا، وعلى هذا الاساس تعتبر الهجمات العربية كأفعال حربية بحرية تهدف منع الاوربيين من اختراق منطقة النفوذ العربي.(٦١)

وفي هذه الفترة ولدت الامارات العربية الصغيرة ففي ١٨٠٦ عقد الانكليز اتفاقية مع القواسم، وفي عام ١٨٢٠ عقدت بريطانيا اتفاقية بحرية معهم وهذا يدل على اعترافها بأنهم يشكلون سلطة من الممكن أن يتعاملوا معها على المستوى العالمي، كما أن مفهوم الامة لم يكن ناضجاً في المنطقة وبذلك لا يمكن اطلاق كلمة قرصنة على الاعمال البحرية التي تقوم بها سفنهم.

ومن جانب آخر فان القواسم كانوا يتعاملون بقسوة مع السفن والبحارة الانكليز أكثر من تعاملهم مع الفرنسيين، وفي هذا الصدد يروي بأن سفينتين من سفن جزيرة فرنسا كانتا تحملان بضائع وإحداهما كانت مسلحة وهاجمتهما سفن قاسمية في رأس الحد ونهبت شحنتهما وجلبوا بحارتهما (طاقمهما) الى اليابسة ولكن بمجرد أن عرف القواسم بأنهم فرنسيون أعطوهم حريتهم (٦٢) وهذا دليل على أن القواسم يفرقون بين العدو الحقيقي الانكليزي وأولئك الذين

هم ليسوا في حالة حرب معهم.

فبدل أن يتوجهوا الى القواسم بشكل سلمي ويعرضوا عليهم مطالبهم، لجأ الانكليز الى العنف، ومراسلات شركة الهند الشرقية تدل بوضوح على انها أرادت القضاء على المنافسة العربية في طرق الاتصال التجاري بين الخليج والهند وأفريقيا الشرقية.(٦٣)

وفي الواقع تعتبر منطقة الخليج لبريطانيا منطقة منفعة أساسية انطلاقاً من حقيقة انها تشكل سلسلة هامة لطريق التجارة الشهير الى الهند، العصب الحيوي للامبراطورية البريطانية، ويجب التذكير بأن أحد المرتكزات الاساسية للسياسة البريطانية هو ضمان الاتصالات الامبريالية بين لندن، التي هي رأس الامبراطورية والهند التي هى القلب، فاليوم الذي تقطع فيه انكلترا عن الهند سيكون بدون شك نهاية العظمة البريطانية، ولهذا السبب عملت انكلترا على تركيز نفوذها فى كل المناطق التي يمر منها الطريق إلى الهند.(٦٤)

ولهذا ايضا غزت بريطانيا المنطقة عسكريا ووجهت ضدها الحملات العسكرية البحرية في أعوام ١٨٠٦ ـ ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ و ١٨١٩ و ١٨٢١، تحت ستار القضاء على القرصنة في حين انها استهدفت بالدرجة الأولى القضاء على النشاط البحري للقوى العربية وتدمير أساطيلهم البحرية، وبالوقت الذي كان فيه القواسم يتصدون للقرصنة والغزو البريطاني للخليج العربي وقفت فارس بجانب الانكليز وأيدت أعمالهم العدوانية، واكد ذلك المبعوث البريطاني هارفرد جونز (Harvard Johnes) الى البلاط الفارسى فقال «ان الشاه ايد الحملات البريطانية ضد عرب الخليج، وعندما اخبره جونز بالنجاحات التي حققها اسطول شركة الهند البريطانية ضدهم اجاب بارك الله هذا عمل شجاع»(٦٥)

عمليات القرصنة الفرنسية والبريطانية الاخرى في الخليج العربي وسواحل افريقيا الشرقية حتى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر:

حاولت الحكومة الفرنسية في القرن التاسع عشر تقوية علاقاتها مع مسقط لأن نابليون لم يتخل عن مشاريعه لضرب المستعمرات البريطانية في الهند ولهذا كان يحتاج الى تقوية العلاقات مع الحكام المحليين على طريق الهند، اضافة الى الموقع الاستراتيجي المهم لمسقط. وتتضح تلك الرغبة فيما جاء بتعليمات القنصل الفرنسي كافيناك (Cavaignac) المرسل الى مسقط حيث اكدت تعليماته

على «تطمين الامير العربي بأن ينتظر عدالة الحكومة الفرنسية وانه سينظر في احتجاجاته والحقيقة أن الاحداث ستفهم بشكل كامل، ونعرف بأن عدد من السفن المسقطية (التي نهبت بضائعها وقدرت بكميات هائلة قامت بنهبها سفن الكورسير لجزيرة فرنسا، وقد أدينت تلك العمليات من محكمة الجزيرة».(٦٦)

وكانت تعليمات ديكان (حاكم جزيرة فرنسا) الى كافيناك تؤكد على نفس الموضوع حيث جاء فيها «اعطاء سلطان مسقط التقدير والاهتمام بارسال شخص منتخب لاعادة العلاقات الخاصة التي لم تتدهور أبدا بين الفرنسيين الذين يأتون الى السواحل العربية وسكانها الا بسبب سفن الكورسير التي بقيت بعيدة عن الرقابة».

وأشارت تعليمات ديكان أيضا الى كافيناك «ابدأ علاقاتك مع الامام باعطائه اثبات عن تصور حكومة فرنسا تجاه القرصنة التي تمارس ضد تجارة الأمة والتي لا تريد معها الا علاقات الصداقة، وانت مكلف بشكل خاص لجمع المعلومات والتلويح بأنه سيتم التعويض اذا ما ثبت ذلك».(٦٧)

وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام من الحكومة الفرنسية لم تتوقف سفن الكورسير الفرنسية التي استمرت ترسو في ميناء مسقط للتزود بالوقود، من مهاجمة السفن الانكليزية التي تلاقيها في الخليج العربي.(٦٨)

وبسبب من تلك الاوضاع اقترح المقيم الانكليزي في بوشير على حكومة الهند تأمين الحماية للتجارة الانكليزية وحراسة كل سفينة تجارية بسفينه حربية.(٦٩)

ومن جانب آخر ازدادت الاشتباكات وأعمال القرصنة البحرية بين السفن الانكليزية والفرنسية في هذه الحقبة، وقد قدرت الاضرار التي نجمت عن أعمال الهجوم القرصنية تلك بين عام ١٧٩٣ ـ ١٨٠٤ بـ ٣٠٠ الف ليفر استرليني.

والجدول التالي يوضح عدد «السفن التي نهبت من الفرنسيين أو الانكليز في المحيط الهندي والخليج العربي بين ١٧٩٣ ـ ١٧٩٧».(٧٠)

السنة	سفن بضائع سيطر عليها الفرنسيون من الانكليز وعددها	سفن بضائع سيطر عليها الانكليز من الفرنسيين وعددها
١٧٩٣	٢١٦	٦٣
١٧٩٤	٥٢٧	٨٨
١٧٩٥	٢٠٢	٤٧
١٧٩٦	٤١٤	٦٣
١٧٩٧	١١٤	٥٦٢
المجموع	١٤٧٣	٨٢٣

ويبدو ان العمانيين كانوا يستفيدون من عمليات القرصنة المتبادلة بين البريطانيين والفرنسيين، فثمرة تلك العمليات كانت جلب تلك السفن المستولى عليها قرصنيا وبضاعتها وبيعها في جزيرة فرنسا فكان «عرب مسقط يجدون في هذه العمليات (عمليات البيع) وقسم من المواد الغذائية سوقاً مفتوحة للمضاربة(٧١)، فالسلطان والتجار العمانيون كانوا يحتفظون بممثلين في بورت لويس مكلفون بشكل خاص بشراء تلك المنهوبات التي ترسل لاحقاً الى موانىء الخليج العربي، وحتى الى كلكتا لتباع هناك ثانية»(٧٢)

لقد غالى الطبيب والفيزيائي الايطالي ميروزي Muruzi الذي كان يقيم في مسقط عام ١٨٠٩، كطبيب خاص للسلطان فذهب الى حد القول «بأن غالبية سفن البحرية العمانية ذات الحمولة من ٣٠٠ الى ٧٠٠ طن كانت سفنا انكليزية نهبت من قبل الفرنسيين تم شراؤها من المسقطيين في جزيرة فرنسا».(٧٣)

والواقع ان هذا التفسير ينطبق مع وجهة نظر الانكليز التى أرادت الضغط على سلطان مسقط لجعله يتخلى عن موقف الحياد ويقف الى جانب انكلترا في صراعها ضد الفرنسيين.

أن تصاعد الاعمال القرصنية الفرنسية أقلق الانكليز اكثر فأكثر، فالقبطان وود (Wood) قائد سفينة الحرب كونكورد (Concorde) التي كلفت بالتجوال والحراسة في الخليج مع السفينة كورنواليس Cornwallis قدم تقريراً في ٧ تشرين الأول ١٨٠٤ الى مسؤوليه ليجلب انتباههم حول الخطر الذي تشكله حالة القرصنة سواء بالنسبة للنقل التجاري والمراسلات الانكليزية.(٧٤)

ومن الامثلة على عمليات القرصنة المتبادلة بين السفن الفرنسية والانجليزية في منطقة الخليج العربي ما حدث في تشرين الاول ١٧٩٩ فتقابلت السفينة الملكية (Tricomali) تريكو مالي مع السفينة الفرنسية الافيجين (Ephigenie) ونتج عن الاشتباك تدمير السفينتين بعد وقوع انفجار في السفينة الانجليزية (Tricomali)، وفي عام ١٨٠٤ نهبت سفينة الحرب الفرنسية (Lafortine) الحظ، السفينة الانجليزية (الطائر) فلاي (Fly) التابعة لشركة الهند الشرقية (٧٥) وقادتها الى بوشير ومن جانب اخر لم تكن هذه أولى السفن التى تقاد الى هذا الميناء (٧٦) فثلاث سفن اخرى على الأقل لاقت نفس المصير بين أيلول وتشرين الثانى عام ١٨٠٤ (٧٧) وعندما علمت حكومة بومباى بخبر الاستيلاء على الفلاى (Fly) أرسلت الملازم كورت الذي

سبق أن شارك بعمليات بحرية داخل الخليج ليحاول ارجاع السفينة المنهوبة لكن قبل مغادرته وصل خبر الاستيلاء على السفينة الفرنسية لافورتين (Lafortine) في شهر تشرين الثاني بواسطة السفينة الانجليزية الكونكورد (٧٨).

ولعل الشيء المهم الملاحظ على هذه العمليات البحرية أن تأثيرها لم يظل محدودا ومقصورا على سفن الدول الاوربية وانما أمتد تأثيره بشكل قرصنة ضد السفن العربية التي لم تكن داخله في حرب مع أي من البلدين، فقامت سفينة فرنسية كانت تتجول مقابل مسقط بمهاجمة «سفينتين عربيتين بالقرب من هذا الميناء» (٧٩).

ولم يقتصر التأثير السلبي للصدامات الفرنسية البريطانية البحرية على مهاجمة السفن العربية فقط اذ كان يقود قسم منهم السفن المنهوبة وبضائعها الى الموانيء العربية وهذا ما يثير سلطان الطرف الثاني ضد العرب ويتهمونهم بالتواطؤ مع هذا الطرف أو ذاك. ففي شهر آب من عام ١٨٠٥ استولت السفينة الفرنسية بيل بول (Belle Poule) على السفينة الانجليزية (Endeavour) أنديفور وقادتها الى مسقط (٨٠) وهذا أثار من جديد سلطات بومباي وذهبت الى حد اعتبار ميناء مسقط قاعدة للسفن الفرنسية تهاجم سفنها (الانجليزية) منها، وقاعدة لتموينها وسوقا لمنهوباتها(٨١).

وفي الحقيقة كان الانجليز يطلبون من سلطان مسقط تحقيق ماهو مخالف للقانون وفوق طاقة الحكومة المسقطية فلا توجد اتفاقيات معقودة بين الانجليز والسلطان يتعهد فيها بمنع رسو السفن الفرنسية في موانئه.

عادت الصدامات مرة اخرى بشكل كبير بين السفن الفرنسية والانجليزية في منطقة الخليج العربي اثناء حكم سيد سعيد، واقتربت اكثر فأكثر من المياه الاقليمية المسقطية، وفي بعض الاحيان كانت تقع في ميناء مسقط نفسه. ولكن في هذه المرة كان الفرنسيون يشكون الى سلطان مسقط هجمات الانجليز ضد سفنهم في حين انه في المرات السابقة كان العكس. ففي ٢٦ تموز ١٨٠٦ كانت سفينة الكورسير الفرنسية (Le vigilant) الفيجلانت في ميناء مسقط تتزود بالمياه والمؤن عندما ظهرت الفرقاطة الانجليزية (الكونكورد) (Concorde) وهاجم البحارة الانجليز البحارة الفرنسيين الذين كان قسم منهم في سفن عربية صغيرة بالقرب منها، بعد أن رفضوا طلب أحد موظفي السفينة الانجليزية بتسليم مفاتيح مخازن السلاح في السفينة الفرنسية(٨٢).

ولم يكتف قبطان السفينة الانجليزية (الكونكورد) بذلك، بل تقدم الى السلطان يطلب منه اعطاء

الامر الى السفينة الفرنسية بمغادرة ميناء مسقط خلال أربع وعشرين ساعة، لان الخدمات التي قدمت لها، تشكل خرقا للاتفاقيات المعقودة بين مسقط وانجلترا، وتضع علامة استفهام على حياد مسقط (كما قال القبطان الانجليزي).(٨٣).

بعد هذا الانذار أعطى السلطان أمرا مباشرا الى السفينة الفرنسية (الفيجلانت) بمغادرة الميناء وعند خروجها من الميناء أعترضتها السفينة الانجليزية على بعد ٩ أميال (٨٤) واستولت عليها دون مقاومة لانها لم تتمكن من التزود بالوقود من مسقط(٨٥).

ولخشية سيد سعيد (أمام عمان) من رد الفعل الفرنسي ضد السفن العمانية (لان جزيرة فرنسا كانت مركزا لسفن الكورسير القرصنية ويخشى أن تهاجم السفن المسقطية)، أرسل مبعوثا الى حاكم جزيرة فرنسا لتسوية المشكلة وشرح الحادث الذي وقع أثناء غيابه واثناء الاضطرابات في مدينة مسقط.(٨٦).

ثم كتب الامام بعد ذلك الى دنكان (رئيس حكومة بومباي) محتجا ضد ما قام به قبطان (الكونكورد) وطلب أعادة الفيجلانت، وقد اعترف دنكان بأن حجة قبطان السفينة الانجليزية القانونية لم تكن مقنعة لكن دنكان عندما كان يقدم شرحا الى رئيس محكمة بومباي الذي يحكم بقضية الفيجلانت ذكر للقاضي بان الحكومة (حكومة بومباي) ستكون في وضع رسمي حرج في حالة مصادرة السفينة، غير أن هذا القاضي ظل يرفض أن يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر دنكان وأكد للحاكم أنه يعتبر الفيجلانت غنيمة حرب.(٨٧).

ولم يكن سلطان مسقط مخطئا لتحوطاته، ففي الواقع بعد بضعة أشهر تعرض الاسطول المسقطي لخسائر كبيرة، فالسفينة الفرنسية البيومنتيز (Piemontaise) اعترضت بالقرب من خليج البنغال ثمان سفن ونهبت حمولتها وبضائعها وعندما اعترض المسقطيون على هذا العمل رد قبطان السفينة (الفرنسية) بأن الصداقة بين فرنسا ومسقط قطعت منذ أن رفض السلطان استقبال كافيناك، ومنذ أن عوملت السفينة الفيجلانت معاملة سيئة(٨٨) واضاف كذلك بانه استلم امراً للانتقام من الاستيلاء على الفيجلانت(٨٩).

وخشية من ثأر الفرنسيين، قرر سيد سعيد ارسال مبعوث الى بومباي يحمل رسالة الى دنكان، وفي هذه الرسالة يشتكى السلطان من موقف البريطانيين منه. واقترح عليهم أما أن يتكفلوا بحماية السفن المسقطية وأما أن يعيدوا سفينة الفيجلانت (الفرنسية)(٩٠).

يئس سيد سعيد من وصول جواب على رسالته من دنكان فأرسل مبعوثا الى حاكم جزيرة فرنسا، وهو يحمل رسالة اكد فيها مساعيه السابقة لدى

السلطـات الانجليـزيـة في الهنـد لاستعادة السفينة الفرنسية وأمله في استعادتها»[٩١].

غير أن حاكم جزيرة فرنسا أوقف المبعوث المسقطي وحجز سفينته في ميناء نابليون، ولكنه سمح لقسم من الطاقم بالمغادرة بعد أن أعطاهم رسالة الى السيد سعيد. «احتج فيها ضد المعاملة السيئة التى عانى منها الفـرنسيون عنـد الاستيلاء عـلى الفيجلانت، وضد مقتل قبطان أحدى السفن الفرنسية، وطلب بأن تعاد السفينة الفرنسية المأسورة وطاقمها، ويجرى معاقبة قتلة القبطان شتلان، وارسال ممثلين لديهم صلاحيـات كاملة للتفاوض على ما يرضي فرنسا وما لها من حقوق» [٩٢].

ويبدو أن الرسالة تركت اثرها على السلطان فكتب من جديد الى حكومة بومباي بأعادة السفينة الفرنسية، وتعجب من عدم استلام اي جواب على رسائله السابقة بهذا الخصوص.

ولم يأت الرد من حاكم بومباي الى السلطان حتى نيسان عام ١٨٠٧ ومما جاء فيه «ان حكومة بومباي ترى من الافضل أن تعتمد مسقط موقف الحيـاد من الصراع الانجليـزي الفرنسي، وبالنتيجة ترى بأن من غير المناسب أن يكون لمسقط علاقات صداقة حميمة مع فرنسا[٩٣].

استمر سلطان مسقط في سعيه لحل مشكلة السفينة الفرنسية كي لا تتعرض سفنه لقرصنة جديدة، فوصل مبعوث الى ميناء نابليون في ٢٠ مايس (مايو) ١٨٠٧ مع سفينتين [٩٤]، واكد المبعوث المسقطي الجواب السابق وهو أن حادث السفينة وقع أثناء وجود الامام خارج الميناء، أما بالنسبة لقاتل القبطان الفرنسي فانه غادر مسقط قبل أن يعرف أحد بجريمته ويوجد الان خارج اطار سلطة امام مسقط»[٩٥].

وخلال فترة النظام القاري عقدت اتفاقية بحرية مهمة عام ١٨٠٧ بين جزيرة فرنسا وامام مسقط سمحت احـدى موادهـا لسفن السلطـان بالانتقال بين مختلف الموانىء الواقعة تحت النفوذ الفرنسي أو الانجليزي بدون التعرض لخطر الاستيلاء عليها من سفن جزيرة فرنسا [٩٦]، الا أن هذه الاتفاقية لم تصادق عليهـا الحكومة الفرنسية لتعارضها مـع تشريع النظام القاري.

غير ان عمليات القرصنة عادت من جديد ضد السفن المسقطية بالرغم من الاتفاقية السابقة، فعادت معها شكاوي التجار ضد سلطات جزيرة فرنسا، ففي عام ١٨٠٨ كتب امام مسقط رسالة الى الجنرال ديكان حاكم الجزيرة (وهو غير دنكان) يبين له فيها بأن سكان جزيرة فرنسا قاموا بأعمال بالضد من الصداقة (بين البلدين فرنسا ومسقط) فعند ملاقاة السفن العمانية في المحيط الهندي وزنجبار، فأنهم يقتربون (الفرنسيـين) من السفن المسقطية بحجة أخذ الاخبار منها ولكنهم يستولون عليها وينهبونها

(٩٧)، وعلى الرغم من ارجاع عدد من السفن المسقطية وحمولتها الى المسقطيين بعد تدخل ديكان ظل «الموريشسيون يبحثون عن ألف حجة وعذر لتفادي الانصياع لأوامر الجنرال». (٩٨)

وقد أخبر أمام عمان (حاكم جزيرة فرنسا) بأنه كتب الى كاردن السفير الفرنسي في فارس، طالبا اليه الكتابة الى الحكومة الفرنسية لتمنع الاعمال القرصنية للسفن الفرنسية وتضع حدا لها ونهاية (٩٩) وعندما تم نهب سفن مسقطية من جديد، أرسل السلطان من جديد مبعوثا آخر هو ملا صالح، الى ديكان الذي حاول تهدئته، لكن المبعوث المسقطي طالب باحترام الاتفاقية المعقودة بين الحكومتين من قبل الحكومة الفرنسية(١٠٠).

وفي الحقيقة لم تتوقف عمليات القرصنة ضد السفن العربية رغم كل تلك الجهود ويظهر غضب التجار الوطنيين من خلال رسالة أحد التجار الاغنياء المسقطيين الى نابليون الاول التي جاء فيها «لم يبق أمام العرب أي طريق للخروج من مأزقهم، فهم اعتادوا الاتجار مع الهند، ولكن بسبب ما تعرضوا له من نهب فأنهم قللوا من تلك العلاقات، ونحن نكتب الى فخامتكم لنحتج على ماسلب منا من قبل سكان جزيرة فرنسا»(١٠١).

* * *

وهكذا كانت القرصنة الاوربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ضد القوى العربية البحرية أحد العوامل المهمة التي أثرت على التجارة العربية وطرق اتصالها الخارجي وأضرت بالمصالح الاقتصادية العربية، واستهدفت القضاء على السيادة العربية على مياه العرب الاقليمية في الخليج العربي والحد من عملياتهم التجارية في المحيط الهندي والبحر الاحمر.

ولم يحترم الأوروبيون موقف الحياد الذي اتخذه العرب تجاه الصراع الفرنسي الانجليزي، فتعرضت السفن والموانىء العربية للضرب والنهب وفي الوقت الذي خاضت فيه بعض القوى العربية البحرية كالقواسم مثلا نضالا بحريا شجاعا ضد القرصنة الاوربية (خاصة الانجليزية) التي ترفض الاعتراف بسيادة العرب على مياههم فقد سميت هجماتهم على سفنها (وللعجب) باسم القرصنة .

الهوامش

1 . Pavie (Th), La marine des Arabes et des Hindous, Revve des deux moudes, Vol 4, Paris, 1843, p.576.

2 . Miles S.B., "THE COUNTRIES AND THE TRIBES OF PERSIAN GULF, London, 1966, p.143.

3 . Al Hilo S.L'EUROPE ET LES PROBLEMES MARITIMES DU GOLFE ARABE DE 1789-1857
T.1 AIXEN PROVENCES, Thise doctorat d'Etat un public, 1983, p. 57.

4 . Expedition Maritime Aux Indes Orientales, Archives, Nationales, Serie M1201. France.

5 . Ibid

6 . Lettre de Mr.l'Eveque de Babylone a'mr le Ministre de la Marine, Bagdad, 9 Janvier 1760. Archive Nationales, A.F.B. Bagdad, Correspondance consulaire et commercial, p.140.

7 . Ibid

8.9. Ibid

10. Miles S.B., Op Cit. pp 269-270.

11. Guillain m., DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE LA GEOGRAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTALE, Vol 2, PARIS 1857, p.555

12. Miles S.B. Op. Cit. p. 274.

13. ـ العابد ، صالح، الموقف البريطاني من النشاط الفرنسي في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٩، ص ٦٨

14. Al Hilo S, p. 99

15. Miles S.B. Op. Cit. 277.

16. Guillain M, "Op. Cit, Vol 1, pp. 204-205.

17. Ibid 205.

18. Lettre de Mr. Rousseau a Mr. le Marquis de castries, Ministre de la marine, Arch. Nat. B1AF 197, 1783-1791), Bassorah, p. 348.

19. Lettre de l'Imam de Muscate T1, 1783-1810, p. 33

20. Copie de la lettre de l'Imam de Muscate a Mr. Roussau, 1786 Arch. Nat. Corresp. Consul, B1AF Bagdad, 176, 1776-1786.

21. ـ صالح ، زكي، العراق وبريطانيا ١٦٠٠ ـ ١٩١٤ ، بغداد ١٩٥٧ ص ٥٣

22. Miles (S.B) Op. Cit. p. 278.

23. Au Zoux A LA FRANCE ET MASCATE AUX XVIII ET XIX SIEDES, Revue d'Instuite diplomatique, Vol 23, Paris, 1990, p.526.
24. Ibid
25. Lettre de Mr. Rousseau a Mr. le Ministre de la Marine, Alep, le 26 A Avril 1782, Arch. Nat. B1 AF 176, 1776-1786 Bagdad.
26. Au Zoux A. Op Cit p. 558.
27. Lettre de l'Imam de Mascate a M. Rousseau 1790, Corresp. Consul Muscate T1 1783-1810 p. 72
28. Rousseau a M.le Comte de la, le 28 mai 1790, Arch. Nat, Bagdad, B1AF 177.
29. Lettre de Rousseau au Citogen Descroches, envoye extraordinaire de la Republique Francaise aupres de la Porte Ottomane, AAE, Corresp. Politique, Perse, Vol 8. p. 54.
30. ٣٠ ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة.
31. AuZoux M. Op Cit. Vol 24 p. 234
32. Firouz K.LE SULTANAT D'OMAN ET LA QUESTION DE MASCATE, Paris, 1974 p. 76.
33. Lettre de Rousseau Des Corche, representant de la France aupres des Ottomans, Bagdad 430 Venal mare AN III, AAE., Corresp Consul et commercial, Mascate T1 p. 79
34 Al HiloS Op Cit. Pt 1 p. 120
35. Al Akad S. La rivalite Franco — Britanique dans le Golfe Arabe et les dependance de l'Oman 1792-1862, Thise de doctorat de, Universite de Paris, Paris 1956 p. 13.
36. ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة. ص ٦٢
37. Archives Colonies, Ile de France, Corresp. General 37 C4 Vol 93 An III
38. Rapport au Comite de Salut Public, 18 Germinal, Au III Archives Colonies 14 de France Vol 93
39. Traduction de la copie d'une lettre ecrite paz le cheik Kalfan Government de Mascate 1 au citoyen Rosseau Consul in Bagdad An 71, AAEI Mimoires et documents, Perse, Vol 2, 1740-1839 p. 156
40. Lettre du Citogen Rousseau au Citogen Descroches envoye' extra-ordinaire de la Republique Francaise a' Constantinople AN 11 1AAE, Corresp Consul Bagdad Vol 4 1792-1812, p.25
41. Rapport du 18 germinal, ANIII, AAE Corres Consul Mascate T1 1783-1810, p. 110

42. AuZoux M1 Op cit Vol 24 p. 235
43. Lettre de M. Rousseau a Descroches envoye extraordinaire de la Republique Francaise Pres de la porte Ottoman, bagdad 30 Nov. AN 111, AAE, Corresp. Consul, T1 Mascate p. 79.
44. ـ العابد ، صالح ، الموقف البريطاني من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ص ٧٣ .
45. Miles SB Op Cit p. 289
46. Al Hilo S. Op Cit. T1 p. 130
47. Al Akad S. les rivalities Op Cit p.28
48. Ibid p. 51
49. Prentout Henri Lile de France Sous Decaen 1803-1810 Paris 1901 p. 332
50. La mer Rouge et le golfe Arabe: Situation des Agents anglais et Francais.par un voyageur 1 Revue des deux mondes, vol. 6 Paris 1844 p.825.
51. ـ نوري ، برهان محمد . ساحل القراصنة، أفاق عربية العدد ١١، بغداد، تموز ١٩٧٨، ص ١١٣ .
52. Landen R. OMAN SINCE 1856 New Jersey, 1967 p. 10.
53. ـ العابد ، صالح ، دور القواسم في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٩٦
54. Dubuisson P "Qasimi, Piracy & the General Treaty of Peace 1820"
55. ٥٥ ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ٩٣
56. Kelley J. BRITAIN AND THE ARAB GULF 1795-1880 Oxford 1968 p. 111
57. Al Hilo S. Op Cit. p. 305
58. Philips CH THE EAST INDIA COMPANY 1784-1834 Manchester 1961 pp 79-155
59. ـ ابراهيم ، عبدالعزيز غني ، بريطانيا وامارات الساحل العماني ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ١٧٣ ـ ١٣٨ .
60. Dubuisson P. Op Cit p. 47
61. ـ النجار ، مصطفى عبدالقادر ، التاريخ السياسي لمقاطعة عربستان ١٨٨٧ ـ ١٩٢٥ ، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٤٥ .
62. Buckingham J.S. TRAVELS IN ASSYRIA, MEDIA & PERSIA London 1829 pp 380-382
63. ٦٣ ـ ابراهيم ، نفس المصدر ، ص ١٣٧
64. Chevalier J.J. LE'VOLUTION DE L'EMPIRE BRITANNIQUE T2 Paris 1930 p. 999
65. Brydges U.J. AN ACCOUNT OF THE TRANSACTIONS OF HIS MAJESTY TO THE COURT OF PERSIA 1807-1811 Vol 2 London 1834 p. 40

66. Instructions pour le citoyen cavaignac, resident commissaire general des relations commerciales de la Republique Francaise a Mascate 5 Vendemiaire ANX1 Arch Nat Section d'outre mer papier de cavaignal, mission a lile de France, micro film No. 1 mit B8
67. Ibid
68. Coupland R. AFRICA AND ITS INVADERS FROM THE EARLIEST TO THE DEATH OF SEYYED SAID IN 1856 Oxford 1938 p. 106
69. ٦٩ ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ص ٦٦
70. Malleson CGR "les deraieres lettes des Francaise dans l'Inde et sur l'ocean indien" Translait de Englis, Paris, 1932, p. 87
71. Guillain M. Op. Cit. Vol. 1 p. 210
72. Coupland R. Op Cit pp 16-107
73. Maurizi V.S. A HISTORY OF SEYED SAID SULTAN OF MUSCATE TOGETHER WITH AN ACCOUNT OF THE COUNTRIES AND PEOPLE ON THE SHORES OF THE GULF, London, 1811. p. 30.
74. Captain Wood, Commanding HMS Concorde to G.A. Grant, Nov 7 1801 IOR, Bombay Pol & Sec. Proceeding Range 382 Vol 1
75. Buckingham G. Op. Cit p. 409
76. Bulletin des nouvelles d' Alep du per nivose au XIII, AAE Corresp. Publique Perse Vol 8 1758-1805 p. 205
77. Low C.R. HISTORY OF INDIAN NAVY 1613-1863 London 1877 p. 225
78. Ibid
79. Bulletin des nouvelles Op Cit AAE Corresp. Politique Perse Vol 8 p. 203
80. Miles Op Cit p. 307
81. Kelly J.B. Op Cit p. 307
82. AuZoux Op Cit Vol 24 p. 256-257
83. Coupland R. Op Cit p. 116
84. Kelly J.B. Op Cit p. 76
85. AUZOUX A. Op Cit Vol 1 pp 256-257
86. Rapport du ministre de la marine a a amajeste l'empreur et Roi sur les evenements qui out precede la conclusion d'une convention Signee l'imam de Mascate, Paris, Mars 1808, dossier 4 AN, AF 1215
87. Kelly J.B. Op Cit. p. 77

88. Coupland R. Op. Cit p. 110.
89- Kelly J.B. Op Cit p. 77
90.
91. Sayed Said a 'Decaen 15 Sep 1806 Arch Nat Colonies 14 de France, Corresp. Politique Vol 113
92. Deacen a Sayed Said, 21 Octobre 1806 Arch Nat, Colonies 14 de France, Corresp Politique Vol 113
93. Kelly J.B. Op Cit p. 78.
94. Au Zoux Al Op Cit Vol. 24 p. 259.
95. Rapport du ministere de la marine Op Cit, Arch. Nat. AFIV 1215.
96. Al Hilo S Op Cit T1 p. 212
97. Lettre du Sultan de Zanzibar et d'Oman au general gardane 1808, Arch. Nat. AFIV 1686.
98, 99. Ibid.
100. AuZoux Op Cit Vol. 24 p. 264.
101 Traduction d'une lettre e'crite par Said Mohamed Akib, Negociant de Mascate, a.s.m.

l'empereur et Roi, Mascate, le 27 aout 1810 AAE Corresp. Consul Mascate T1 1783-1820 p. 317

ABBREVIATIONS:
AAE Archives du minister des Affaire etrangere
Arch Nat. Archives Nationales
Corres Consul Correspondence Consulaire

دور السياسة البريطانية في تقسيم

بعثة كوجلان تتمخض عن تقسيم ال

انتقل الطور الايجابي للعلاقات العربية الافريقية الى طور الارتباط العربي الافريقي . وهو الارتباط بين مسقط وزنجبار ارتباط شرق افريقيا ووسطها بالسواحل العربية تحت سيطرة حاكم عربي اتخذ من زنجبار مقرا له ، وامتد حكمه حتى عام ١٨٥٦م .

الا ان التنافس الدولي الذي اشتد على سواحل شرق افريقيا والسواحل العربية في ذلك الوقت لم يكن ليترك هذا النمو والازدهار للارتباط العربي الافريقي .

فكانت المحصلة النهائية لهذا التنافس خروج بريطانيا بنصيب الاسد حيث اصبحت السياسة البريطانية ازاء هذه المنطقة معروفة لكثير من الباحثين وكتبت حولها العديد من الدراسات .

والذي يلفت الانتباه لاول وهلة هو ان بريطانيا اهتمت بالسلطنة لاهميتها الاستراتيجية اكثر من القوى

السلطنة العربية الأفريقية

السلطنة العمانية الكبيرة الى دولتين

بقلم الدكتورة : سنى محمد على عبدالجبار الطائى

الاستعمارية الاخرى . صحيح ان البرتغاليين والفرنسيين ثم الالمان لم يغفلوا عن هذه الاهمية لكن البريطانيين رسموا خطتهم للسيطرة على المنطقة بدهاء وبرؤية مستقبلية ، بالاضافة الى ذلك فان بريطانيا كانت تتميز بتفوق بحرى واضح فى المحيط الهندى دعم هذا اقتصادها المتين وجشعها الاستعمارى ودهاء قادتها السياسيين .

فنجاح بريطانيا فى السيطرة على السلطنة العربية الافريقية يعنى السيطرة على طرقها التجارية فى هذه المنطقة ، وخلق مراكز حربية تكون نقطة الانطلاق لتحقيق اهدافها .

ولم يكن نجاح السياسة البريطانية النشطة فى السيطرة والتدخل فى شئون السلطنة فقط ، وانما امتدت لتكون سببا رئيسيا فى تقسيمها وتفتيت كيانها حفاظا على مصالحها الحيوية ، اضافة الى الحد من الارتباط الافريقى بالجانب العربى .

تقسيم السلطنة العربية الافريقية

فى السنوات الاخيرة من حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦)[١] بلغت ممتلكات دولته اقصى اتساع لها ، فقد كانت تمتد فى اقليم عمان من رأس مسندم الى صحار ، واشتملت على بعض الاراضي الشرقية من سواحل الخليج العربى ، منها ميناء بندر عباس الذى استأجرته دولة بو سعيد من فارس لمدة عشرين عاما بمبلغ ٣٥,٠٠٠ ريال نمسوى[٢] .

اما بالنسبة للممتلكات الافريقية ، فقد كانت تضم الساحل الشرقي من رأس جوردفاي شمالا الى رأس دلجادو جنوبا . هذا بالاضافة الى عدة مقاطعات كانت تخضع لحماية الدولة العثمانية كمقديشيو ولامووبان[٣] .

وكادت تدخل ضمن تلك الدولة ايضا الاراضي الداخلية في وسط افريقيا التي كان يطرقها التجار العرب الذين لعبوا دورا مباشرا فى نشر الدين الاسلامى واللغة العربية[٤] ، وكان سكان هذه المناطق يعترفون بشىء من السيادة للسيد سعيد ويعقدون مع العرب الاتفاقيات التجارية عن طريق قنصلياتهم وبيوتهم التجارية ووكلائهم فى زنجبار[٥] .

ولم تقتصر ممتلكات دولة بو سعيد على تلك الاراضي التى ذكرناها وانما امتد النفوذ العمانى الى بلاد اخرى وان لم يتحقق لهذه الدولة ما كانت تنشده من سيطرة على تلك البلاد كالبحرين وزيلع وعدن وغيرها[٦] .

وأياما كان الوضع ، فلا يجوز ان نبالغ فى تصوير التناسق الذى اتسمت به دولة بو سعيد فالسلطة المركزية لم تكن قوية الا فى بعض اجزاء الدولة كمدينتى مسقط وزنجبار ، بينما كانت مزعزعة فى المناطق الاخرى ، حيث الاضطرابات القبلية والمعارضة للحكم التى كانت تتمثل فى الجناح المحافظ ، والاعتداءات الوهابية المستمرة على الاراضي العمانية كل هذه العوامل كادت تقضى على سلطة بو سعيد فى المنطقة الساحلية من عمان[٧] .

الا ان اختيار السيد سعيد زنجبار مقرا لحكمه فى عام ١٨٣٢م لم يبعده بالضرورة عن المشكلات العمانية كما أن اتجاهه للشرق الافريقى لم يكن بسبب حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته لكثرة موارده ووفرة خيراته ، اضافة الى موقعه التجارى الحيوى[٨] ، وانما كان راغبا فى تكوين دولة عربية فى الشرق الافريقى[٩] .

على ان السيد سعيد لم يلبث ان تأكد من صعوبة السيطرة على عمان من موقعه فى شرق افريقيا ، ولذلك كان مضطرا الى ان يغادر زنجبار كى يواجه المشكلات فى عمان ، على الرغم

من انه استطاع في بداية السنوات الاولى من حكمه ان يفرض سيطرته على ممتلكاته العربية[١٠] فتمسكه بممتلكاته الافريقية ونقله ، مركز حكمه اليها كان له اثر واضح في الاحداث التى ظهرت في عمان بحيث كان السيد سعيد سلطانا على زنجبار اكثر منه سلطانا على عمان . وهذا لم يمنع ان تكون زنجبار طيلة حكمه الطويل تابعة من الناحية الرسمية لمسقط .

التقسيم الادارى للسلطنة

اذا كان السيد سعيد قد فشل في تحقيق الاستقرار لحكمه رغم ما حظى به من تأييد أجنبى خاصة وانه كان حليفا دائما لبريطانيا طيلة حكمه الطويل[١١] خاصة وان هذا التحالف قد اثبت فعاليته على امتداد الفترة التى حكم فيها آل بو سعيد .

فالنتيجة الحتمية كانت استحالة الوصول الى حكم مستقر بعد وفاته ومن المحتمل ان السيد سعيد حين قسم دولته اداريا بين اثنين من ابنائه ، انما كان يريد ان يسهل على نفسه مهمة ادارتها ، وان كان هذا لا يعنى بالضرورة رغبته في تقسيم السلطنة الى دولتين منفصلتين[١٢] كما فسرتها الحكومة البريطانية فيما بعد .

فقد عين السيد سعيد اثنين من انجاله نائبين عنه في كل من الجزء الافريقى زنجبار والجزء الاسيوى – مسقط – للعمل اثناء الفترات الطويلة التى كان يتغيب فيها عن الحكم ، ومنذ عام ١٨٣٢ كان السيد ثوينى ينوب عن والده في العاصمة – مسقط – بينما كان الابن الثانى السيد ماجد ينوب منذ عام ١٨٥٤ عن والده في زنجبار[١٣] فكان من الطبيعى ان يكون لكل منهما نفوذ واسع في المنطقة التى يحكمها ولكن ليس بالدرجة التى تمكنه من ضم الجزء الآخر الى حيز نفوذه كما لا يبدو ان السيد سعيد قد رشح احد ابنائه ليخلفه على الحكم بعد وفاته .

واصبح وضع دولة بو سعيد حرجا بعد وفاة السيد سعيد عام ١٨٥٦ – حيث كان يعد آخر حاكم بارز في الخليج ويعد عهده مرحلة ناجحة في اطار الحضارة التقليدية للمنطقة ونطاقها الديناميكى ، اذ ان تأثير الامبريالية الغربية وعملية التحديث للمنطقة دمرت البناء السياسي العام ان لم تكن قد دمرت كل خاصية من خواص ذلك النظام وذلك بعد اعوام قليلة من وفاة السيد سعيد – حيث تمت مبايعة السيد ماجد حاكما على زنجبار – وبتأييد من الانجليز – واعلن السيد ثويني نفسه حاكما على المملكة العمانية بما فيها زنجبار وبذلك انقسمت السلطنة بطريقة فعلية[١٤] .

وقد تعرض حكم السيد ماجد في زنجبار لعدة اخطار – قبل ان يثبته الانجليز بتحكيمهم لعام ١٨٦١ – من

هذه الأخطار :

- الأخطار والاضطرابات التى اثارتها قبيلة الحارث او - الحرث - اكبر العائلات فى زنجبار حيث طلبت من السيد برغش ان يقودها فى صراعه مع اخيه السيد ماجد والواقع ان هذه القبيلة كانت ترغب فى التخلص من حكم أسرة بو سعيد كلها ، ووضع حاكم منها على زنجبار(١٥) .

- رغبة السيد ثويني فى توحيد السلطنة تحت حكمه وكان لديه من المبررات ما يستطيع به ان ينازع اخاه السيد ماجد حكمه فى زنجبار بوصفه اكبر ابناء السيد سعيد وهو الذى يحكم اقاليم الوطن الام كما يستمد من بيعة القبائل العربية له قوة فى ادعائه .

وفى اطار الاستراتيجية التى فرضها مبدأ المحافظة على طرق المواصلات الى الهند نجد ان السياسة البريطانية كانت تؤيد تقسيم السلطنة وتعارض فكرة ضم ممتلكات ثويني الى ممتلكات ماجد ، بحيث تضمن السيطرة على موقع يعد من اهم المواقع لحماية مصالح الامبراطورية حيث تعد الشواطىء الشرقية الافريقية امتدادا استراتيجيا يؤثر فى المجال الدولى للسيطرة على الملاحة البحرية للتجارة العالمية الى الهند وقد اصطدمت خطط بريطانيا بمطالبة السيد ثويني بتوحيد السلطنة انطلاقا من : ان موارد القسم الافريقى من السلطنة تبلغ اضعاف موارد القسم الاسيوى وان امتناع السيد ماجد عن دفع الاعانة السنوية الى مسقط والتى قدرت بـ ٤٠,٠٠٠ ريال نمسوى - قبل ان يثبتها تحكيم كاننج - اثار مشكلة حول طبيعتها وهل تعنى نوعا من التبعية من جانب زنجبار لمسقط ام انها اعانة شخصية من اخ الى اخيه(١٦) ويبدو أن اصرار السيد ثويني على اعتبار الامر الاول هو الذى دفع السيد ماجد الى الامتناع عن الدفع(١٧) .

وبذلك امتدت المشكلة بين الطرفين وكانت من الاسباب التى دفعت السيد ثويني الى اعلان الحرب ضد اخيه السيد ماجد واعادة توحيد السلطنة .

التنافس البريطاني الفرنسي

كان لاعلان الحرب وارسال حملة فى عام ١٨٥٩ الى زنجبار من قبل السيد ثويني وقع سىء على بريطانيا خاصة وان السيد ثويني اتجه الى فرنسا من اجل مساعدته فى توحيد السلطنة . وقد بثت هذه الحملة الذعر فى الاوساط البريطانية خشية تعرض مصالحها فى المنطقة الى المنافسة الفرنسية التى كانت ترمي الى الحصول على موطىء قدم فى المحيط الهندى وفى المراكز الاستراتيجية الحساسة على طريق الهند مما جعل بريطانيا تسارع بايقاف الحملة(١٨) ، وتوجيه الاتهامات الى فرنسا التى

كانت ترغب بتقديم المعونة الى السيد ثويني مقابل حصولها على بعض الاراضي فى شرق افريقيا واحياء تجارة الرقيق[١٩] - التى حرمتها بريطانيا - نظرا لحاجتها للعمالة الافريقية للعمل فى المستعمرات التى حصلت عليها والملاحظ ان اهتمام فرنسا بزنجبار جاء نتيجة لتزايد تبادلها التجارى مع الساحل الشرقى لافريقيا .

ومما لا شك فيه انه ترتب على ظهور اطماع فرنسا فى زنجبار ان ازداد السيد ماجد تقربا من الانجليز واصبح اكثر انصياعا لهم ولم يقف الامر عند حد تقديم المعونة البريطانية اليه بل حاولت بريطانيا ان تحل النزاع القائم بين مسقط وزنجبار بطريقة يقبلها الطرفان او يرغمان على قبولها اذا استدعى الامر ذلك انطلاقا من تصميمهم على منع اى دولة من استخدام المنطقة الحساسة بشكل يهدد الهند او المواصلات الامبراطورية بالخطر .

بعثة كوجلان

تتميز بريطانيا عن القوى الاستعمارية التى سبقتها الى المنطقة باتباع استراتيجية ذات صفة غير عسكرية وهى أسلوب عقد المعاهدات والاتفاقيات مع حكام المنطقة والزامهم بنصوصها .

ومما يستوقف النظر فى امر الاستعمار البريطانى ان الاساليب التى اتبعها فى السيطرة على السلطنة واحدة تقريبا فقد جرى على اغتنام فرص وقوع الخلافات العائلية فى اسرة بو سعيد وكان لا يتورع عن ايجادها اذا اقتضت الظروف التدخل فيؤيد احد الفريقين المتنازعين ويكون الفوز دائما فى جانب الفريق الذى يؤيده لكثرة وسائطه وتعددها ثم يبسط ظله على البلاد عن طريق الحاكم الجديد الذى يجلسه او يعضده[٢٠] .

ومعنى ذلك ان السيطرة البريطانية على السلطنة العظيمة لم تكلف الانجليز جهودا مادية تستحق الذكر بل سيطروا عليها بالطرق والاساليب الدبلوماسية وبالوسائل الاخرى التى يعرفونها مستعينين على ذلك بالزمن وقد أنالهم ما يريدونه ولا نظن ان استعمارا فى العالم تم على مثل هذا المنوال .

فالهدف الرئيسى للسياسة البريطانية كان تقسيم السلطنة وتفتيت كيانها انطلاقا الى مايلى :

- ان التقسيم سوف يمهد لها سبيل السيطرة على اقليمى الدولة وبشطريها الافريقى والعربى .
- ان دعمها للسيد ماجد يعنى تدعيم نفوذها فى زنجبار وبالتالى سيطرتها على مسقط لكونها واقعة ضمن مناطق نفوذها فى الخليج العربى .
- ان بريطانيا كانت تدرك بلا شك انها ان لم تتدخل فى النزاع الناشىء

بين مسقط وزنجبار بما يحقق فى النهاية الهدوء والسلام فى المنطقة فقد تتأثر مصالحها الحيوية فى الطريق الموصل الى امبراطوريتها فى الهند .

ولكى يتفادى البريطانيون اتساع نطاق هذا الصراع الذى يمكن ان يؤدى لنشر الفوضى على امتداد منطقة حوض المحيط الهندى ، اقترحوا على المتنازعين على السلطة احالة الخلاف بهدف التحقيق فى اسبابه على هيئة تحكيم هندية بريطانية ، كان على رأسها الكولونيل دبليو كوجلان المقيم السياسى فى عدن(٢١) .

وكان من نتيجة الاعمال والدراسات التى قامت بها بعثة كوجلان بعد زيارتها لمسقط وزنجبار (١٨٦٠) التعرف على مطالب وحجج كل من السيد ثويني والسيد ماجد وقد تضمنت حجج السيد ثويني انطلاقا من رغبته فى توحيد السلطنة الاتى :(٢٢) .

- ان السيد ثويني يرى انه مادام حاكما لعمان فهو بالتالى حاكم لتوابعها ، وان والده السيد سعيد ليس من حقه ان يتنازل او يتصرف فى ممتلكاته ، مؤكدا انه ليس من حق اى حاكم ان يتنازل او يتصرف فى ممتلكات دولته .

- ويرى السيد ثويني ان والده السيد سعيد لم يقصد او ينوى او يهدف الى تقسيم سلطنته ، وان تعيينه لابنه السيد ماجد - بعد وفاة اخيه السيد خالد عام ١٨٥٤ والذى انابه السيد سعيد على زنجبار - على الشطر الافريقى وتعيينه - اى السيد ثوينى - على الشطر الآسيوى لا يعنى بالضرورة استقلال كل منهما بممتلكاته وانما حدث هذا التعيين لاسباب ادارية تنظيمية بحتة .

- وعليه فالهيمنة على شطرى السلطنة تكون لمن يحكم الدولة الام ، والذى ترضى به القبائل العربية .

- اعتبر السيد ثويني المبلغ الذى تدفعه زنجبار الى مسقط سنويا ما هو الا دليل كاف لتبعية زنجبار للدولة الام مسقط .

- وبالمقابل جاء تبرير السيد ماجد ضعيفا مقارنة بحجج السيد ثوينى حيث اكد على ما يأتى :(٢٣) ،

- انه تم انتخابه من قبل أسرة بو سعيد المقيمة فى زنجبار .

- وانه حصل على تأييد الزعماء الافريقيين القبليين وانه يتعامل مع القوى الاجنبية كمسئول وحاكم لزنجبار وتوابعها .

- اما المبلغ الذى تدفعه زنجبار سنويا الى مسقط ، فما هو الا اعانة منه الى اخيه ولا يعنى التبعية له ، مؤكدا فى ذلك على ان السيد ثوينى ارسل وفدا - كما ذكرنا سابقا - للتفاوض معه بشأن المبلغ المذكور وهذا - برايه - اعتراف من ثوينى باستقلاله .

وبعد دراسة ما تقدم به الطرفان

المتنازعان على السلطة قدمت بعثة كوجلان تقريرها النهائى الى اللورد كاننج - نائب الملك فى الهند - فى عام ١٨٦١ بعد ان كان لبريطانيا دور كبير فى تمويه الحقائق وعدم اقرار العدل ، بحيث جاء التقرير متفقا ومصالحها فى المنطقة انطلاقا من الاستراتيجية التى فرضها مبدأ المحافظة والسيطرة على طرق المواصلات الى الهند ، والذى تضمن الاتى :[٢٤] .

- ان الطريقة التى يتولى بها الحكم سلاطين اسرة بو سعيد ، انما تقوم على اساس الانتخاب ، وانه عقب وفاة السيد سعيد بن سلطان فان اهل زنجبار انتخبوا ابنه السيد ماجد حاكما عليهم . وعلى ذلك فليس هناك مبرر لمطالب السيد ثوينى فى السيطرة على ممتلكات اخيه فى زنجبار ، وينبغى اذا ان يبقى كل منهما سلطانا فى مكانه .

تحكيم كاننج لعام ١٨٦١

وبموجب تقرير كوجلان الذى استند عليه اللورد كاننج فى وضع تحكيمه المشهور نجحت السياسة البريطانية فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو تقسيم السلطنة الواسعة الى دولتين :

دولة افريقيــة غنية عـاصمتها زنجبار .

دولة اسيوية فقيرة عـاصمتها مسقط .

وبمقتضى التحكيم تم اقرار ما يأتى :[٢٥]

- بقاء السيد ماجد فى منصبه حاكما على زنجبار والممتلكات الافريقيـة الاخرى خلفا للسيد سعيد والاعتراف بالسيد ثويني حاكما شرعيا على مسقط .

- ومراعاة للعدل فى عملية التقسيم تتعهد الدولة العمانية الافريقية فى زنجبـار بدفـع تعويضـات ماليـة ٤٠٫٠٠٠ ريال نمسوى سنويا على ان تتعهد بدفع المتأخرات المستحقة عليها عن العامين الاخيرين - اعتبارا من عام ١٨٥٨م .

- وعد التعويض المالى السنوى الذى تدفعه حكومة زنجبار لحاكم مسقط هنا لقاء تنازل الاخير عن كل حقوقه ومطالبه فى القسم الافـريقى من المملكة .

- وتقرر بموجب التحكيم ان يستمر هذا الحل على تعاقب الورثة من حكام الدولتين .

- واطلق وفقا للتحكيم لقب (سلطان) على كل حاكم منهما .

- كما جاء فى التحكيم ايضا رفض طلب تقدم به السيد تركي بن سعيد - وهو ابن ثالث للسيد سعيد اعلن نفسه حاكما على القسم الشمالى من مسقط فى ولاية صحار - فى الاستقـلال بولايته[٢٦] .

وقد أدى تحكيم كاننج الى ان وجـدت بريطـانيا نفسهـا ملزمـة

الإنجليز ينفذون الخلاف بين أبناء
السلطان سعيد لأحكام سيطرتهم
على طريق التجارة إلى الهند

بالاشراف على عملية دفع التعويض المالى السنوى او حتى التعهد بدفعه من جانبها اذا لزم الامر .

وبذلك اصبحت العلاقة بين شطرى السلطنة علاقة مالية فقط واعطى التحكيم حق قطع هذه العلاقة اذا ما تعرض حاكم زنجبار لاعتداء من حاكم مسقط على ان يعرض الامر على حكومة الهند(٢٧) .

وبذلك نجحت استراتيجية السلطان ماجد فى تجريد اخيه من كل حق له فى زنجبار ، ولا يخامرنا شك بأنه لولا الانجليز وتأييدهم له فى حججه لما نجح فى حل اهم مشكلة واجهته فى حكمه .

فالتأييد الخارجى له – لكونه الدعامة الاساسية لدولته – كان نقطة تحول جديدة فى سياسة زنجبار تجاه مسقط .

التطورات التى اعقبت التحكيم

ان الحل الذى فرضته بريطانيا لمشكلة النزاع بين الاخوين كان اسوأ من المشكلة نفسها من وجوه عديدة .

فالطابع الافريقى اخذ يغلب على سلطنة زنجبار بعد التقسيم نتيجة لانقطاع الصلة بالوطن الام ، حيث اتخذ السلطان ماجد بعض الاجراءات التى أدت الى اضعاف الصلات بين زنجبار ومسقط .

فالتقسيم لم يشطر فقط دولة قائمة وموحدة وصفها احد المراقبين البريطانيين (بالدولة البحرية(٢٨) الاولى) بل قوض اقتصاد هذه الدولة ووحدتها السياسية واسهم بالتالى فى اضعاف النشاط التجارى للملاحين العمانيين فى زنجبار نتيجة لاضعاف الحركة الملاحية بين الشطرين حيث

منع السلطان ماجد سفن مسقط من الملاحة في مياه زنجبار الا اذا اثبتت انها تتجر في سلع شرقية مستندا على اتفاقه مع بريطانيا في مكافحة تجارة الرقيق .

كما منع مشايخ الخليج العربي من ارسال سفنهم الى زنجبار وحرم على سكان زنجبار تأجير المساكن للتجار العرب الآتين من شبه الجزيرة العربية ، واوقف الهدايا التقليدية التى كان يقدمها السلاطين لقبائل عمان[٢٩] .

ولم يكتف السلطان ماجد باتخاذ هذه الاجراءات فقط وانما اصبحت اهداف سياسته تنحصر في محاولة التخلص من دفع الاعانة السنوية الى مسقط وبذلك يستطيع ان يلغى اخر مظهر يشير الى الصلة بين زنجبار ومسقط وكانت اول فرصة اتاحت له محاولة تنفيذ سياسته هذه هى مقتل اخيه السيد ثوينى عام ١٨٦٦ بيد ابنه السيد سالم الذى اعلن نفسه سلطانا على مسقط[٣٠] .

فكان من الطبيعى ان يعلن السلطان ماجد عن رغبته في معاقبة قاتل اخيه السيد سالم الذى وصفه بالقرصان المغتصب[٣١] – الا ان السياسة البريطانية الثابتة في تقسيم السلطنة وعدم افساح المجال لاية محاولة لاعادة توحيدها مهما كان السبب منعت السلطان ماجد من معاقبة السيد سالم[٣٢] الذى حصل على اعتراف بريطانيا به حاكما شرعيا على مسقط وتثبيته سلطانا عليها – في مقابل ان يكون ركيزة للسياسة البريطانية في المنطقة ومنفذا لما يملى عليه من شروط بريطانية .

وعلى اية حال فقد تشبثت بريطانيا بتحكيم كاننج والذى فرض على السلطان ماجد دفع الاعانة السنوية ووافق عليها وهذه الموافقة .

من وجهة نظر بريطانيا ـ جاءت بدون قيد او شرط ولم تكن مجرد اتفاق شخصي ينتهى بوفاة احد الطرفين.

وتعهدت بريطانيا بأن تتولى هى اخذ المعونة من سلطان زنجبار وتقديمها لسلطان مسقط حتى يمكن تجنب العلاقة المباشرة بين الطرفين ـ وبدأ السلطان ماجد في الوفاء بالتزاماته منذ عام ١٨٦٨ ـ خاصة وان سلطان مسقط اعلن بانه عاجز عن دفع قيمة ايجار ميناء بندر عباس لدولة فارس مما حدا بالاخيرة الى محاولة استعادة الميناء ثم محاولة القيام بنشاط بحرى واسع النطاق في الخليج العربي[٣٣].

وهذا يعنى انه كان على بريطانيا ان تضع استراتيجية اخرى من اجل تنفيذ ادوارها في المنطقة والتى هدفت الى جعل الخليج العربي كله بمثابة بحيرة بريطانية بدون منافس.

ولم تكتف بريطانيا بذلك بل انها استغلت معاهدات منع تجارة الرقيق

لكي تقضي على الاتصالات البحرية بين مسقط وزنجبار ـ مستخدمة في ذلك حق تفتيش السفن العربية ومصادرتها وفقا لما تقرر لها في تلك المعاهدات وكان هذا آخر حل وصلت اليه السياسة البريطانية للقضاء على الامل الذي قد يراود بعض حكام المنطقة في احياء السلطنة العربية الافريقية.

***

في ضوء ما تقدم نستطيع ان نقول ان الذي يبحث في احداث هذه الفترة التاريخية للسلطنة العربية الافريقية لابد وان يتأكد من ان حكام أسرة بوسعيد ـ والذي امتاز تاريخ حكمهم الطويل بالخضوع للسيطرة البريطانية ـ لم يكونوا يعرفون اسباب التخبط الذي كانوا غارقين فيه، والذي كان من الاسباب الرئيسية لانهيار امبراطوريتهم ـ وكان من الممكن بالاستخدام الذكي ان يحافظوا على دولتهم بشطريها العربي والافريقي الا ان ممارسة الوجود البريطاني في المنطقة انطلاقا من مبدأ توازن القوى بين الدول الاوربية الكبرى ـ الطامعة في المنطقة ـ كان سببا رئيسيا في انهيار وتفتيت السلطنة والتغلغل فيها وبذر الانشقاق وهدمها في النهاية.

وبذلك نجحت السياسة البريطانية في تحقيق الابعاد الثلاثة في هذه المنطقة وهى: البعد الامبريالي والبعد الهندي والبعد السياسي وكان لكل منها نصيب في تكييف السيطرة البريطانية وغنى عن البيان ان فوز الاستعمار البريطاني بامتلاك السلطنة وتفتيتها ساعده على التسلط على المناطق الاخرى تدريجيا.

وبصرف النظر عن الافتراضات والتخمينات فانه من الواضح ان السيد سعيد بن سلطان ـ رغم كل شيء نظرا لتورطه مع الانجليز ـ الا انه كان ولا يزال يعد اهم واقوى حكام اسرة بوسعيد.

وهكذا اختتمت هذه الحقبة من تاريخ السلطنة العربية الافريقية التى اقترنت بها العلاقات العربية الافريقية بالنمو والازدهار للجانبين بينما اتسمت العلاقات العربية والافريقية بالدول الاستعمارية بالنزف المادي والقهر البشرى. كما هو معروف تاريخيا.

الهوامش

(١) Reute, R.Said. Said bin Sultar. Landen 1929,P.47

(٢) روبرت جيران لاندن: عمان منذ ١٨٥٦، ترجمة محمد أمين عبدالله لبنان، ١٩٧٠، ص ١٩٤.

(٣) د. جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا منذ تاسيسها حتى انقسامها (١٧٤١ - ١٨٦١)، مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة، ١٩٦٧ هي ٢٥٤.

(٤) جون جوزيف: الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء، ترجمة، مختار السريفي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٤. ص ١٤٠.

(٥) James B. Missionary Researches and Travels to Tanganika, Dublin 1970, p. 47.

(٦) د. جاد محمد طه: دور بريطانيا والمانيا في تفكيك سلطنة زنجبار العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٠٦.

(٧) Coupl and R.: East Africa and its Invaders, Oxford Press.. London, 1938,P.6

(٨) «عرف عن السيد سعيد انه كان اكثر ميلا الى التجارة منه الى المناورات السياسية».
- روبرت جيران لاندن، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦.

(٩) Pears B:Zanzibar, The Island Metropolis Eastern Africa, London. 1920,P 116.

(١٠) «على الرغم من الخطر الذي كان يهدده في عمان فانه لم يعد اليها الا في عام ١٨٥١ بعد ان نصحه الانجليز الذي بدا الخوف يساورهم من تغلب العناصر المتطرفة الممثلة في الفئات الاباضية المحافظة اضافة الى المناطق الداخلية من عمان حيث كانت تضطرم بالقلاقل».
- روبرت جيران، مرجع سابق ص، ٦٤.

(١١) ان النفوذ البريطاني بدأ بالتغلغل الفعلي في زنجبار منذ ان عقدت بريطانيا مع السيد سعيد معاهدة عام ١٨٣٩ استنادا لمعاهدة (Moresby Treaty) كان من اهم نصوصها: ان يعمل السيد سعيد على اتخاذ اجراءات اكثر حرصا ضد تجارة الرقيق (الرابحة آنذاك) كما اعطيت للسفن البريطانية حق تفتيش المراكب في الموانىء التابعة للسيد سعيد للتأكد من خلوها من الرقيق.

(*) ورد ذلك في كتاب روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره ص ٦٢
A.J.Arberry and Rom Landau: Islam Today London, 1942. P. 124

(١٢) د. السيد رجب حراز: بريطانيا وشرق افريقيا من الاستعمار الى الاستقلال، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧١، ص ١٤٠.

(١٣) Lyne.R.N: Zanzibar In Con temporary Times, London, P. 49

(١٤) Ibid., P.5O.

(١٥) د. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره ص ١١٩.

(١٦) «حيث بادر السيد ثويني بارسال ابن عمهما محمد بن سالم مبعوثا الى اخيه السيد ماجد للتباحث حول المشاكل السياسية بينهما، وكانت نتيجة هذه المباحثات تعهد السيد ماجد بدفع ٤٠,٠٠٠ ريال نمساوي الى اخيه السيد ثويني على ان يتخلى الاخير عن مطالبته باقليم زنجبار».
- روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره ص ٦٦

(١٧) Coupland R: OP.Cit.,P. 151.

(١٨) حيث سارعت السلطات البريطانية في الهند بارسال الكولونيل رسل (Rnssel) لمنع الحملة مما اضطر السيد ثويني الى التراجع الى مسقط بعد ان اغلق الاسطول البريطاني الطريق في وجهه.
- د. صلاح العقاد ود. جمال زكريا قاسم: زنجبار، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٢١

(١٩) كانت تعتبر جزيرة زنجبار من المراكز المهمة والرئيسية لتجارة الرقيق قبل تحريمها.
Jasper H. Stembridge: The World Aceneral Regional Geography, Oxford Univ Press, London, 1939, p. 361

(٢٠) محمد سعيد: تاريخ الاستعمار الانجليزي في بلاد العرب، الجزء الأول، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٦. ص ٣٨٩.

(٢١) «ليس الهدف من ارسال بعثة كوجلان تحقيق الهدوء بين البلدين فقط وانما لمنع تدخل الفرنسيين في تلك المناطق الهامة على الطريق البحري الى الهند».
- روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.
(٢٢) المرجع السابق، ص ٦٦.
(٢٣) المرجع السابق.
(٢٤) د. جاد محمد طه: مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٢٥) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج - القسم التاريخي - ترجمة، مكتب صاحب السمو امير دولة قطر، الجزء الثاني، ص ٧٣١.
(٢٦) د. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٨.
(٢٧) روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره، ص ٦٨.
(٢٨) «كان يتالف اسطول السيد سعيد من ١٥سفينة حربية من الطراز الاوربي و٧٤ سفينة مقاتلة وخمس فرقاطات وعدد كبير من السفن الغربية الطراز».
- روبرت جيران لاندن: المرجع السابق، ص ٦٦.
(٢٩) د. صلاح العقاد ود. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠
(٣٠) ج.ج. لوريمر: مرجع سبق ذكره، ص ٧٤٥.
(٣١) المرجع السابق.
(٣٢) «انطلاقا من وجهة نظر بريطانيا في مقتل السيد ثويني بيد ابنه السيد سالم والتى تنحصر في انه (اي سالم) ليس اول حاكم شرقي اعتلى السلطة وسط الدماء والسيد سعيد نفسه طعن ابن عمه السيد بدر واحتل مكانة في السلطة».
- رودولف سعيد روث: سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١ - ١٨٥٦)، ترجمة عبدالجميد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج العربية، جامعة البصرة، ١٩٨٣، ص ١٧٧.
(٣٣) Lyne, R.N: OP. Cit., P.45

د. بندركار و٣٠ عامًا في البحرين

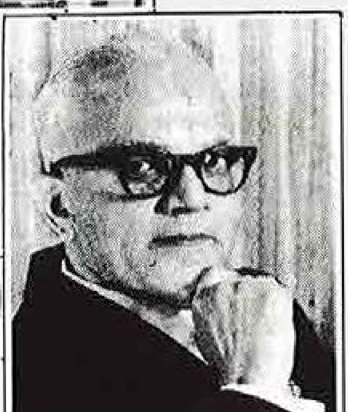
مستوصف المحرّق

طبيب من البُهرة



الدكتور بندر كار : اسم يعرفه الكثيرون في البحرين باعتباره أحد الذين شاركوا في الرعاية الصحية منذ العشرينات من هذا القرن . وقد قضى الطبيب الهندي في البحرين ٣٠ عاما شاهد خلالها الكثير من التطورات التي دارت على هذه الارض الطيبة وسجل الكثير من الملاحظات التي احتفظت بها ذاكرته . وفيما يلي من صفحات نقدم بعض ملامح هذه الذكريات تسجيلا للتاريخ من شاهد عيان .

اتصل بي أحد أصدقائي في شهر ابريل عام ١٩٢٥ يخبرني انه قرأ اعلانا في جريدة (بومبي) يطلب طبيبا للعمل في البحرين ويقول انه تقدم لشغل هذه الوظيفة الا انه حصل على وظيفة أخرى بالهند ويسالني اذا كنت راغبا في ان أحل محله ووافقت ثم سافرت على الفور الى بومبي ومن هناك أرسلت برقية للطبيب الجراح الذي كان يعمل في المعتمدية البريطانية بالبحرين تفيد اعتذار صديقي ورغبتي في ان احل محله . وتلقيت برقية بالموافقة وبدأت الاستعداد للرحيل . ومن بومبي سافرت على ظهر سفينة بريطانية هندية وبعد ١٥ يوما وصلت الى البحرين في النصف الثاني من شهر مايو عام ١٩٢٥ . وفي البحرين كان في انتظارنا مجموعة من السفن للترحيب بنا وكانت من طراز (الداو)



د. بندكار

كان دكاناً صغيراً يشرف عليه

ويعالج بالطب الشعبي اليوناني



عيادة المحرق الثانية

محاضرة للدكتور بندر كار
قدمت سنة ١٩٥٥



عيادة المحرق الاولى

كما كان معها سفينة يركبها الطبيب الجراح بدار المعتمدية والذي كان يعتبر رئيسي المباشر وقد ركبت معه في سفينته التي نقلتنا الى الشاطىء . وبعد أيام باشرت عملي فوق مركب خصص لي وهو من طراز (البوم) وحمولته بين ٥٠ و ٩٠ طنا وهو مصقول ولامع وقد طلي باللون الابيض حتى يسهل على سفن الغوص التعرف عليه من بعيد . وكانت مهمتي الرئيسية هي ان أكون بمثابة طبيب لهذا المستشفى العائم الذي يتجول بين مغاصات اللؤلؤ طوال موسم الغوص لتزويد الغواصين بحاجتهم من الدواء والعلاج السريع . وكانت معظم الامراض الشائعة في المغاصات هي السعال والزكام والنزلات المعوية التي كانت تصيبهم نتيجة تسخين الطعام المكون من السمك والتمر أكثر من اللازم كما كان الغواصون يشكون من آلام الأذن والنزيف الذي كان يصيبها نتيجة ضغط الماء في الاعماق . كما قمت بخلع مئات الاسنان التالفة . وقد وجدت الجميع متعاونين معي الى اقصى درجة وكانوا يشعرون بالعرفان لهذه الرعاية الطبية التي تم توفيرها بناء على مبادرة من صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة .

وكان علي أن أقوم بجولة على المغاصات فوق السفينة المستشفى وهي جولة تستغرق بين ثلاثة او اربعة اسابيع في كل مرة قبل ان أعود الى الميناء للتزود بالمؤن والأدوية والضمادات والوقود والماء العذب ثم ابدأ على الفور جولة ثانية في المغاصات وهكذا طوال موسم الغوص . وكنت احتفظ معي بسجل حول حالة الطقس وقائمة بأسماء المرضى الذين تلقوا العلاج ونوع الامراض وكنت أرسل هذا التقرير الى السلطات المختصة عقب كل موسم .

وفي عام ١٩٢٥ لم تكن هناك مكاتب ادارية حكومية فيما عدا مكتب للجمارك في مبنى قديم تم ترميمه ومبنى اداري صغير فيه كاتبان أحدهما عربي وقد توفي والثاني هندي من ولاية البنجاب وقد تقاعد اخيرا . أما ادارة المستشار فقد تم تأسيسها عام ١٩٢٦ .

* * *

في الفترة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٨ قمت بزيارات منتظمة على ظهر سفينة المستشفى لكل مغاصات اللؤلؤ وكان يصحبني في هذه الجولات مفتش من حكومة البحرين للتفتيش على تراخيص صيد اللؤلؤ وكاتب له ومساعد لي . وكانت السفينة تغادر المنامة في بداية الموسم وكنت أقوم خلال الموسم بأربع أو خمس جولات على المغاصات . وكانت سفينة المستشفى سفينة عادية حتى عام ١٩٣٢ ولكن بعد ذلك خصص لنا احد اللنشات وكان مزودا بمحرك مما ساعد على القيام بجولات قصيرة وسريعة للمغاصات كانت تستغرق كل جولة بين ثلاثة أو اربعة أيام كما أن عملية تزويد المستشفى بالمؤن والأدوية أصبحت أكثر يسرا وسهولة كما استطعت بذلك أن انقل المصابين بحالات خطيرة كالحمى أو الالتهاب الرئوي الى المستشفى داخل البحرين .

كنت ازور كل المغاصات حول البحرين شمالا وشرقا وكنا نرتاح لبعض الوقت في جزر حوار او فشت الديبل أو جراده كما كنا نتزود احيانا بالماء العذب من خور فشت . وفي السنوات الأولى التي كنت أزور فيها المغاصات بصورة منتظمة كانت هناك حوالي ٧٠٠ سفينة بحرينية تعمل في شمال البحرين وكنت أحيانا أصادف بعض السفن السعودية أو الكويتية أو القطرية ولكنها لم تكن تزيد على ٥٠ سفينة في

المنطقة كلها . وكنا نصادف احيانا سفينة كويتية كانت تزور البحرين للتجارة وتمارس الغوص على اللؤلؤ اثناء رحلتها بينما اقتصر نشاط السفن السعودية على صيد السمك بالقرب من البر الرئيسي أما بعض السفن السعودية الكبيرة فكانت تبحر بعيدا عن الشاطىء وتتجه للشرق . وقد لاحظت في السنوات الاخيرة لخدمتي على السفينة المستشفى انخفاضا في عدد سفن صيد اللؤلؤ لكن أكثرها كانت لاتزال بحرينية وظلت نسبتها كما كانت في السنوات الاولى .

وفي جولاتي كنت أزور كل سفن البحرين وأعالج كل العاملين عليها بغض النظر عن جنسية المرضى وعلى الرغم من أنني لم أزر سفنا غير بحرينية بصورة منتظمة الا انني كنت اقدم المساعدة الطبية لكل من يطلبها من هذه السفن دون تفرقة .

وكان لا بد ان يكون لدى كل سفينة من سفن الغوص ترخيص بالعمل وكان المفتش الحكومي الذي يرافقني يقوم بفحص هذه التراخيص وكان كاتبه يسجل أسماء قادة السفن وعدد الغواصين في كل سفينة .

* * *

أثناء عملي كنت أسمع حكايات من الغواصين معظمها يدور حول تعرضهم للهجمات من البدو المسلحين الذين كانوا يهاجمونهم من البر الرئيسي في زوارق صغيرة . وكانت هذه الهجمات تقع بالليل في الظلام الدامس وعندما يكون الغواصون غارقين في النوم العميق بعد يوم من العمل الشاق . وكانت هذه الهجمات تستهدف التجار الذين لديهم كميات كبيرة من اللآلىء والأموال كما كان المهاجمون يستولون على الأرز والمؤن الاخرى . ولكن سفينتي والسفن المجاورة لها اثناء جولاتنا لم تتعرض على الاطلاق لأي من هذه الهجمات ذلك لأن اللون الابيض لسفينة المستشفى كان يدل على انها سفينة حكومية مما كان يحميها ويحمي السفن المجاورة لها من هذه الهجمات .

وقد أخبرني بعض صيادي اللؤلؤ بأن (النواخذة) كانوا رجالا مستبدين وانهم كانوا يعاملونهم بغاية القسوة كما كانوا يجوعون الغواصين الذين لا يمتثلون لأوامرهم لكنني شخصيا لم أصادف مثل هذه الحالات ذلك لأن حكومة البحرين كانت متيقظة وكانت تستمع لأي شكوى يتقدم بها الغواصون كما كان من حق اي غواص ان يطلب تعويضا عن اى ظلم تعرض له اثناء موسم الغوص . واذا مات أحد على ظهر احدى السفن فإن جثته كانت تنقل الى البحرين ويتم ابلاغ الحكومة بالوفاة كما كان يجرى فحص الجثة قبل التصريح بدفنها ولم تلق جثث في البحر قط .

اما سفن الغوص فكانت ثلاثة انواع :

سفينة كبيرة تحمل بين ٦٠ شخصا بينهم حوالي ٣٠ أو ٣٥ غواصا والباقون من السيوب وغيرهم من العمال بالاضافة الى النوخذة وقائد السفينة . أما السفينة المتوسطة فكانت تحمل بين ٤٠ و٥٠ شخصا والصغيرة بين ١٠ و١٥ شخصا . ولما كان عدد السفن يتراوح بين ٦٠٠ و٧٠٠ سفينة فإن عدد الاشخاص الذين يشتركون في موسم الغوص كان يتراوح بين ٢٠ و٢٥ الف شخص . وكان بينهم عدد كبير من الوافدين من الساحل الايراني والجزيرة العربية يجلبهم أصحاب السفن البحرينيون للعمل بشروط مغرية . وقد سمى معظم المغاصات بأسماء عائلات بحرينية عربية شهيرة وهي العائلات التي اكتشفت هذه المغاصات

سواء داخل المياه الاقليمية او خارجها .

وقد تاثرت تجارة اللؤلؤ ايضا بسبب الكساد الاقتصادي الذي اصاب العالم كله في عام ١٩٢٩ وسجلت تجارة اللؤلؤ تدهورا مستمرا فيما بعد مع انها كانت مصدرا رئيسيا للاستقرار الاقتصادي . اما السفن التي مازالت تمارس صيد اللؤلؤ حتى اليوم (نوفمبر ١٩٥٥) فهي لا تزيد على ست سفن في موسم للصيد يستمر لأربعة أشهر وعشرة ايام .

* * *

كان الغواصون يبدأون عملهم مع مطلع الشمس وذلك بعد افطار خفيف يتكون من عدة تمرات وفنجان أو فنجانين من القهوة . وكان العمل يستمر حتى غروب الشمس حين يتناول الجميع عشاء ثقيلا يتكون من الأرز المقلي في عصير التمر وكمية كبيرة من السمك المشوى والتمور وكانوا يستخدمون كميات كبيرة من الدهن في اعداد الأرز الحلو .

وكان الغواص يضع ضاغطا على أنفه كما كان يغطي رؤوس أصابعه بقفاز مصنوع من جلد البقر . ولم يكن يرتدي الا مئزرا أو سروالا قصيرا . وكان يغوص مستخدما ثقلا مربوطا بحبل رفيع ويحمل معه سلة خفيفة مصنوعة من الحبال ومربوطة بحبل . اما الثقل فكان يسحب الى سطح الماء بعد ان يصل الغواص للقاع ويبقى الغواص في القاع حيث يجمع في سرعة الاصداف ويضعها في السلة فإذا نفد نفسه هز الحبل في اشارة الى السيب وهو الرجل المكلف بسحب الغواص فيقوم على الفور وبسرعة شديدة بسحبه الى سطح الماء وعادة يقضي الغواص في قاع المغاصة حوالي دقيقة ونصف دقيقة في كل مرة ويقضي فترة الراحة بعد كل ١٠ غيصات وتعمل فرقة ثانية من الغواصين بالتناوب وفي فترة الراحة يكون الغواص في أشد الحاجة الى الانعاش بالقهوة والتمر . ومن المناظر الرائعة التي لا تنسى منظر المغاصات حيث تجتمع السفن فيما يشبه السوق الكبيرة الكثيرة الحركة والضوضاء وحيث يرتفع صوت المؤذنين معلنة عن مواعيد الصلاة .

والغواصون يعملون أثناء الظروف المواتية للطقس ولكن عندما كانت تظهر بوادر عاصفة في الأفق فإن المراكب الشراعية كانت تسرع بالابحار الى مكان آمن مثل فشت الجارم حيث تبقى هناك الى ان تنجلي العاصفة ويتحسن الطقس من جديد .

* * *

في بداية موسم الغوص وأواخره كان الغواص يصاب غالبا باحتقان في الرئتين ربما بسبب برودة الماء في القاع وكان معظم المصابين يبصقون دما ليوم أو يومين دون ارتفاع في درجة الحرارة ولكني لم أصادف حالات التهاب رئوي أو التهاب شعبي رئوي الا نادرا .

اما المصابون بأمراض الأذن فكانت نسبتهم تتراوح بين ٨٠٪ و٩٠٪ وكانت الاصابات حادة أو مزمنة وكانت مصحوبة في بعض الاحيان بنزيف والسبب يرجع الى تأثير ضغط الماء على الغشاء الطبلي للأذن . وكانت الصحة العامة للغواصين رديئة جدا وذلك بسبب تناولهم وجبة واحدة في اليوم وبسبب عدم توازن الطعام وافتقاره لكثير من العناصر مع عملهم الشاق . لقد كانت السفن تبقى في البحر لمدة طويلة وكان الغواصون يعانون كثيرا اما الآخرون كالمجدفين والسيوب فكانوا يتمتعون بصحة جيدة .

* * *

كان تجار اللؤلؤ

يتحركون في مراكبهم الخاصة لشراء اللؤلؤ من سفن الغوص وفي بعض الاحيان كان عدد كبير من التجار ياتون الى المغاصات حيث يعقدون صفقات رائجة جدا وقد قام بعض اصحاب رأس المال من فرنسا وبريطانيا بزيارة البحرين وكان تواجدهم في السوق يؤدي الى رفع الاسعار بالنسبة للؤلؤ . وكان الهنود ذوو الخبرة يحضرون لشراء اللؤلؤ بملايين الروبيات لتغطية احتياجات شبه القارة الهندية من هذه الجواهر . وكانت اللآلىء الممتازة تجد سوقا رائجة في كل من لندن وباريس حيث كان يقبل عليها اصحاب الملايين من السياح الامريكيين لذلك ازدهرت سوق اللؤلؤ في هاتين المدينتين . ولكن بسبب الكساد العالمي فقد بدأت تجارة اللؤلؤ في التدهور ابتداء من الثلاثينات يضاف الى اسباب التدهور عدم اهتمام الجيل الجديد بالغوص بسبب ما يتطلبه من جهد ومشقة وما يتطلبه ايضا من الابتعاد عن المدينة والبقاء في البحر لمدة طويلة . وفضل كثير من الشباب وخاصة المتعلمين الالتحاق بوظائف في شركات النفط بكل من البحرين والسعودية نظرا لما توفره الوظيفة من دخل ثابت ومستقر وقد ادى ذلك الى ظهور نقص شديد في الايدي العاملة في الغوص على اللؤلؤ وتدني الحصاد السنوي حتى لم يعد يجاوز حاليا (سنة ١٩٥٥) الـ خمسة ملايين روبيه سنويا مقابل ٥٠ أو ٦٠ مليونا في العشرينات والثلاثينات .

* * *

كما ذكرت من قبل فقد بدأت عملي في البحرين من أجل تقديم الخدمة الطبية للعاملين في مغاصات اللؤلؤ . وعقب انتهاء موسم الغوص في سبتمبر عام ١٩٢٥ توليت العمل في مستوصف المحرق الذي انشاه سمو شيخ البحرين . والمحرق هي ثاني أكبر جزر البحرين وكان يسكنها في ذلك الوقت معظم أفراد العائلة الحاكمة كما أقام عدد من كبار التجار مستودعاتهم ومحلاتهم بها واصبحت المحرق هي المقر الاداري للدولة تقريبا . وكان الدبلوماسيون الاجانب والاعيان والوجهاء يترددون عليها باستمرار للسلام على سمو الشيخ عيسى بن علي حاكم البلاد وكان المستوصف يقع في دكان صغير طوله ٢٠ قدما وعرضه عشرة اقدام وله باب كبير في المقدمة ونافذة صغيرة في جانب واحد وتنقصه التهوية والاضاءة . وكان يديره قبل حضوري للبحرين طبيب من طائفة البهرة ويمارس العلاج فيه على اساس الطب اليوناني الشعبي القديم . وتصادف بمجرد استلامي العمل في المستوصف أن وقع حادث سيارة مما ادى لوفاة أحد الاشخاص واصابة عدد آخر بجراح ولم تكن بالمستوصف أي ضمادات أو ابر لخياطة الجروح أو خيط كما ان المستوصف نفسه كان من الصعب الوصول اليه بالسيارات نظرا لسوء الطرق المؤدية اليه . وقد بذلت اقصى جهدي لاسعاف الجرحى بكل ما أمكنني تدبيره من مواد وعند وصولي الى بيتي الذي أعد بسرعة في العاشرة مساء كانت هناك كارثة في الطريق ، ففي هذه الساعة المتأخرة تعرضت البحرين والمنطقة المحيطة بها لعاصفة مرعبة فاجأت مئات السفن التي كانت راسية في المغاصات والتي كان آلاف العاملين عليها يرقدون في سبات عميق بعد يوم عمل شاق دون ان يشعروا ببوادر الكارثة في هذه الليلة المشئومة . وفي الصباح التالي أسرع الآلاف

بعد الكارثة أسرعت للمغاصات حيث مات

حوالى ٥٠٠٠ شخص ولم ينج سوى واحد

من الرجال والنساء والاطفال الى الشاطىء وقد ارتفع صراخهم وبكاؤهم وهم يحدقون في البحر في ذهول دون ان يعرفوا شيئا عن مصير اقربائهم . وقد تلقيت تعليمات بالتوجه الى البحر في لنش المعتمدية لتقديم المساعدة الطبية وانقاذ من بقى على قيد الحياة . وقد وجدنا مئات السفن مقلوبة وطافية فوق سطح الماء ولكننا لم نجد أثرا للضحايا فيما عدا شخصين تعلقا بحطام احدى السفن وقد توفى احدهما من التعب قبل ان نصل للميناء . وقد بلغ عدد الغرقى حسب التقديرات المعتدلة خمسة آلاف شخص . وقد ظل مكتب البرقيات مشغولا لمدة اسبوع دون توقف في ارسال واستلام الرسائل من والى اقارب الاجانب العاملين في البحرين للاطمئنان عليهم . وقد تم نقل المستوصف مرتين ولكن ظلت مشكلة التهوية والاضاءة ولم نحصل على اكثر من منضدتين للمرضى حتى عام ١٩٣٨ عندما وصل في ذلك العام أول طبيب رسمي لدولة البحرين كما تم انشاء اول دائرة صحية وفكر هذا الطبيب في نقل المستوصف الى مكان جديد أوسع وافضل تهوية واضاءة ويتوفر له الماء النقي .

* * *

كانت الملاريا من الامراض المهلكة التي فتكت بعدد كبير من الضحايا بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٥ . وكان عدد المصابين يزداد كثيرا في الفترة بين مايو ويوليو وبين نوفمبر ويناير . وقد كنا نستخدم كميات كبيرة من الكينين كل عام للتصدى لهذا المرض المستوطن مما أدى الى ارتفاع اسعار الكينين في السوق لتصل الى ٤٠ روبية للرطل . وفي بعض الأوقات كان هذا الدواء يختفي من السوق تماما . وقد قامت حكومة البحرين بحملة كبيرة للتصدي لهذا المرض فحشدت عددا من الاخصائيين ومساعديهم من الهند وشكلت لجنة لمكافحة الملاريا تضم الموظفين الحكوميين وموظفي البلدية والرجال البارزين وبذل المعتمد السياسي جهودا خاصة لوضع خطط استئصال هذا المرض والآن لا نجد مصابا واحدا به سوى بعض الوافدين من المناطق المجاورة مثل ايران ودبي والجزيرة العربية . ومنذ تشكلت الدائرة الصحية بالبحرين يجرى كل عام حملة تطعيم لمواجهة الجدري وهو المرض الذي كان مستوطنا في الماضي . وترسل دائرة الصحة الآن (١٩٥٥) فرق التطعيم الى كل قرية ومدرسة مع فحص كل



● سمو الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة يحضر حفلة استقبال في منزل الدكتور بندركار في بومباي في نوفمبر ١٩٦٣ ●

المسافرين والقادمين والتاكد من حمل كل القادمين لشهادة تفيد التطعيم ضد الجدري كما هو متبع في البلدان المتقدمة. وتبذل دائرة الصحة جهدا كبيرا في تعزيز المعدلات الصحية خاصة بين اطفال المدارس فيزور طبيب رسمي المدارس والمعاهد العامة بصفة منتظمة لفحص التلاميذ ومتابعة مرض التراخوما المنتشر بينهم. وتوالي دائرة الصحة اتخاذ اجراءات الوقاية من الملاريا وهي تحشد مئات العمال لرش الاسواق والمستودعات والاحياء بمادة الـ د. د. ت للقضاء على البعوض والذباب وكذلك رش البالوعات والمجاري بالنفط للقضاء على اليرقات.

ويراقب مفتشو دائرة الصحة العامة المؤهلون بدقة كل الاسواق والفنادق والمطاعم والمرافق العامة في البحرين الحديثة وهي خطوة جديرة بالتقدير. وقد أصبحت دائرة الصحة العامة الآن (١٩٥٥) تحتل مبنى جديدا رائعا ويعمل بها عدد كبير من الكتاب والممرضين تحت اشراف طبيب انجليزي واثنين من المساعدين الهنود احدهما يهتم بالحجر الصحي والآخر بالعيادات المدرسية التي يزداد عددها يوما بعد يوم لمواكبة تزايد المدارس

* * *

وفي عام ١٩٢٥ لم يكن هناك الا مؤسستان طبيتان في المنامة وهي الجزيرة الرئيسية في مجموعة جزر البحرين:

● مستشفى فيكتوريا التذكاري تحت اشراف الطبيب الجراح للمعتمدية البريطانية وقد انشىء هذا المستشفى أصلا من أجل موظفي المعتمدية لكنه كان

يفتح ابوابه للجميع .

● مستشفى الارسالية الامريكية وقد تاسس قبل بداية القرن الحالي وتتوافر فيه اماكن لاقامة المرضى كما تتوافر فيه التجهيزات اللازمة لاجراء العمليات الجراحية ويعمل به جراحون ذوو كفاءة ويتمتعون بشعبية كبيرة وقد غادروا هذه الشواطىء مصحوبين بكل الاعزاز والتقدير ويبرز من بينهم الدكتور باول هاريسون الذي أمضى أكثر من نصف قرن بين عرب الجزيرة العربية ودول الخليج الاخرى الممتدة من مسقط الى الكويت وقد قام باجراء مجموعة من الجراحات النادرة كللت بالنجاح رغم الظروف الصعبة التي أجريت فيها . وقد تم توسيع هذا المستشفى واصبح يوجد به جناحان احدهما للرجال والآخر للنساء وهما مجهزان بأحدث المعدات الطبية والجراحية ووحدة للاشعة السينية ومختبر . ويقبل على المستشفى مئات المرضى يوميا .

● وقد انشىء المستشفى الحكومي بالبحرين في بداية عام ١٩٣٨ ثم شهد بعد ذلك تقدما رائعا بسبب التخطيط الدقيق والاهتمام الكبير من الحكومة ويضاف اليه كل عام مبنى جديد لتوفير اكبر قدر من الخدمة للمرضى . وقد كان عدد الاسرة في البداية قليلا جدا الا ان هذا العدد اخذ يزداد عاما بعد عام لمواجهة الزيادة المستمرة في اعداد المترددين عليه بعد ان لمسوا ما يوفره لهم هذا المستشفى من علاج ورعاية . وتغطى ابنية المستشفى مساحة تصل الى أربعة أكرات وتقع شمال غرب المنامة وهناك مجمعان يتكونان من طابقين للمرضى الداخليين من الرجال والنساء ويوجد كذلك مبنى جديد واسع يستخدم كجناح خاص لمن يريد ذلك . وتوجد أجنحة خاصة في الأقسام الطبية والجراحية والبصرية للرجال والنساء في المستشفيات . وسعة الأسرة في هذه المستشفيات غير كافية الآن (١٩٥٥) وحسب معلوماتي فإنه يجري حاليا تشييد مبان جديدة لمواجهة الطلب المتزايد من المرضى . وتعمل وحدة الاشعة السينية دون راحة يوميا كما يعمل المختبر الحديث بمساعدة الفنيين بكل طاقته . ورغم انه كان يوجد طبيب انجليزي واحد في كل قسم يساعده اثنان من الهنود الا انه يوجد الآن طبيبان في كل قسم مع حوالي ١٢ فنيا ذوي مؤهلات عالية وخبرة واسعة كما توجد اليوم ممرضات انجليزيات وهنديات ذوات كفاءة ممتازة ويجرى تشجيع الشباب العرب من الجنسين للتدريب على التمريض والتضميد . وقد بلغ مستوى الجراحة معدلا عاليا جدا بعد تعيين الطبيب الجراح المحنك المستر ولكنس اف. أر. سي. اس .

وقد انشىء مستشفيان للامراض المعدية التي تحتاج الى عزل المرضى وتعالج فيهما الامراض التناسلية والزحار والدرن . ويخرج المرضى منهما بعد تحصينهم وتعقيمهم ضد نشر العدوى . ويجدر بنا ان نذكر هنا ان الامراض التناسلية لا تشكل الآن عقبة كبيرة بسبب توافر المضادات الحيوية والكبريتات . ولكن مرض الدرن سجل ارتفاعا ملحوظا وقد افتتحت لذلك عيادة خاصة بالامراض الصدرية واصبح الناس أكثر وعيا مما ساعد على الاكتشاف المبكر للاصابة وعلاجها على وجه السرعة .

* * *

وكما اتذكر فلم تكن هناك شوارع جيدة لمرور السيارات في السنوات الاولى لقدومي للبحرين مع انه كانت بالبحرين بضع سيارات ولم يكن في استطاعة البلدية بناء واصلاح الطرق في السوق . وقد ظهرت هذه المرافق العامة الى حيز الوجود عندما قرر كل من صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى والشيخ سلمان بن حمد تحديث البحرين خلال ٣٠ سنة .

ونشاهد اليوم ثمار جهودهما في البحرين الحديثة والجميلة ، ففي كل مكان نرى الشوارع المرصوفة والواسعة والاسواق والمباني الجميلة والدوائر الحكومية الحديثة ، كما نشاهد باب البحرين الجميل حيث يتسلم حاكم البحرين فيه طلبات رعاياه والتماساتهم كل يوم ، كما نشاهد المحاكم التي تجري امامها المرافعات والتي تصدر الاحكام القضائية مثل أي بلد متقدم . وتتوسع وزارة التربية والتعليم كل يوم حيث تشرف على عدد من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية كما تم تشييد مبان حديثة جميلة لهذه المدارس . وتبذل الوزارة جهدا لترويج البرامج التعليمية والدراسات المتقدمة ودراسة التكنولوجيا للبنين والبنات . ولم تكن توجد في بداية العشرينات سوى مدرستين للبنين احداهما في المحرق والاخرى في المنامة ويبلغ عدد طلبتهما ٦٠٠ طالب أما الآن فنجد المدارس الابتدائية في كل قرية كبيرة كما نجد مدرستين ثانويتين للبنين والبنات في مبان مختلفة ، ويبلغ عدد الطلبة اكثر من ٨٠٠٠ يدرس لهم المدرسون الاكفاء ذوو المؤهلات العالية في كل من مصر وسوريا ولبنان ويتخرج في المدرسة الفنية النجارون والميكانيكيون كل سنة حيث يتم توظيفهم في شركة النفط (بابكو) والشركات الاخرى المهتمة بالبناء . ويحصل الطلبة الاذكياء على منح دراسية لمواصلة الدراسة العليا في العراق ومصر ولبنان ، كما يرسل بعض الاثرياء ابناءهم الى انجلترا للدراسة ذلك ان اولياء الامور حريصون على تعليم ابنائهم . ويراس دائرة التربية والتعليم عربي من اسرة بارزة في البحرين وهو رجل كفء في شئون التنظيم ذكي ومتفان في عمله لتوفير فرص التعليم لابناء بلاده وهو يستحق التقدير والثناء لما قام به في هذا المجال .

وتعمل دائرة الجمارك وسلطات الصحة العامة في ميناء البحرين بيقظة تامة ويؤدي رجالهما واجباتهم المختلفة بهمة وغالبية الموظفين من العرب الذين تدربوا في البحرين . ولا يمكن ان نغفل اهمية القانون والأمن فرجال الشرطة والأمن العام مدربون على أعلى مستوى وهم ذوو كفاءة عالية ويعمل في هذا المجال ضباط عرب من الشباب جديرون بكل ثقة ويوجد البوليس في كل تقاطعات الطرق ينظمون المرور وكذلك في الاسواق للحفاظ على الامن والسلام والأمر الذي يدعو للاطمئنان ان رئيس الشرطة هو شيخ من الاسرة الحاكمة .

* * *

عندما وصلت لهذا البلد الكريم سبق لجد الحاكم الحالي وهو سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ان بقي في الحكم لاكثر من نصف قرن وكان يناهز الثمانين من عمره آنذاك فتم تفويض سلطة الحكم الى ابنه الاكبر وخلفه سمو الشيخ حمد بن

عيسى آل خليفة الراحل ووالد الحاكم الحالي صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة .

وقد كان لي شرف زيارة صاحب السمو الراحل الشيخ عيسى بن علي آل خليفة بصفتي طبيبا أكثر من مرة وقد عالجته مرة من بعض الجروح التي أصيب بها إثر سقوطه . وآخر مرة اسرعت الى سموه عند اصابته بنوبة قلبية توفي بها نتيجة الشيخوخة .

وكان سموه رجلا كريما للغاية واشتهر بالكرم بين رعاياه والاجانب على حد سواء . واعضاء الاسرة الحاكمة والحكام انفسهم يحبون الرياضة والقنص بالصقور فيزورون العربية السعودية لهذا الغرض قبل بداية موسم الشتاء مصطحبين معهم قافلة ضخمة من السيارات وسيارات الجيب التي تحمل المحروقات والأطعمة والصيادين . وفي بداية هذا القرن كان العرب يقومون بالصيد على ظهور الجمال لكنهم الآن (١٩٥٥) يستخدمون السيارات الجيب في مطاردة الفرائس . ويبدأ القنص قبل طلوع الشمس وهم ينطلقون بسرعة لمسافة مئات الاميال وراء فريستهم التي قد تكون طائر الحباري ويرجعون للمخيم في المغرب بأكياس ممتلئة بعدد كبير منها ويحمل الصياد صقرا مدربا على ذراعه ويرفع الغطاء عن عينيه عندما يريده ان ينطلق فيحرك الصقر عينيه برهة وينظر في كل الاتجاهات وهو يلاحظ أي حركة في أي شجيرة مهما كانت بعيدة فينطلق نحوها للانقضاض على الفريسة . وتشعر الحباري لدى انطلاقه بالخوف فتطير تجنبا لمطاردة الصقر ويبدأ القتال بينهما في الجو ثم سرعان ما يسقطان على الارض ويسرع الصيادون عندئذ لانقاذ الفريسة من مخالب الصقر ثم يعطونه قطعة من قلب او كلية فريسة أخرى تشجيعا له كي يكرر العملية . وتوجد الصقور في شمال ايران حيث يتم الحصول عليها ويساوي الصقر بين ٢٠٠ و١٠٠٠ روبيه حسب سلالته ومستوى تدريبه ويتم تقييم الثمن بواسطة اخصائيين في ذلك . ويدوم القنص عادة لأربعين يوما ويبلغ الحصاد أكثر من ألف طير من طيور الحباري وبعض الغزلان .

وقد اتيح لي في عام ١٩٤١ ان اشارك في القنص ، فقد كان سمو المغفور له الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة يحب القنص وقد شارك في قنص هذا العام وشارك معه ايضا المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود عاهل العربية السعودية وابناؤه وآلاف من رجال البادية كما شارك فيه ايضا حاكم الكويت المغفور له الشيخ احمد الجابر وقد اقيم مخيم القنص بالقرب من الكويت في مكان يسمى القيصومة وبدأ المخيم كمدينة جميلة مزينة بالاعلام والرايات وكان الحكام الثلاثة يغادرون المخيم للقنص بصحبة ابنائهم وأقاربهم بعد صلاة الفجر مباشرة وعقب افطار سريع يتكون من القهوة والتمر ، وكانوا خلال القنص يجتمعون في مكان واحد متفق عليه لتناول الغداء وصلاة الظهر ثم يباشرون بعد ذلك القنص حتى مغيب الشمس . وقد أقام الملك عبدالعزيز لضيوفه مأدبة عشاء قدمت فيها الخراف المشوية والطيور واكوام من الارز والفواكه وكذلك اقام كل من حاكمي البحرين والكويت مأدبة مماثلة وكانت اعداد السيارات وسيارات الجيب

وسيارات النفط والسيارات الكبيرة لركوب الحكام تكون قافلة رائعة المنظر عند خط الأفق وهي تثير سحابة من الغبار والرمال تمتد لعدة أميال. وكان حصاد القنص في هذه السنة ٣ الاف من طيور الحبارى و١٠٠ رأس من الغزلان. وكانت سن المغفور له الشيخ حمد تزيد على ٧٥ عاما وكان يتبع نظاما صارما في الأكل فرضه الاطباء حفاظا على صحته. وقد شاركت في القنص بصفتي طبيبا لصاحب السمو وقد عالجت اثناء الرحلة عددا من البدو وأطلعت على بعض عاداتهم. وقد توفى صاحب السمو بعد شهر من عودته من هذه الرحلة. وكان رحمه الله كريما نحو رعاياه وقد قام بتنفيذ مجموعة من الاصلاحات فاقام مستشفى

حكوميا جديدا وعددا من المستوصفات ومجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات ودائرة للاشغال العامة وعددا من الدوائر العامة التي تعمل كلها لتوفير الرفاه للمواطنين. وقد قام سموه بزيارة انجلترا مرتين بدعوة من الحكومة البريطانية وقد حاول الى حد ما تحديث البحرين على غرار ما شاهده في انجلترا. وقد تولى الحاكم الحالي صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة الحكم في عام ١٩٤١ وهو أيضا مولع بالقنص بالصقور ولكنه مشغول كثيرا بشئون الدولة وقد حظى سباق الخيل باهتمام ملحوظ في الفترة الاخيرة. ويقام السباق مرتين في العام وينفق العائد منه من اجل المرضى المصابين بالدرن الذين يحتاجون للعلاج بالخارج. وتقام المباريات الرياضية كل عام تحت اشراف سلطات التربية والتعليم ودائرة الشرطة وبحضور صاحب السمو وضيوفه الكرام ويحصل الفائزون على الجوائز والهدايا من صاحب السمو. وتشهد البحرين انتعاشا في كل المجالات وخاصة في الاعمال التجارية.

* * *

وفي الختام ليس لي الا ان أعبر عن امتناني وتقديري للبحرين وشعبها التي كانت بمثابة امي التي عشت في حضنها لأكثر من ٣٠ عاما كما أشكر اسرة آل خليفة التي حظيت برعايتها طوال مدة اقامتي وما كان يمكن ان أواصل عملي طوال هذه الفترة لولا هذه الرعاية الكريمة.

نوفمبر ١٩٥٥

* * *

ومما يذكر أن الدكتور بندركار كان صديقا لكل أهل المحرق وكان يعرف كلا منهم باسمه، وكانوا هم يطلقون عليه اسم عيسى اعتمادا على الحروف الأولى من اسمه (ايه. إس) وكان الدكتور بندركار يشارك في كل الأعياد والمناسبات لأهل المحرق وكان شديد الحماس للمناسبات الاسلامية وقد أطلق على أولاده اسماء اسلامية فسمى أحد أبنائه باسم عبدالله وهو يعمل الآن في الشئون القانونية باحدى الشركات بالبحرين.

وقد رزق بندركار بستة أبناء وبنتين اشتغل ثلاثة منهم بالطب، تعمل واحدة منهم في البحرين حاليا وقد توفى د. بندركار عام ١٩٦٤

وقائع اجتماعات الدورة العاشرة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية

الكويت ٢١ ـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧

في اجتماعات الدورة العاشرة للامانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية التي عقدت بالكويت في الفترة من ٢١ وحتى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م تم اقرار توصية تقول : انه نظرا لوجود مجلات متخصصة مثل (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية) في الكويت ومجلة (الخليج العربي) في البصرة ومجلة (الدارة) بالسعودية ومجلة (الوثيقة) البحرينية ومجلة (دراسات يمنية) في صنعاء فانه يستحسن أن تنشر وقائع الجلسات وتوصيات الدورات وكذلك الابحاث السنوية في هذه المجلات وذلك تعميما للفائدة واقتصادا في النفقات وذلك بدلا من الكتاب السنوي .

واستجابة لهذه التوصية فإن (الوثيقة) تنشر على الصفحات التالية وقائع اجتماعات الدورة العاشرة .

انعقدت اجتماعات الدورة العاشرة لمراكز الدراسات والوثائق فى الخليج العربي والجزيرة العربية تحت رعاية حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت وذلك فى الفترة ما بين ٢٩ ربيع الأول الى ٢ ربيع الثانى ١٤٠٨هـ الموافق ٢١ ـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م .

وقد بدأ حفل الافتتاح فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ٢١ نوفمبر ١٩٨٧م بآيات من الذكر الحكيم ثم افتتح الدورة معالى وزير التربية الرئيس الأعلى لجامعة الكويت نيابة عن صاحب السمو أمير دولة الكويت وقد ألقيت فى حفل الافتتاح كلمة ممثل صاحب السمو أمير الكويت ، ألقاها الاستاذ أنور عبدالله النورى وزير التربية الرئيس الأعلى لجامعة الكويت . وقال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوة والاخوات .

يشرفني أن أنوب عن صاحب السمو أمير البلاد ، الشيخ جابر الأحمد الصباح حفظه الله ، فى افتتاح اجتماعات الدورة العاشرة لمراكز الدراسات والوثائق فى دول الخليج العربي والجزيرة العربية .

ولقد تفضل سموه حفظه الله ، فشمل دورتكم هذه برعايته . وهى رعاية كريمة لها مدلولها على اهتمام صاحب السمو أمير البلاد بمثل هذه اللقاءات ، ودعمه لها وتشجيعه المتواصل عليها . إذ ان مثل هذه اللقاءات والاجتماعات ، بين الاخوة فى الخليج والجزيرة العربية ، تعزز مسيرة دول مجلس التعاون الخليجي ، التى يحرص سموه دائما على تقوية أواصرها ، لما بينها من علاقات خاصة ، وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها السامية ، وتشابه أنظمتها ، ووحدة تراثها ، وتماثل تكوينها السياسى والاجتماعى والسكاني وتقاربها الحضارى .

ومن دواعى سروري ان تستضيف الكويت ، من خلال مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، هذه الدورة برحابة صدر على نحو ما عودتنا دائما . وأن تضع لها كافة الامكانات المتاحة ، مادية كانت أو معنوية ، حتى تؤتى هذه الدورة ثمارها المرجوة ، بما يحقق الخير والامان لمنطقتنا العزيزة .

ومن الحق فى هذا المقام ، أن أشير إلى أن انشاء الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق فى دول الخليج والجزيرة العربية ، يعد بلا ريب حدثا متميزا فى تاريخ البحث العلمى ، فى منطقة الخليج والجزيرة العربية . ذلك أنه جاء تعبيرا صادقا ، وانعكاسا حقيقيا لطموح أبناء المنطقة ، وتأكيدا لصدق النوايا الخيرة فى تعزيز أسس التعاون ، من خلال طرق البحث العلمى عن أحوال المنطقة ، سواء كان ذلك فى ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها .

إن منطقة الخليج والجزيرة العربية ، كما تعلمون ، وفى هذه

المرحلة بالذات ، يجب أن تحتل مكانتها بين الأمم ، لا عن طريق ثرواتها وحدها ، ولا عن طريق موقعها الاستراتيجي فحسب ، بل كذلك من خلال الاسهام العلمي والحضارى والثقافي . لنعيد الى الاذهان ، أمجاد حضارتنا العريقة ، التى كان لها تأثير واضح فى تقدم الأمم وتفوقها ، فى مختلف مجالات المعرفة . ولنستأنف مسيرتنا العلمية الحضارية في الركب العالمي .

ولا شك أن ما وصلت اليه منطقتنا فى الماضى ، لم يكن حدثا عابرا ، وإنما كان أمرا فريدا بجميع المقاييس . كانت حضارتنا معتمدة فى انطلاقها على عقيدتنا السمحة وديننا الاسلامي الحنيف ، الذى طلع على هذا الوجود نورا متلألئا ناصع الاشعاع ، من ربوع منطقتنا العربية ، من مكة بالذات ، وهجير بطحائها المتوهج ، وأفاء بظله الوارف على أرضنا الواسعة . فجمع شتات العرب ، ووحد قواهم ، وأمدهم بروحانية من السماء تمثلت فى عقيدة تسامت فى غاياتها عن الماديات ، وارتفعت بتعاليمها عن كل تعاليم البشر . فقوى شأن العرب أهل هذه العقيدة ، وطفقوا ينشرون العلوم والآداب والثقافة والحضارة فى أرجاء المعمورة .

أيها الاخوة والاخوات :

فى هذا الاطار من ماضينا العلمي ننظر اليوم الى انعقاد هذه الدورة للامانة العامة فى الكويت ، متطلعين الى الخطوات التنفيذية التى تزمع الامانة اتخاذها ، لتكون خطوة على طريق التقدم العلمى الذى نصبو اليه .

وأول خطوة أود أن أنادى بها هنا لتحقيق هذا الهدف ، هى أن تعمد الامانة العامة ومراكزها المتخصصة المنتشرة فى هذه المنطقة ، الى الاستعانة بالمتخصصين من أبناء المنطقة لاعادة كتابة تاريخنا ، وفق منهج علمي رصين ، يعتمد على الوثائق المحققة التى تزخر بها مكتبات العالم ودور الوثائق ، وبعقل عربي وروح عربية أصيلة لتخليص تاريخ منطقتنا من الادران والشوائب التى علقت به ، وتحليل مواده واحداثه ، واعطائه حقه من التفسير .

وانتم تعلمون ، أن تحقيق هذه الخطوة المرجوة انما يتم من خلال الاتصالات المباشرة وغير المباشرة ، بمراكز الدراسات والوثائق العربية والاجنبية على حد سواء . ان دعم الاتصال بالمراكز الاجنبية ، فى تقديري ، عمل لا يقل أهمية عما تبذله الامانة العامة من جهد على النطاق الاقليمي . وهذا يتطلب تكثيف الجهد المبذول ، لتبادل البحوث مع مناقشة ما فيها من نتائج حتى تتاح لنا وللمؤرخين والباحثين الاجانب ، معرفة حقيقة بعض المفاهيم التى لم تسعفهم أدواتهم فى الوصول اليها . وضيوفنا العلماء الاجانب الكرام ،

الذين نشكر لهم تلبية هذه الدعوة ، هم بيننا فى اطار هذه الرؤية .

ولا أعنى بهذا القول ، أن تقتصر مهمة الامانة العامة على هذا الجانب التاريخي ، وانما يطلب منها كذلك ، أن تشجع البحوث العلمية المتخصصة . وأن تضع الحلول للمشكلات والمعوقات التى تعترض مسيرة مجتمعنا فى الخليج والجزيرة العربية . وذلك من خلال بحوث أبنائها المتخصصين ، ومن خلال ايجاد صيغة عمل مشترك بين مجتمعاتنا ، على نحو يقلل من المخاطر التى تعترض مسيرتنا الخيرة .

ايها الاخوة والاخوات :

فى هذه الآونة التى تمر بها منطقتنا وأمتنا العربية ، وهى فى حاجة الى مزيد من الترابط والتواصل بين أبنائها ، يطيب لي أن أنقل اليكم تمنيات صاحب السمو أمير البلاد ، وولى العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح حفظهما الله ، لاجتماعكم هذا بالنجاح التام ، والتوفيق فى تحقيق أهدافكم العلمية الخيرة . وأدعو الله العلي القدير ، أن يوفقهما واخوانهما قادة دول مجلس التعاون ، لما فيه الخير لهذا الجزء الغالي من الوطن العربي الكبير .

والسلام عليكم ورحمة الله .

بعد ذلك أعطيت الكلمة لسعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية الذى بدأها بتحية للكويت أميرا وحكومة وشعبا وأكد على الاخوة القائمة وقال ان ما يصيب الكويت يصيبنا ويكدرنا وأن ما يفرح الكويت يفرحنا . ودعا للكويت أميرا وحكومة وشعبا بالتوفيق والسداد تحت قيادة أميرها المفدى الشيخ جابر الأحمد الصباح وحكومتها الرشيدة برئاسة سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله الصباح .. ثم ألقى سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الكلمة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

معالى الأخ عبدالله النوري الممثل الشخصي لصاحب السمو أمير دولة الكويت المفدى السادة أصحاب المعالى الوزراء الاخوة مدراء المراكز .

الاخوة والاخوات الافاضل .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

أرجو أن تسمحوا لي أن أوجه باسمكم خالص الشكر والتقدير لصاحب السمو أمير دولة الكويت وحكومتها وشعبها وجامعتها على استضافة هذه الدورة . وعلى كرم الوفادة الذى قوبلنا به على هذه الارض الطيبة ، ثم على كلمة معالى الوزير الاستاذ أنور النوري ممثل صاحب السمو التى تؤكد مدى اهتمام دولة الكويت بالعمل الكبير الذى يجرى داخل المراكز المنتشرة الآن على الساحة الخليجية كلها ، والتى

تتصدى بنشاط ملحوظ ومشكور، لعمل من أهم الأعمال التى تؤصل تاريخ هذه المنطقة الخصب . وتدفع بحركة التوثيق والتأريخ خطوات واسعة للامام .

الاخوة الأفاضل :

ان تواصل هذه اللقاءات . الذى جاء بنا الآن الى الدورة العاشرة ، هو أبرز الخطوات الايجابية فى عملكم الكبير . ذلك أن اللقاء المباشر فى مثل ما نتصدى له من عمل . إنما يساعد وبصورة فعالة ، على تبادل الخبرة والتجربة ، ومناقشة ما يمكن أن يعترض السعى المتواصل والحثيث والنشط . الذى تشهده المراكز ، من معوقات قد تحول دون أداء مهمتها الكبيرة . فتبادل الخبرة يوفر جهدا يمكن أن يوجه لمزيد من العطاء . وتبادل التجربة يوفر وقتا نحن أحوج ما نكون اليه لدفع حركة التوثيق القائمة خطوات أوسع وأسرع . نحو تحقيق الهدف المنشود . كما ان تواصل هذه اللقاءات يقيم جسورا من الود بين المراكز بعضها والبعض من ناحية . وبين المراكز والامانة العامة من ناحية اخرى . ويعمق روحا من التعاون قائما بالفعل ، ويربط بين هذه الاجهزة برباط اخوي متين .

الاخوة الافاضل :

لا جدال فى أن المراكز استطاعت وخلال السنوات الماضية ، ان توفر كما لا بأس به من الوثائق التى كانت حبيسة الارشيفات الاجنبية . حقيقة ان ما تم جمعه لا يمثل نهاية المطاف فى هذا السبيل . ولكنه أيضا يوفر لهذه المراكز المادة التى تمثل أساسا لتنشيط حركة البحث والدراسة بدرجة تواكب العمل المستمر والدؤوب فى جمع هذه الوثائق . وتصنيفها . وأعتقد ان استكمال أجهزة البحث والدراسة سواء عن طريق التفرغ أو الاستكتاب أصبح ضرورة ملحة . حتى ندفع الى المكتبة العربية والاجنبية وباستمرار . بما يسد النقص القائم فى تغطية الكثير من الاحداث التى احتشدت فى كثير من عصور التاريخ بالمنطقة ، وفى تصحيح الكثير من المقولات المغلوطة التى افرزتها أقلام بعض الكتاب الاجانب عن هذه الساحة . وكل ذلك يعود بالفائدة الكبيرة على المركز المعنى .. ثم على المراكز الاخرى نظرا للترابط العضوي الذى ربط ويربط كل دول المنطقة فى مختلف حقب التاريخ .

ان جمع الوثائق أمر طيب ومطلوب ولكن التوقف عند عملية الجمع فقط يجعلنا كمن يحرر هذه الوثائق من سجن الارشيفات الاجنبية لنضعها فى سجن الارشيفات المحلية . والكم القليل من الوثائق التى تتحول الى دراسات ، تلقى أضواء على ما غمض فهمه ، وتتيح لطلاب العلم ودارسي التاريخ ، المادة التاريخية ذات القيمة ، أكثر فائدة من كم هائل يتكدس فى الاركان والادراج . ان الاستعداد لاستقبال طارقي الابواب

من طلاب العلم قد يكون شيئا جيدا . ولكن الاجود أن نبادر نحن الى طلاب العلم ودارسي التاريخ بحشد من الدراسات والابحاث ، تكون أساسا متينا لاعادة كتابة تاريخ المنطقة على أسس علمية مدروسة وموثقة نحن لا ننكر أن بعض المراكز قد قطعت شوطا فى هذا الطريق ، ولكن ما نأمله أن يسود هذا الاتجاه كل المراكز فى المنطقة . لتعم الفائدة كل من يحيا على هذه الارض العريقة . اضافة الى أن ذلك يحقق الشق الثانى من المهمة الصعبة التى اختارتها المراكز باعتبارها مراكز للوثائق والدراسات . وقد يساعد فى هذا السبيل ، التركيز على ندوات الموضوع الواحد . وقد استطاع مركز رأس الخيمة الوليد أن يقدم نموذجا ممتازا في هذا المجال . وذلك بتخصيصه بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ندوة «عن الاستعمار البرتغالى فى الخليج العربي» فقد أمكن من خلال هذه الندوة توفير ما يزيد على العشرين بحثا . باقلام مجموعة مختارة من المؤرخين العرب ، تتناول موضوع البرتغاليين من كل زواياه ، وترسم اطارا كاملا ومتكاملا لاحدى الفترات الهامة التى مرت بالخليج ، والتوسع فى عقد مثل هذه الندوة على أساس خطة يتم الاتفاق عليها بين المراكز ويتم من خلالها تحديد الموضوعات المطلوب معالجتها ، يمكن أن يسد كثيرا من أوجه النقص فى الدراسات التاريخية لهذه المنطقة .

الاخوة الافاضل :

لقد طرح فى الدورة الماضية موضوع الخطة الطموح للاستفادة من الارشيفات العثمانية وقد قامت الامانة العامة بالكتابة الى أصحاب المعالى وزراء الخارجية وتلقت عددا من الردود التى توضح الاستعداد الكامل لبذل الجهد فى هذا الصدد . ومازلنا فى انتظار بقية الردود حتى يمكن التحرك في هذا الاتجاه وان كانت التوصية الخاصة بقيام كل مركز بنشر قائمة بجزء مما لديه من وثائق ضمن الكتاب السنوي للمراكز ، ما زالت مطلبا ملحا كخطوة مرحلية وايجابية للاستفادة مما هو متوافر فعلا داخل أرشيفات المنطقة ، وتحقيقا لما يربط بين هذه المراكز من روح التعاون الذي هو هدفنا جميعا .

ان تاريخ الشعوب هو نبعها الفياض ، الذى تستمد منه الدروس والتجارب ، وتستلهم منه ومما دار فيه من قصص للكفاح والبناء ما يتيح لها ان تختار الدروب السليمة ، التى تصل بها الى ما تتمناه وتأمله من تقدم وازدهار وأنتم كتاب هذا التاريخ وسدنته وبأيديكم يمكن ازالة ما يحجبه من استار النسيان أو الاهمال ويمكن القاء الاضواء الكاشفة على عصوره وحقبه ، لابراز قصة كفاح الانسان الخليجي مع البحر ومع الصحراء ومع القوى الاجنبية فى تصارعها وتسارعها للسيطرة على هذه

المنطقة الهامة من العالم . أيها الاخوة لا ينكر منصف الجهد الكبير الذى بذلتموه طوال السنوات الماضية فى أداء مهمتكم الجليلة التى بدأت تؤتى ثمارها فأصبحت الدوريات التاريخية التى تصدر عن المراكز بغية الكثيرين كما تزايدت الاقلام التى بدأت تتصدى للكتابة عن تاريخ المنطقة وتزايدت المطبوعات التى بدأت تغذى المكتبة العربية والعالمية بصورة ملفتة للنظر .

ولكن الطموح الكبير لا يقف عند حد وهو ما ندعو الله أن يعينكم بالتوفيق على تحقيقه .

وفى النهاية لا يسعنى الا أن أتقدم بخالص الشكر للاخوة فى مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية ، وعلى رأسهم الاخ الدكتور بدر اليعقوب على ما تجشموه من عناء فى تنظيم هذه الدورة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم تحدث بعد ذلك الدكتور بدر اليعقوب رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية التى تصدر بالكويت والمستضيفة للدورة فعرض لمنجزات المجلة ومجال انتشارها ونوعية الابحاث التى تعرض لها والكفاءات التى حشدتها للاشراف على اصدارها والأبواب التى تنقسم اليها والطموحات المستقبلية لها .

وبعد انتهاء مراسم الافتتاح انتقل الحضور يتقدمهم معالي وزير التربية الاستاذ أنور النورى ومعالى الأمين العام الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الى افتتاح معرض الكتاب الخليجي التى تساهم فيه المراكز المشتركة فى الامانة العامة وهى :

(١) دولة الامارات العربية المتحدة :

(أ) مركز الوثائق والدراسات فى أبوظبى .

(ب) مركز الوثائق والدراسات فى رأس الخيمة .

(٢) دولة البحرين :

(أ) مركز الوثائق التاريخية .

(٣) المملكة العربية السعودية :

(أ) دارة الملك عبدالعزيز فى الرياض .

(٤) الجمهورية العراقية :

(أ) مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة .

(ب) مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي .

(٥) دولة قطر :

(أ) قسم الوثائق والابحاث .

(ب) مركز الوثائق والدراسات الانسانية فى جامعة قطر .

(٦) دولة الكويت :

(أ) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية .

(ب) مركز الوثائق في الديوان الاميري بالكويت .

(٧) الجمهورية العربية اليمنية :

(أ) مركز الدراسات والبحوث اليمني .

(٨) دائرة المحفوظات والمؤلفات العمانية ـ مسقط

وفي الجلسة الاولى للدورة التي انعقدت في التاسعة صباح اليوم التالي عرض مدراء المراكز نشاطات مراكزهم لعام ١٩٨٧ والخطط المستقبلية لعام ١٩٨٨م حسب الترتيب الابجدي .

وفي الجلسة الثانية المنعقدة في الساعة التاسعة من صباح الاحد ٢٢ نوفمبر ١٩٨٧م نوقشت توصيات الحلقة التاسعة التي عقدت في أبوظبي في العام الماضي وقد طلب سعادة الامين العام أن يدرج مع توصيات هذه الحلقة جميع التوصيات السابقة ليكون هناك تقييم صحيح لنشاط المراكز .

كما أوضح سعادة الامين العام ما تم من اجراءات حول مشروع جمع الوثائق العثمانية وشرح كيف أرسلت الامانة رسائل الى وزراء الخارجية عن طريق المراكز المعنية ووصل الى الامانة تفويض من أربعة وزراء خارجية وهم :

١ ـ الامارات العربية المتحدة .

٢ ـ دولة البحرين .

٣ ـ الجمهورية العراقية .

٤ ـ دولة قطر .

وانه لايزال ينتظر الاجابات الباقية حتى يتسنى لسعادة الامين العام مفاتحة الجهات التركية وهو مفوض من جميع دول المراكز ولذا يؤكد على ضرورة متابعة المراكز لارسال الاجابات من وزراء خارجيتهم .

وقد نوقش موضوع الكتاب السنوي والتوصيات الهامة السابقة ومنها موضوع فهارس الوثائق .

وعرض الدكتور على أبا حسين نائب الامين العام مسألة انضمام المركز العربي للدراسات الايرانية بجامعة البصرة والمركز اليمني للابحاث والثقافة في عدن وتمت الموافقة على انضمامهما .

وقد أتيحت الفرصة لكل من الدكتور عبدالجليل التميمي لبيان خبرته حول الوثائق العثمانية وكذلك الدكتور (سلوت) معاون مدير الارشيف الهولندي عن خبرته في الوثائق الهولندية .

واقترح الدكتور مصطفى النجار المستشار العلمي للامانة تسمية الدكتور بدر اليعقوب أمينا عاما مساعدا .

القرارات والتوصيات

لقد اتخذ المجتمعون خلال جلساتهم التوصيات التالية :

(١) التأكيد على ضرورة متابعة مدراء

المراكز الذين لم تصل بعد اجابات وزراء خارجيتهم الى سعادة الامين العام بخصوص الارشيف العثماني حتى يتسنى المباشرة في هذا المشروع .

(٢) تقديرا لأهمية فهارس الوثائق للمراكز وتبادلها فيما بينها يكرر المجتمعون ضرورة الاهتمام بهذا الموضوع .

(٣) نظرا لوجود مجلات تخصصية مثل (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية) في الكويت ومجلة (الخليج العربي) في البصرة ومجلة (الدارة) التى تصدرها دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ومجلة (الوثيقة) في البحرين ومجلة (دراسات يمنية) في صنعاء . فإنه يستحسن أن تنشر وقائع الجلسات وتوصيات الدورات وكذلك الابحاث السنوية في هذه المجلات وذلك تعميما للفائدة واقتصادا في النفقات بدلا من الكتاب السنوى .

(٤) تقديرا لقيمة الوثائق الهولندية يوصى المجتمعون بعقد ندوة حول تاريخ الخليج في الوثائق الهولندية وقد اقترحوا عقدها في المجمع الثقافي في أبوظبى نظرا لوفرة الوثائق وخبرة المركز في هذا الموضوع .

(٥) نظرا لأهمية الوثائق العثمانية في كتابة تاريخ الخليج والجزيرة العربية فقد بارك المجتمعون اقامة الندوة من قبل مركز الدراسات والوثائق في رأس الخيمة تحت عنوان (الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية) في الفترة ما بين ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٨٨م .

(٦) يؤكد المجتمعون على ما سبق من توصيات حول التعاون المشترك بين المراكز في كافة المجالات .

(٧) الموافقة على تسمية الدكتور بدر اليعقوب أمينا عاما مساعدا لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية .

(٨) الموافقة على عقد الدورة الحادية عشرة في رأس الخيمة بناء على دعوة من مركز الدراسات والوثائق في الديوان الاميري برأس الخيمة تحت رعاية كريمة من قبل صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمى حاكم الامارة وذلك في الفترة ما بين ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٨٨م .

وقد فوض المجتمعون سعادة الامين العام الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة أن يرسل برقية شكر وتقدير الى صاحب السمو الشيخ جابر الاحمد الصباح أمير البلاد حفظه الله وبرقية الى سمو ولى العهد الشيخ سعد العبدالله الصباح .

اجتماعات الأمانة العامة منذ عام ١٩٧٦م وحتى تاريخه

(١) الاجتماع الأول :

عقد في مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، في الفترة من ١٠ - ١١ أكتوبر ١٩٧٦م .

وأهم التوصيات :

١ - أن تكون الدراسات المشتركة ذات طابع مستقبلي تعالج الشئون العلمية والعلوم الانسانية وغيرها سواء من الناحية الاقليمية أو مستقبل الخليج والجزيرة العربية في الشئون الدولية .

٢ - ان تقوم المراكز بنشر قوائم باسماء المتخصصين والمهتمين بشئون الخليج والجزيرة العربية مع ذكر مؤهلاتهم وبحوثهم العلمية .

٣ - توصى الحلقة أن تعنى المراكز بالآتي :

أ - اجراء مسح بيولوجي للاسماك والاحياء البحرية في الخليج العربي .

ب - مسح الثروة السمكية كغذاء ومصدر من مصادر الدخل القومي .

جـ - اجراء الدراسات المؤدية الى تلوث البيئة وتأثير ذلك على الثروات القومية في المنطقة .

د - اعداد دراسة ميدانية لمجموعة الطيور والحيوانات البرية المتواجدة في الجزر الصغيرة من قبل مراكز دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية .

(٢) الاجتماع الثاني :

عقد في الكويت بمقر مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في ٣٠ نوفمبر ١٩٧٧م .

(٣) الاجتماع الثالث :

عقد في صنعاء في الفترة من ٣١/١٠ الى ٣/١١/١٩٧٨

وقد تم تشكيل الامانة العامة للمراكز العلمية خلال هذا الاجتماع وتتكون من :

١ - مدير مركز دراسات الخليج العربي أمينا عاما
٢ - رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عضوا
٣ - مدير مركز الوثائق والدراسات - الامارات العربية عضوا
٤ - ممثل دارة الملك عبدالعزيز - السعودية عضوا

وقد أوصى المجتمعون بأن تعمل كل الهيئات المشتركة فيها على استصدار قرار رسمي في كل دولة يقضي بالمحافظة على المخطوطات والآثار باعتبارها تراثا وطنيا وقوميا .

(٤) الاجتماع الرابع :

عقد في أبوظبي في الفترة من ١٩ - ٢٢ نوفمبر ١٩٧٩م .
وأهم التوصيات :

١ - تبادل الخبرة في مجال ترجمة الوثائق ودراستها .
٢ - الاعلان عن الوثائق الموجودة في كل مركز وتبادلها من خلال عمل فهارس لها وتسهيل حصول الباحثين على صور منها .
٣ - اصدار كتاب سنوى تساهم المراكز في مادته العلمية ويطبعه المركز المضيف للحلقة .

(٥) الاجتماع الخامس :

عقد في الرياض في الفترة من ٢٠ - ٢٢ ابريل ١٩٨١م
وأهم التوصيات :

١ - تبادل القوائم البيبليوجرافية بمقتنيات مكتبات المراكز من مصادر ووثائق ومخطوطات ومطبوعات عربية وأجنبية ودوريات ، كخطوة أولى لاعداد دليل بيبليوجرافي موحد .
٢ - تبادل الخرائط والصور الجوية من كل دولة من دول المنطقة من أجل اعداد دليل كارتوجرافي موحد .
٣ - تبادل المصادر الاحصائية في المجالات السكانية والبترولية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، تمهيدا لاصدار الكتاب السنوى الاحصائي الموحد لكي يمثل تجسيدا علميا للتعاون العلمي .
٤ - أن تقوم الامانة العامة بمعاونة المراكز الاعضاء وذلك باتاحة فرص التدريب للكوادر المحلية .

(٦) الاجتماع السادس :

عقد فى الدوحة فى الفترة من ٢٤ ـ ٢٨ ابريل ١٩٨٢م .
وأهم التوصيات :

١ ـ تقوم الامانة العامة باصدار نشرة دورية تتضمن انشطتها وانجازاتها لتتمكن عن طريقها ابلاغ رسالتها الى المؤسسات العلمية الاجنبية ولتكون بمثابة الاعلام الخارجي عن جهود الامانة .

(٧) الاجتماع السابع :

عقد فى البحرين فى الفترة من ٢٨ ـ ٣٠ نوفمبر ١٩٨٣ .
وأهم التوصيات :

١ ـ توثيق التعاون العلمى مع أجهزة مجلس التعاون لدول الخليج العربية .
٢ ـ تبادل فهارس الوثائق بين المراكز والهيئات وضرورة تعميق التعاون فيما بينها وخاصة فى مجال تبادل الكتب والمنشورات العلمية .
٣ ـ الاهتمام بكتب الرحلات فى العصر الحديث فى الخليج والجزيرة العربية .

(٨) الاجتماع الثامن :

عقد فى صنعاء فى الفترة من ٦ ـ ٧ يوليو ١٩٨٥م .
وأهم التوصيات :

١ ـ ضرورة وضع خطط علمية قابلة للتنفيذ لمعالجة أوجه النقص فى المكتبة العربية عن منطقة الخليج والجزيرة العربية .

(٩) الاجتماع التاسع :

عقد فى أبوظبى فى الفترة من ١٨ ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٨٦ .
وأهم التوصيات :

١ ـ الموافقة على اصدار سجل سنوى للمراكز حول فهرسة الوثائق المتيسرة والجديدة فى كل مركز على أساس أن يكون حجمه فى حوالى خمسين صفحة لكل مركز .
٢ ـ تأكيد الاهتمام بفكرة الكتاب السنوى حيث أنه مظهر لنشاط المراكز والامانة العامة .

٣ - الموافقة على خطة العمل الطموحة لفهرسة الوثائق العثمانية بالتعاون بين الامانة العامة والمسئولين فى الدولة التركية ، والموافقة على تشكيل لجنة برئاسة الامين العام وعضوية كل من :

١ - مركز الوثائق والدراسات - أبوظبى .
٢ - مركز الوثائق والدراسات الانسانية - جامعة قطر .
٣ - مركز الوثائق - الديوان الاميرى بالكويت .
٤ - دارة الملك عبدالعزيز - الرياض .
٥ - مركز الدراسات والبحوث اليمنى - صنعاء .